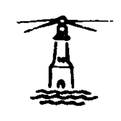
الإمام
الدكتور عبد الحليم محمود

لطائف المنن

تأليف
العارف بالله : ابن عطاء الله السكندري

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الإهداء

إلى الأخ الفاضل:

الأستاذ عبد الحليم مجاهد - الذى كرّم «ابن عطاء الله السكندرى» فشيّد على ضريحه المبارك قبّةً تتناسب مع مكانة صاحبه، وأقام عنده مسجدًا لطيفًا تشرق على الداخل فيه أنوار الولاية، وأضواء الهداية.

جزى الله الأخ الفاضل أجزل الثواب، ومنحه خير ما يمنح العاملين للخير ابتغاء وجهه سبحانه.

عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. وبعد:

فإن آثار الهُداة المهديين الذين رسموا الطريق عن خبرة، ودعوا إليه على بصيرة، كثيرة. ومن أَنْفَسِهَا كتاب «لطائف المنن». ألّفه الإمام الجليل ابن عطاء الله السكندرى، الذى جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلماء الشريعة ورئاسة علوم الحقيقة وعلماء الحقيقة فكان متشرعًا متحققًا، بل رأس علماء التشريع وعلماء التحقيق.

ويقول الإمام أحمد زروق رضى الله عنه:

هو الشيخ الإمام العالم العامل العارف بالله المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسينىّ بن عطاء الله، الجذامى نسبًا، المالكى مذهبًا، الإسكندرىُّ دارًا، القاهرىّ مزارًا. توفى بالقاهرة سنة سبعمائة وتسع فى جمادى الآخرة، وكان أعجوبة زمانه فى التصوّف وغيره كما قيل:

حلف الـزمـانُ لَيـأْتِيَنَّ بمثله   حَنِثَتْ يمينُـك يا زمـانُ فكفّـرِ

ويذكر الشيخ زروق من تآليفه:

«التنوير فى إسقاط التدبير» و«لطائف المنن» و«تاج العروس» و«مفتاح الفلاح» و«القول المجرد فى الاسم المفرد».

أخذ العهد على الإمام الكبير أبى العباس المرسى، الذى قال عنه القطب الشاذلى: «إنه أعلم بطُرُق السماء منه بطرق الأرض».

وقال فيه:

هذا أبو العباس منذُ أنْ عرف الله لم يحجب عنه، ولو طلب الحجاب لم يجده!!

ويقصُّ ابن عطاء الله فى كتابه اللطيف الشائق: «لطائف المنن»، قصَّة صلته بأبى العباس فيقول:

«كنت لأمْرِه (أى لأمر الشيخ أبى العباس) من المنكرين وعليه من المعترضين، لا لشىء سمعته منه ولا لشىء صحّ نقله عنه، ولكن جرت المخاصَمة بينى وبين أصحابه فقلت فيهم قولاً عظيمًا، ثم قلت فى نفسى: دعنى أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات. لا يخفى شأنه، فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس، ومسألةِ درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به، وقربهم منه فقال:

الأول إسلام: وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسم الشريعة.

وثانيها **الإيمان**: وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية.

وثالثها **الإحسان**: وهو مقام شهود الحق تعالى فى القلب.

وإن شئت قلت: الأوّل عبادة، والثانى عبودية، والثالث عبودة.

وإن شئت قلت: الأوّل شريعة، والثانى حقيقة، والثالث تحقّق.

فما زال يقول: وإن شئت قلت، وإن شئت قلت، إلى أن بهر عقلى وسلب لبّى، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلهى ومدد ربّانىّ: فأذهب الله ما كان عندى، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد فىَّ شيئًا يقبل الاجتماع بالأهل على عادتى، ووجدت معنىً غريبًا لا أدرى ما هو، فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء وكواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدْرته، فلمس قلبى أشياء لم أعرفها من قبل، فحملنى ذلك على العودة إليه مرةً أخرى فأتيت إليه، فاستؤذن لى عليه، فلما دخلت إليه قام قائمًا وتلقّانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً، واستصغرت نفسى أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له: يا سيدى أنا والله أحبُّك. فقال: أحبَّك الله كما أحببتنى، ثم شكوت له ما أجده من هموم وأحزان، فقال:

أحوال العبد أربع لا خامسة لها: النعمة والبلية، والطاعة، والمعصية، فإن كنت فى النعمة فمقتضى الحق منك الشكر. وإن كنت فى البليّة فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود مِنّتِه عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار، فقمت مِن عنده وكأنما كانت الهموم ثوبًا نزعته، ثم سألنى بعد ذلك بمدّة، كيف حالك؟ فقلت: أفتّش عن الهمّ فما أجده، فقال:

ليلى بوجهك مشرقٌ	وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سُدَف الظلا	م ونحن فى ضوء النهار

الزمْ، فوالله لئن لزمت لتكوننَّ مفتيًا فى المذهبين؛ فى علوم الظاهر وحقائق الباطن.

وعن هذه الملازمة يروى ابن عطاء الله القصة التالية، قال:

خرجت يومًا من عند الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه، وخرج معى أبو الحسن الجزيرى، وكان من أصحاب الشيخ أبى الحسن، فسلّمت عليه، فسلّم علىَّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفنى؟

فقال: كيف لا أعرفك؟ كنتُ يومًا جالسًا عند الشيخ أبى العباس وكنت أنت عنده، فلما نزلتَ قلت له: يا سيدى إنه يعجبنى هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم، قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن، لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيًا يدعو إلى الله فكان كما قال الشيخ ولله الحمد.

أخذ ابن عطاء الله العهد على أبى العباس، ولازمه، وكانت بينه وبينه أمور توضّح شيئًا من صلتهما وتلقى بعض الأضواء على سيرته، منها مثلاً ما يدّل على أنَّ جدّ ابن عطاء الله كان فقيهًا معارضًا للنزعة الصوفية.

جاء فى لطائف المنن: وأخبرنى بعض أصحابه قال: قال الشيخ (أبو العباس) يومًا: «إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية فأعلمونى به، فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك، فقال: تقدمْ، فتقدمت بين يديه، ثم قال:

جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش، فقال له جبريل (عليه السلام): هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك فى قريش، فسلّم عليه مَلَكُ الجبال، وقال: يا محمدُ إن شئتَ أطبقُ عليهم الأخشبين فَعَلْتُ، فقال رسول الله ﷺ:

لا ولكن أرجو أن يخرج من أصلابهم مَنْ يوحّد الله ولا يشرك به شيئًا.

فصبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاءَ مَنْ يخرج من أصلابهم، كذلك صبرنا على جدّ هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه» ا.هـ.

ولكن الأمور، فى الاطمئنان إلى المسلك الصوفى، لم تكن تسير، فى كل ظروفها رخاء: فإن ابن عطاء الله كان طالبًا محبًّا للعلم مشغوفًا بقراءة الكتب، وبينما هو مندمج فى الجوّ الطلّابىّ إذا بالطلبة يتحدثون عن العلم الظاهر والتصوف، ويروى هو القصة كما يلى:

وكنت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا يجىء منه فى العلم الظاهر شىء، فشقّ علىَّ أن يفوتنى العلم، وشقّ علىَّ أن تفوتنى صحبة الشيخ رضى الله عنه، فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحمًا بخلّ، فقلت فى نفسى: ليت الشيخ يطعمنى لقمةً من يده، فما استتمت الخاطر إلّا وقد دفع فى فمى لقمةً فى يده، ثم قال: نحن إذا صَحِبَنا تاجرٌ ما نقول له: اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له: اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له: اترك طلبك وتعال، ولكن نقرّ كلّ أحد فيما أقامه الله فيه. وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه. وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ، فما قال لتاجر: اترك تجارتك، ولا لذىْ صنعة اترك صنعتك، بل أقرَّهم على أسبابهم، وأمرهم بتقوى الله فيها.

ولكن يبدو أن ابن عطاء الله حينما اندمج فى جوّ الأستاذ ولازمه حاول محاولةً ردَّهُ الأستاذُ عنها، يقول ابن عطاء الله:

ودخلت أنا عليه يومًا وفى نفسى ترك الأسباب، والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر، قائلًا: إنَّ الوصول إلى الله لا يكون إلّا على هذه الحالة، فقال من غيرٍ أن أبدى له شيئًا:

صحبنىْ بقوص إنسان يقال له: ابن ناشىء وكان مدرسًا بها ونائب الحاكم، فذاق من هذا الطريق شيئًا على أيدينا. فقال: يا سيدى أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل. ثم قال: وهذا شأن الصدّيقين لا يخرجون من شىء حتى يكون الحقُّ سبحانه هو الذى يتولّى إخراجهم. فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قَلْبى وكأنما كانت ثوبًا نزعته ورضيت عن الله فيما أقامنى فيه.

ولقد قدر الإمام أبو العباس تلميذه النابه، وتبنّى قيادته إلى المكانة الجدير بها، ويشير إلى ذلك

القصتان التاليتان، يقول ابن عطاء الله:

«وكنت قلت لبعض أصحاب الشيخ: أريد لو نظر إلىَّ الشيخ بعناية، وجعلنى فى خاطره، فقال ذلك للشيخ، فلما دخلت على الشيخ رضى الله عنه قال:

لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده.

ثم قال: أى شىء تريد أن تكون؟ والله ليكونَنَّ لك شأن، والله ليكونَنَّ لك شأن عظيم، والله ليكونَنَّ لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلّا قوله: ليكونَنَّ لك شأن عظيم، فكان من فضل الله سبحانه ما لا ننكره».

ويقول: وأخبرنى سيدى جمال الدين، ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله فى الفقه، فقال الشيخ:

هم يصدرونه فى الفقه، وأنا أصدره فى التصوف. ودخلت أنا عليه فقال لى:

إذا عوفى الفقيه ناصر الدين يجلسك فى موضع جدّك، ويجلس الفقيه من ناحية، وأنا من ناحية، وتتكلم إن شاء الله فى العِلمين، فكان ما أخبر به رضى الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذى كان له الفضل الكبير فى بيان كثير مما يعرفه الآن من آثار أبى العباس المرسى.

وفى بيان الكثير أيضًا مما نعرفه عن القطب الكبير الحجّة أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذى جنّد قلمه للدعوة إلى طريق الله فكتب هذه الدرر التى تركها مصابيحَ وأنجمًا تهدى السائرين إلى الله تعالى.

* * *

والكتاب الذى نقدمه الآن كتاب مبارك، إذ إنه يتحدث عن شخصيتين هما فى القمّة من السموّ الروحىّ: إنه يتحدث عن الإمام الكبير أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، وعن الإمام الكبير أبى العباس المرسى رضى الله عنه.

وما كان الوصول إلى القمّة فى السموّ الروحىّ - فى يوم من الأيّام - سهلًا ميسورًا. كلّا. وإنما له ثمنه الباهظ من مجاهدة النفس، ومن قيام الليل، وصيام النهار، والعمل فى كل لحظة لمرضاة الله سبحانه.

ولقد كافح كل منهما فى سبيل الله طيلة حياته.

أما أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فقد بدأ حياته بأمرين لابدّ منهما لكل من يريد سلوك طريق الله وهما:

١ - العلم.

٢ - والعبادة.

أمّا العلم فلأنه لابدّ من التأسّي برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلّا لما أفلح السالك أبدًا.

والتأسّي برسول الله ﷺ لابدّ له من دراسة السنّة دراسةً متمعّنة.

ودراسة السيرة النبوية دراسة متأمّلة.

ورسول الله ﷺ كان شعاره، وكان طابعه، وكان أساسه، وكانت وجهته: كتاب الله سبحانه. ومن هنا كان لابدّ للقرب من الله تعالى، من اتّخاذ القرآن شعارًا وطابعًا وأساسًا ووجهةً.

وقد درس كل ذلك أبو الحسن الشاذلى أحسن وأجمل ما تكون الدراسة فكان عالمًا قمّةً فى العلم.

وكانت له كتب مفضلة يداوم على دراستها لتلاميذه ومريديه ومن هذه الكتب:

١ - كتاب «إحياء علوم الدين» وهو كتاب ألّفه الإمام الغزالى فى فترة خلوته وفى أيام عبادته وقربه من الله تعالى. إنه ثمرة من ثمار القرب، وهو من خير ما يتخذ الإنسان من الذخائر. ويقول عنه الإمام النووى:

«كاد الإحياءُ يكون قرآنًا».

وذلك أنه يستمدُّ من القرآن. والإمام النووى حجّة فى السنّة وحجّة فى الفقه وكلمته لها وزنها الكبير. كان أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقرأ هذا الكتاب ويدرسه لتلاميذه.

٢ - كتاب «قوت القلوب» لأبى طالب المكى وهو كتاب ينصّ الإمام الغزالى على أنه من الكتب التى قرأها وهو بصدد السلوك الصوفى، ويقول عنه أبو الحسن: القوت: قوت.

ويقول عنه: القوت يفيد النور، كان أبو الحسن يقرؤه ويُدَرِّسه.

٣ - كتاب «الرسالة القُشَيرية» وهو الكتاب الذى يعتبر دستور الصوفية، وقد ألّفه الإمام القشيرى: لا لهدف المعرفة فحسب، وإنما ليكون ميزانًا للصوفية ومقياسًا لأعمالهم ويقول فى ذلك:

«[1]ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلّا أثرُهم كما قيل:

أمـا الخيـام فـإنها كخيـامهم ... وأرى نساءَ الحىّ غير نسائها

حصلت الفترة[2] فى هذه الطريقة. لا بل اندرست[3] الطريقة بالحقيقة. مضى الشيوخ الذين كان بهم الاقتداء، وقلّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنّتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه. واشتدّ الطمع وقوى رباطه.

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدُّوا قلّة المبالاة بالدينأوثق ذريعة. ورفضت التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفّوا بأداء العبادات، واستهانوا

(١) ص ٢٧ من الرسالة القشيرية.
(٢) الفترة: التراخى والتفريط.
(٣) اندرست: زالت ومحيت.

بالصوم والصلاة، وركضوا فى ميدان الغَفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات، والارتفاق[٤] بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاطَوْهُ من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادَّعَوْا أنّهم تحرروا عن رقّ الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجرى عليهم أحكامه، وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كُوشفوا بأسرار الأحدية، واختطِفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكامُ البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمديّة، والقائلُ عنهم غيرهُم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرّفوا بل صُرِّفوا..

ولما طال الابتلاءُ فيما نحن فيه من الزمان بما لوّحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسانَ الإنكار، غيرةً على هذه الطريقة أن يذكر أهلُها بسوء، أو يجد مخالفٌ لثلبهم مساغاً: إذ البلوى فى هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة.

ولما كنت أؤمّل من مادة هذه الفترة أن تَنْحَسِمَ ولعلَّ الله سبحانه يجود بلطفه فى التنبيه لمن حاد عن السنّة المثلى فى تضييع آداب هذه الطريقة.

ولما أبى الوقت إلاّ استصعابًا، وأبى أكثر أهل العصر بهذه الديار إلاّ تماديًا فيما اعتادوه واغترارا بما ارتادوه..

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر – على هذه الجملة[٥] – بنى قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه:

فعلّقت هذه الرسالة إليكم، أكرمكم الله. وذكرت فيها بعض سِير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقّيهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدى هذه الطريقة قوّة، ومنكم لى بتصحيحها شهادة، ولى فى نشر هذه الشكوى سلوة، ومن الله الكريم فضلاً ومثوبة. وأستعين بالله سبحانه فيما أذكره وأستكفيه، وأستعصمه من الخطأ فيه، وأستغفره وأستعفيه[٦]، وهو بالفضل جدير وعلى ما يشاء قدير» ا.هـ.

وهذه الرسالة كتاب موفّق كل التوفيق، قسّمه مؤلّفه إلى أربعة أقسام معرفتها ضرورية لكل سالك.

القسم الأوّل: قسم العقائد، ذكر فيه للمؤلف عقائد الصوفية من أقوالهم وبيّن بما لا لَبْسَ فيه أنها هى نفس عقائد أهل السنة.

والقسم الثانى: ذكر فيه تراجم كبيرة من أعلام التصوّف حتى يكونوا مُثلًا يحتذيها السائرون إلى الله.

والقسم الثالث: تحدث فيه عن مصطلحات الصوفية، وللتصوّف مصطلحاته الخاصة به كما أن لكل فنٍّ مصطلحاته. والواقع أن عدم فهم بعض الناس لمصطلحات الصوفية هو الذى يوقعهم فى

---

(٤) الانتفاع.

(٥) جملة مزاعمهم وادعاءاتهم.

(٦) أطلب العفو ردة عن الخطأ.

عدم فهم التصوُّف، ولو فهمت هذه المصطلحات من أمثال: الزهد والتوكل والفناء والحقيقة والشريعة وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. إلخ. أقول: لو فهمت هذه المصطلحات ونحوه على حقيقتها لما كان هناك سوء فهم للتصوُّف، وهذا القسم من أهم الأقسام.

أما القسم الرابع: فإنه فى بيان المقامات التى يتدرّج الإنسان فيها من مقام روحىّ إلى مقامٍ أسمى حتى يصل إلى أسمى المقامات الروحية.

ثم يكون الحديث عن الشيخ وسماته وعن المريد وآدابه.

كان أبو الحسن يقرأ هذا الكتاب ويدرّسه.

وهذا الكتاب هو الذى كان يقرؤه مع كبار العلماء فى أثناء الليالى التى دارت فيها معركة المنصورة الشهيرة. وذلك حينما كانوا يفرغون من أمور الجيش والحرب، ويأوون إلى خيمة من خيام الجيش: يصلّون ويدعون ويبتهلون إلى الله داعين بالنصر، ثم يتحدثون فى العلم ويقرءون الرسالة القشيرية.

٤ – وكان أبو الحسن رضى الله عنه يقرأ لتلاميذه كتاب «الشفاء» للقاضى عياض فى السيرة النبوية وهو من أحسن ما كُتِبَ فيها.

٥ – وكان يدرس لمريديه كتاب «ختم الأولياء» وهو من الكتب التى أثارت ثورة فى الفكر الإسلامى وفى الجو الروحى وقد طبع فى لبنان للمرة الثانية.

٦ – أما فى التفسير فكان الإمام يدرس لمريديه كتاب «المحرر الوجيز» وهو كتابٌ أَقَرَّ بفضله القدماءُ والمتأخرون، وقد أُعِدَّ للطبع من عدة جهات، ونرجو الله سبحانه أن يُيَسّر طبعه.

٧ – وكان الشيخ رضى الله عنه يدرس للمتعمقين المتخصّصين كتاب «المواقف» وهو من الكتب التى تحتاج إلى استعداد خاص.

وكان يدرس غير ذلك، وما أردنا الاستقصاء وإنما أردنا أن نبيّن أن التصوّف الصادق يُعنى بالجانب العلمى عنايةً كريمة، ويعنى بصفوة من الكتب التى تسير على النسق السلفى الكريم.

ولقد سار أبو العباس على نسق أستاذه، وكانت هذه الكتب وغيرها مما يدرس لمريديه.

يقول ابن عطاء الله:

وكان كتابه فى أصول الدين: «الإرشاد».

وفى الحديث كتاب «المصابيح».

وفى الفقه كتاب «التهذيب» و «الرسالة».

وفى التفسير كتاب «ابن عطيّة».

أما فيما يتعلّقُ بالصلة التى بين أبى الحسن وأبى العباس رضى الله عنهما فتصوِّرها خير تصوير الرُّؤيا الآتية:

يقول ابن عطاء الله: أخبرنى بعض أصحابنا قال:

رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلى ينزل من السماء والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلمّا رآه الشيخ أبو العباس ثبّت رجليه فى الأرض وتهيّأ لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ودخل من رأسه حتى غاب فيه.. واستيقظت.

فى هذه الرؤيا أمور:

١ - أبو الحسن ينزل من السماء.

٢ - عليه ثياب بيض.

٣ - أبو العباس يتهيّأ لاستقباله، ويثبّت رجليه فى الأرض.

٤ - يدخل أبو الحسن من رأسه ويغيب فيه.

ومعنى الرؤيا أن أبا الحسن وأبا العباس امتزجا حتى أصبحا كائنًا واحدًا أى أن أبا العباس استمرار لأبى الحسن.

وهذه رؤيا معبّرة كل التعبير عن الواقع. وكل ما يقال عن أبى الحسن من آراء يمكنك أن تقول فى يقين: إن أبا العباس لا يخالفه والعكس صادق.

عن هذين الإمامين كان كتاب لطائف المنن.

* * *

وعهدى بكتاب «لطائف المنن» عهد قديم: فقد قرأته قراءةً متأنية حينما شرعت فى الإعداد للكتابة عن الإمام أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، ثم قرأته مرةً ثانية حينما شرعت فى الإعداد للكتابة عن الإمام أبى العباس المرسى، رضى الله عنه ورجعت إليه أكثر من مرةً بعد ذلك لظروف ومناسبات عدّة منها مثلاً: حينما كتبت كلمات عن الإمام المؤلّف للكتاب: ابن عطاء الله السكندرى (رضى الله عنه) عند نشر شرح الحكم للإمام ابن عباد، وعند نشر شرح الحكم للإمام أحمد زروق. وفى كل مرّة قرأته أو رجعت إليه كنت أتمنى لو خرج هذا الكتاب إلى الناس، فى طبعة ميسرة: تحقيقًا وتعليقًا.

والأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وما تشاءون إلّا أن يَشَاءَ الله﴾.

وتمضى السنون والكتاب دائمًا فى متناول يدى أقلّب صفحاته الفينة بعد الفينة، ثم أضعه فى مكانه حتى شاء الله سبحانه أن يكون ظهور الكتاب عند افتتاح مسجد ابن عطاء الله السكندرى.

لقد كان ضريح ابن عطاء الله السكندرى على صورة لا تتناسب مع مكانته، وكان الزائر له لا يكاد يهتدى إلى مكانه، واستمرّ ذلك قرونًا إلى أن وجّه الله سبحانه الرجل الصالح عبد الحليم مجاهد - الذى يحيط به الخير أينما سار، ويفيض عنه سهلًا ميسرًا - إلى بناء مسجد يتناسب ومكانة ابن عطاء الله السكندرى، وبنى المسجد مباركًا مشرقًا، وأثلج ذلك صدور الصالحين عمومًا والشاذلية

خصوصًا، فجزى الله الأخ عبد الحليم مجاهد خير الجزاء، وأثابه على ما قدَّم أجزل الثواب، ووفقه الله دائمًا لصالح الأعمال.

* * *

وإننا حين نقدم هذا الكتاب فإنما نقدم كتابًا من النوع النفيس الذى يقرؤه القارىء فينعم بأسلوب جميل، ويستفيد علمًا نافعًا، وهكذا كُتب ابن عطاء الله السكندرى: إنها فى أساليبها تتسم بالفصاحة، وفى معانيها تتسم بالنفاسة، وهى بأسلوبها ومعانيها تنبثق عنها روحانيَّة هى سمة مؤلَّفات أولياء الله، وإذا كان أولياء الله هم الذين إذا رُؤُوا ذكر الله: فإن مؤلفاتهم حينما تقرأ فإنها تهدى إلى الله وتقود إليه سبحانه، ولقد قال أبو الحسن الشاذلى رضوان الله عليه: كتاب الإحياء يفيد العلم، وكتاب قوت القلوب يفيد النور، وكلاهما يفيدان العلم والنور، وكذلك الأمر فى كتب ابن عطاء الله: إنها تفيد العلم والنور، وتفيد لذة تذوُّق الأسلوب الجميل. وإذا كان أسلوب ابن عطاء الله قد بلغ القمة فى كتابه الحِكَم حتى ليقول الشيخ محمد عبده:

«كاد كتاب الحكم يكون قرآنًا».

فإن أسلوبه فى بقية كتبه هو من الأساليب الممتازة فى البلاغة: كلامه جواهر، وجواهره لآلئ ولآلئه ماس، وماسه من النوع النادر.

ولقد بلغ ابن عطاء الله القمة: أسلوبًا ومعنًى فى مناجاته التى يقرؤها الصالحون قبيل الفجر فيجدون ثمرتها إشراقًا فى صدورهم ونورًا فى قلوبهم.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الكتابة عن ابن عطاء الله أن نتوِّج كلمتنا عنه بهذه المناجاة الممتعة الرائعة:

مناجاة

إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى؟

إلهى أنا الجهول فى علمى فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى؟

إلهى إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك: منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك فى بلاء.

إلهى مِنى ما يليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك.

إلهى وصفت نفسك اللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى؟

إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنّة علىّ، وإن ظهرت المساوئ منى فبعدلك ولك الحجّة علىَّ.

إلهى كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت بى؟ وكيف أضام وأنت النصيرُ لى؟ أم كيف أخيب وأنتَ الحفِىُّ بى؟ ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محالٌ أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك؟ أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك؟

إلهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى؟

إلهى ما أقربك منّى وما أبعدنى عنك؟

إلهى ما أرأفك بى فما الذى يحجبنى عنك؟

إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرّف إلىَّ فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء.

إلهى كلَّما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك، وكلما أيأستنى أوصافى أطمعتنى مِنَنُك.

إلهى من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساوئه مساوئ؟ ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى؟

إلهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذى مقال مقالاً ولا لذى حال حالاً.

إلهى كم من طاعة بَنَيْتَها وحالة شيّدتُها هدم اعتمادى عليها عدلُك، بل أقالنى منها فضلك.

إلهى إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلاً جزمًا فقد دامت محبةً وعزمًا.

إلهى كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر.

إلهى تردّدى إليك فى الآثار يوجب بعد المزار فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك.

إلهى كيف يُسْتَدَلّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك

حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التى توصّل إليك.

إلهى عَمِيت عينٌ لا تراك عليها قريبًا رقيبًا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيبًا؟

إلهى أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعنى إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبْصَار: حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السّر عن النظر إليها ومرفوع الهمّة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شيء قدير.

إلهى هذا ذلّى ظاهر بين يديك، وهذا حالى لا يخفى عليك، منك أطلُب الوصول إليك؛ وبك أستدلّ عليك؛ فاهدنى بنورك إليك، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك.

إلهى علمنى من علمك المخزون وصُنّى بسر اسمك المصون.

إلهى حقّقنى بحقائق أهل القرب، واسلك بى مسالك أهل الجذب.

إلهى اغننى بتدبيرك عن تدبيرى وباختيارك لى عن اختيارى، وأوقفنى على مراكز اضطرارى.

إلهى أخرجنى من ذلّ نفسى، وطهّرنى من شكّى وشركى قبل حلول رمسى، بك أستنصر.. فانصرنى، وعليك أتوكل فلا تكلنى، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى، وببابك أقف فلا تطردنى، وإيَّاك أسأل فلا تخيبّنى، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى.

إلهى تقدّس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة منى؟ أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنيًّا عنّى؟

إلهى إن القضاء والقدر غلبنى، وإن الهوى بوثاق الشهوة أسَرنى، فكن أنت النصير لى حتى تنصرنى فى نفسى وتنصر بى، وأغننى بجودك حتى أستغنى بك عن طلبى، أنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وَجَدَ من فقدك، وما الذى فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك حِوَلاً.

إلهى كيف يُرْجَى سِواك وأنت الذى ما قطعت الإحسان؟ وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدَّلت عادة الامتنان؟ يا من أذَاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، ويامن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزّين، أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين وأنت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثمَّ أنت لِمَا وهبتنا من المستقرضين.

إلهى اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك، واجذبنى بمنّتك حتى أقبل عليك.

إلهى إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك.

إلهى قد دفعتنى العوالم إليك وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك.

إلهى كيف أخيب وأنت أملى؟ أم كيف أهانُ وعليك متّكلى؟

إلهى كيف أستعزّ وفى الذلّة أركزتنى؟ أم كيف لا أستعز وإليك نسبتى؟

إلهى كيف لا أفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمتنى؟ أم كيف أفتقر وأنت الذى بجوُدِك أغْنَيتَنى؟ أنت الذى لا إله غيرك، تعرفتَ لكل شىء فما جهلك شىء، وتعرفت إلىَّ فى كل شىء فرأيتُك ظاهرًا فى كل شىء، فأنت الظاهر لكل شىء، يامن استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبًا فى رحمانيته كما صارت العوالم غيبًا فى عرشه، محقْتَ الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار، يامن احتجب فى سرادقات عزّه عن أن تدركه الأبصار، يامَن تجلَّى بكمال بهائه فتحققت عظمتَهُ الأسرارُ: كيف تخفى وأنت الظاهر؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟ (ا.هـ).

وبعد: فلقد لازم ابن عطاء الله أستاذه أبا العباس رضى الله عنهما، ثم كان من بعده شيخ الطريقة الشاذلية إلى أن توفى فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٩.

وأما بعد: فالله أرجو أن يهدى لهذا الكتاب وأن يهدىَ به إنه سميع قريب مجيب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

كِتَاب لطائِف المنن

في مناقب علم المهتدين، وقدوة السالكين، سيدى أبى العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى وشيخه قطب الأقطاب، ودستور عوارف المعارف بلا ارتياب سيدى أبى الحسن الشاذلى.

تأليف

شيخ الحقيقة، وإمام الطريقة، الشيخ الإمام تاج الدين أبى الفضل أحمد ابن الشيخ الهمام فخر الدين أبى بكر محمد ابن الشيخ الإمام العلامة رشيد الدين أبى محمد عبد الكريم بن عطاء الله رضى الله عنهم أجمعين، ونفعنا بهم آمين.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى فتح لأوليائه[1] باب محبته، وأنشط نفوسهم من عقال القطيعة[2]، فقاسوا

(1) إن من الأهمية بمكان - فى ابتداء هذا الكتاب المبارك - أن نتحدث عن الولاية، وذلك أن المؤلف رضى الله عنه يتحدث عن الولاية نظريًا بكلام غاية فى النفاسة، ويذكر كرامات وقعت بالفعل لكثير من الأولياء.

وليس لأحد أن يبتدع تعريفًا للولاية بعد تحديد الله سبحانه وتعالى لها، إنه سبحانه وتعالى يقول عن الأولياء، إنهم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى رعايته لهم، وعنايته بهم، فقال سبحانه:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وزاد سبحانه وتعالى تفضّلًا بالنسبة لهم فقال: ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾.

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله تعالى: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾!

ثم بين نفاسة الثمار التى تجتنى من الولاية فقال: ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ (يونس: الآيات ٦٢-٦٤).

وإن كل حديث عن الولاية إنما هو تفسير لهذه الآيات الكريمة، ومن ذلك الحديث القدسى الذى رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى قال:

«من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنّه» ومعنى آذنته بالحرب: (أعلمته بأنى محارب له). ومن ذلك ما يقوله صاحب كتاب: (أنس الفقير) - ننقله هنا؛ لأنه يعبر تعبيرًا كاملًا عن وجهة نظرنا فى هذا الموضوع - يقول: (فأما صفة الولى، فقد دل - رسول الله ﷺ - على صفة الأولياء فقال:

«الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل» (سنن ابن ماجه والحلية ٦،١).

وفى هذا الحديث الشريف من الدلالة عليهم كفاية تامة، فأولياء الله تعالى: «الذين إذا رآهم المؤمن عظّم ربه، وذكر ذنبه».

ويقول:

«واعلم أن من امتثل أوامر الله تعالى، واجتنب نواهيه، ورزق الخوف من الله تعالى، لا من خلقه، واجتهد فى طاعته - جل وعلا - وبحث عن أمر كسبه ووقف عندما حدّ له، ورجع عن كلّ مالا يعلم حكمه: فهو الصالح.

وأعلى درجة من هذا: حصول الورع التام، وترك الطمع، وبغض الدنيا ومن تمسّك بها، والفرار من دواعيها، ومن أهلها، والقناعة باليسير منها. ودرجات الصالحين تختلف بالترقى فى ذلك على حسب العناية من الله تعالى..

واعلم أن الكرامة ليست من شرط حصول الولاية، فقد تحصل الكرامة، لكن إن وقعت لولىّ، فهى دالة على صدق عبادته، وعلوّ مكانته، بشرط اتّباعه لحقيقة ما أمر به النبى عليه السلام، وإلّا فهى خذلان من الشيطان. ومن الصالحين من يعلم بولايته، ويعلم غيره بها، ومنهم من لا يعلم بنفسه، ولا يعلم به، ومنهم من يعلم به، ولا يعلم هو بنفسه، والعالمون بها: منهم من يكتمها جهد استطاعته، ومنهم من يظهرها ويصرح بها» اهـ.

«لا يستدل على الولىّ بالكرامة لاحتمال أن تكون من الشيطان، وإنما يستدلّ على صدق الكرامة بصحة الولاية».

وكرامات الصحابة والتابعين لا تكاد تحصى:

ففى البخارى أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ. فى ليلة مظلمة. فإذا النور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرّق النور معهما!

وفى البخارى - أيضًا -: أن عمران بن حصين كانت تكلّمه الملائكة.

ونادى عمر بن الخطاب: «ياسارية الجبل!» يحضّه على الرجوع إلى الجبل حذرًا من العدو، وبينهما مسيرة أيام. فرآه وسمعه سارية. فرجع إلى الجبل وسلم من العدو».

(2) أى حلّ نفوسهم وفكّها من أسر المعاصى التى تقطع الصلة بينهم وبينه.

بوجوب خدمته، وأمدّ عقولهم بنوره، فعاينت عجائب قدرته، وحرس قلوبهم من الأغيار[٣]، ومحا منها صور الآثار، حتى ظفِرت بمعرفته!

كشف لأرواحهم عن قدس كماله، ونعوت جلاله، فهم سبايا حضرته[٤].

متّع أسرارهم بقربه، بخطفات جذبه، فتحققوا بشهود أحديّته.

أخذهم منهم، وأفناهم عنهم، فغرقوا في بحر هويته.

فرّق جيوش التفرقة بكتائب الجمع[٥] لأهل خصوصيته، وحَمى حِمى الأسرار بمدد الأنوار أن يكون مظهرًا لغير فرديته!

أطلع كواكب العلوم في سماء الفهوم تهدى السائرين لحضرة ربوبيته، وأضاء قمر التوحيد في بيداء التفريد، فانطوت الكائنات في وجود أزليته، وما كانت معه في أزله[٦] حتى تكون معه في أبديته، بل هو الأوّل والآخر لا بالإضافة لبريته، والظاهر والباطن كذلك، وما الكون حتى يقاس بقدوسيته؟!

أحمده والحمد واجب لصفات جلاله وعظمته.

وأشكره، والشكر مستحق له بإسباغ نعمته.

وأرجوه، وكيف لا أرجوه، وهو الذى وسع كل شيء برحمته[٧]، وغمر العباد في الغيب والشهادة بطوائل منّته.

وأعترف له بالتقصير عن القيام بحقوق أحدّيته.

واعلم أنه لا يحاط بذاته وصفته.

ليس للعبد منه إلّا ما منّ به عليه، ولا يضاف له من المحاسن إلّا ما أضافه إليه[٨]، ولا ينتصر

---

(٣) الأغيار: - أو ما يعبّر عنه - بـ(السوى) هو: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى.

وأولياء الله سبحانه وتعالى لا يستعبد قلوبهم صنم من الأصنام الكثيرة التى تتمثل فى شهوة أو جاه أو ثراء، وقلوبهم ملأى بالله سبحانه.

(٤) سبايا: أسرى.

(٥) مما يجرى فى كلام الصوفية كثيرًا: «الجمع والتفرقة»، قال الأستاذ أبو على الدقاق: الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك. ومعناه: أن ما يكون كسبًا للعبد من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية، فهو الفرق.

وما يكون من قبل الحق: من إبداء معان. وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم فى الجمع والفرق؛ لأنه من شهود الأحوال. فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله عن طاعاته ومخالفاته، فهو عبد بوصف التفرقة، ومن أشهده الحق - سبحانه - ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه. فهو عبد بشاهد الجمع.

(٦) وقد روى البخارى مقدم أهل اليمن لرسول الله ﷺ بعد قبولهم الإسلام وقولهم له ﷺ: جئنا نسألك عن - أوّل - هذا الأمر ما كان. فقال ﷺ: كان الله ولم يكن شيء غيره - وفى رواية ولم يكن شيء قبله - وكان عرشه على الماء، وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض - وذكر فى فتح البارى أن بعض الروايات فيها: كان الله ولا شيء معه.. ويستفاد من هذه الروايات وغيرها: أن الله سبحانه: كان. ولا عرش ولا كرسى، ولا ماء، ولا كون - وكل ما يقال عن قدم العرش أو الكرسى فهو من الأباطيل.

(٧) قال تعالى: ﴿ورحمتى وسعت كل شيء﴾.

(٨) إن الإنسان فى كل ما يتعلق بالله سبحانه، ذاتًا وصفات - يجب عليه أن يلتزم التزامًا كاملًا بما ورد فى الآثار الصحيحة، =

فى المصادر والموارد إلّا بالتوكّل عليه.

العزيز القادر، الحكيم القاهر، الرقيب على فعل كل فاعل، ونظر كل ناظر، لا يخفى عليه ما فى الضمائر، ولا يعزب عن علمه مستكنّات السرائر؛ أظهر فى ملكه حكمته، وفى مكوته قدرته، وتعرّف لكل شىء، فلا شىء يجحد ربوبيته، ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[٩].

وأشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وكل شىء يشهد بأحدّيته فى ألوهّيته.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المصطفى من خليقته المشهود له فى الغيب والشهادة بكمال خصوصيته، القائم لمولاه بكمال الوفاء فى عبوديته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، صلاةً تدوم بدوام أبديته وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإنّى قصدت فى هذا الكتاب أن أذكر جملًا من فضائل سيدنا ومولانا الإمام: قطب العارفين، علَم المهتدين، حجّة الصوفية، مرشد السالكين منقذ الهالكين، الجامع بين علم الأسماء والحروف والدوائر، المتكلم بنور بصيرته الكاملة على السرائر، كهف الموقنين، ونخبة الواصلين، مظهر شموس المعارف بعد غروبها، ومبدى أسرار اللطائف بعد عزوبها[١٠] الواصل إلى الله، والموصل إليه:

«شهاب الدين: أبى العباس بن عمر الأنصارى المرسى».

أسكنه الله حظيرة قدسه، ومتّعه – على مر الساعات – بموارد أنسه، وأذكر شيخه الذى أخذ عنه، ومنازلاته[١١] التى نقلت عنه، أو سمعها منه، وكراماته، وعلومه وأسراره، ومعاملاته مع الله سبحاه وتعالى، وما قاله من تفسير آية من كتاب الله عز وجل، أو إظهار لمعنى خبر نقل عن رسول الله ﷺ، أو كلام على حقيقة – نقلت عن أحد من أهل الطريق – أشكل معناها، ولم يفهم مغزاها، وما نقله عن شيخه الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، وما قاله هو من الشعر، أو قيل بحضرته، أو قيل فيه مما يتضمن ذكر الطريق وأهلها؛ وأنقل ما يمكن إثباته من أخباره كثيرها وقليلها.

وكان أصحاب الشيخ الإمام القطب أبى الحسن – قدّس الله روحه – قد أثبتوا جملًا من كلامه، وإن كان هو – رضى الله عنه – لم يضع كتابًا؛ وقد بلغنى عنه أنه قيل له:

يا سيدى لم لا تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم؟

= فقد بلّغ رسول الله ﷺ كل ما يحتاج الإنسان إليه فى أمر العقيدة، ولم يختلف المسلمون إلّا عندما تعدّوا النصوص، وأخذوا يقولون بآرائهم، أو أخذوا يضيفون إلى النصوص من عند أنفسهم، وكل ما يتصل بالذات أو الصفات يجب الإيمان به، على مراد الله فيه، فمثلًا حينما يقول الله سبحانه:

﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

تقول فيها: إننا نؤمن بها على مراد الله سبحانه – وقوله تعالى:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

نقول فيها: إننا نؤمن بها على مراد الله فيها، وكل ما يتأتى من تأويل أو خروج عن هذا الموقف فإنه ليس سبيل أسلافنا – رضوان الله عليهم – وكلام المؤلف فى ذلك من أحكم ما قيل.

(٩) الأعراف: ٥٤. (١٠) ذهابها. (١١) جهاده فى العبادة.

فقال رضى الله عنه: كتبى أصحابى!

كذلك شيخنا أبو العباس - رضى الله عنه - لم يضع فى هذا الشأن كتابًا. والسبب فى ذلك: أن علوم هذه الطائفة علوم التحقيق، وهى لا تتحملها عقول الخلق.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس - رضى الله عنه - يقول:

جميع ما فى كتب القوم عبرات دموع من سواحل من بحر التحقيق!

ولا أعلم أن أحدًا من أصحاب شيخنا أبى العباس رضى الله عنه تصدّى إلى جمع كلامه، وذكر مناقبه وأسرار علومه وغرائبه، فحدانى ذلك إلى وضع هذا الكتاب بعد أن استخرت الله تعالى وطلبت منه المعونة وهو خير معين، وسألته أن يهدينى إلى الصراط المستبين..

وقسّمته إلى مقدمة، وعشرة أبواب، وخاتمة:

أما المقدمة فتشتمل على إقامة الدليل على أن نبينا محمدًا ﷺ أفضل بنى آدم، بل أفضل البشر، بل أفضل الخلق كافة[١٢]..

وأفردت كل مقام بإقامة الدليل عليه من كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ، وبينت أن مدد الأولياء من الحقيقة المحمدية[١٣]، وأن الأولياء إنما هم مظاهر أنوار النبوة[١٤] ومطالع شوارقها..

---

(١٢) يقول الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

والتقوى درجات. وأساسها اتقاء الشرك. ثم اتقاء المعاصى. ثم اتقاء الغفلات ثم اتقاء الخطرات.

والدرجة العليا هى «أن يسلم لله قلبك» «وأن يسلم لله قلبك» فى كمالها وتمامها لم تكن إلاّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وصورتها الصافية الصادقة هى ما عبرّ الله سبحانه وتعالى عنها بقوله لرسوله ﷺ:

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾.

وهذه الدرجة لم يبلغها نبى مرسل فضلاً عن عامة البشر، إنها خاصة برسول الله ﷺ، ومن هنا كان أفضل الخلق على الإطلاق.

وكان العالم ناقصًا قبل وجوده ﷺ. فلما وجد كمل العالم.. إنه ﷺ (اللبنة) التى كان قبلى الملك فى حاجة إليها ليكمل، قال ﷺ فى الحديث الصحيح:

«مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

أخرجه: البخارى ومسلم والإمام أحمد والترمذى - مع اختلاف يسير فى الألفاظ.

(١٣) يتحدث كثير من الناس عن (الحقيقة المحمدية)؛ ويتساءل كثير من الناس عن هذه الحقيقة: ماهى؟ وينكر بعض الناس هذه الكلمة، أو على الأقل يجادل فيها ويمارى؟

والواقع أن الأمر أيسر من أن يثير نقاشًا، وأوضح من أن يكون مصدر مماراة أو إنكار.

فالحقيقة المحمدية هى: النبوة، ومحمد ﷺ: حقيقته نبوته، وهذه النبوة فى علم الله منذ الأزل، قدرها الله سبحانه وتعالى بحكمته قبل خلق الكون، وقبل وجود العالم.

وعلى هذا الأساس يمكنك أن تقول:

إن الحقيقة المحمدية أزلية أو قديمة، وتقصد أنها كذلك فى علم الله، ويمكنك أن تقول: إن الحقيقة المحمدية حادثة، وذلك يوم بعثته أى سنة ثلاث عشرة قبل الهجرة عندما أشرق فجر الهداية الخاتمة وبدأ النور يشرق مستفتحًا بـ ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم﴾ والأمر على هذ الوضع لا يثير مماراة ولا إنكاراً - والله أعلم.

(١٤) إن تفسيرنا السابق للحقيقة المحمدية يتناسق - كما يرى القارئ - مع كلام المؤلف عن الأولياء.

وأعلمت أن أنوار الولاية دائمة الثبوت للزوم دوام أنوار النبوة. وذكرت الفرق بين الرسالة والنبوة والولاية[١٥]..

وبينت من هو الأولى بالميراث فى قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»..

وبينت ماهو العلم الذى أثنى الله عليه، ومن هم العلماء الذين هم أولى بالزلفى لديه..

وبينت أن الأولياء الظاهرين فى أوقات الظلمة أولى بأن يكثر الله أنوارهم، ويجزل لهم من وجود اليقين ما يوجب انتصارهم، ليدافعوا ظلمة الأوقات، وليهزموا بعساكر أنوارهم جيوش الغفلات.

وذكرت أقسام الولاية، غزارة قدر الولى، وفخامة رتبته؛ وشفوف[١٦] منزلته، مما تضمنه الكتاب العزيز والأحاديث النبوية، ليكون ذلك توطئة لك بتصديق مايرد عليه من أخبار أوليائه، وكرامات أصفيائه.

وأما الأبواب:

فالباب الأول: فى التعريف بشيخه الذى أخذ عنه هذا الشأن، وشهادة من عاصره من العلماء الأعيان: أنه قطب الزمان، والحامل فى وقته لواء أهل العيان.

الباب الثانى: فى شهادة الشيخ له أنه الوارث المقام، والحائز قصب السبق بالتمام، وإخباره هو

---

(١٥) حينما يقطع الإنسان الطريق يصل إلى الولاية.

والولى إما أن يمكث وليا فقط، فتكون معرفته خاصة به، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين فيكون نبيا، أو يكون رسولاً.

والرسول نبى، ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية، أما رسالة النبى فإنها محددة الأهداف محدودة المكان.

إن الرسول مظهر الصفة الإلهية «الرحمن» فى جميع أنحاء العالمين، إنه: (رحمة للعالمين) فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة.

ولاشك أن النبوة أسمى من الولاية، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولى (القرب) من الله فى حين أن النبى متجه بطبيعة رسالته إلى الخلق، ولكن ذلك خطأ محض، فإن النبوة تتضمن الولاية، فهى متضمنة لمقام القرب، ثم إنها أكثر من الولاية، وعلى ذلك فإن حالة الولى (ناقصة) بالنسبة لحالة النبى، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها فى العموم، وهذا العموم يصل إلى أعلى درجات ازدهاره فى الرسالة: إذ هى عالمية والرسول- لاغيره- هو حقيقة (الإنسان العالمى).

وللرسول - كما للنبى - اتجاهان:

١ - اتجاه داخلى: إنه الاتجاه نحو الحق.

٢ - اتجاه خارجى: إنه الاتجاه نحو الخلق.

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبى المحدودة، ودرجة النبى المحدودة أسمى من درجة الولى الخاصة، ومقام الجميع القرب.

(١٦) نعود فنقول: إن الأولياء هم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

والذى يعاديهم إنما يعادى الإيمان والتقوى، ولا يكون هذا إلا فيمن تمحض للشر والعياذ بالله، وعلى هذا الأساس يفهم كلام المؤلف رضى الله عنه سواء فى ذلك الكلام فى هذا الموضع أو الكلام المشابه فيما يأتى فى الكتاب..

عن نفسه بما من عليه من النعم الجسام، وشهادة الأولياء له بأنه: بلغ من الوصول إلى الله لأفضل مرام.

الباب الثالث: فى مجرباته ومنازلاته، وما اتفق لأصحابه معه ومكاشفاته.

الباب الرابع: فى علمه وزهده، وورعه ورفع همته، حلمه وصبره وسداد طريقته.

الباب الخامس: فى آيات من كتاب الله تعالى تكلم على تبيين معناها، وإظهار فحواها.

الباب السادس: فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية.

الباب السابع: فى تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله لذلك على أجمل الطرائق..

الباب الثامن: فى كلامه فى الحقائق والمقامات، وكشفه فيها عن الأمور المعضلات..

الباب التاسع: فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته أو قيل فيه مما يتضمن ذكر خصوصيته.

الباب العاشر: فى ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذى رتبه للآخذين فى علومه وأفهامه، ولوازم ذلك من ذكر شيخه أبى الحسن وحزبه، ليتم العقد بنظامه..

وأما الخاتمة: ففى اتصال نسبتنا إليه.. ووصاياه نثرا ونظما تُنْهض إلى الله وتجمع عليه، وهى آخر الكتاب..

وليس كل شىء سمعته من الشيخ رضى الله عنه استحضرته وقت وضعى لهذا الكتاب، ولا كل شىء استحضرته يمكن إثباته، وقصدت بذلك أن تنتفع به هذه الطائفة[١٧] خصوصًا وغيرهم عمومًا، ليؤمن بأحوال هذه الطائفة من قسم الله له نصيبًا من المنة، وجعل فى قلبه نورا من الهداية، وليرجع المكذب إلى الاعتراف والمكابر إلى وجود الإنصاف، ولتستبين لمن أراد الله به الهدى المحجة؛ وتقوم على من لم تنصره عناية الله الحجة؛ فيكون للمصدق بتصديقه لهذه الطائفة نصيب من الولاية؛ ودنو من العناية..

وقد قال الجنيد[١٨] رضى الله عنه: التصديق بعلمنا هذا ولاية؛ وإذا فاتتك المنة فى نفسك فلا

(١٧) الصوفية على وجه العموم، وليس مقصوده الشاذلية فحسب.

(١٨) سيد هذه الطائفة وإمامهم: أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له «القواريرى» وكان فقيها على مذهب أبى ثور، وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، مات سنة سبع وتسعين ومائتين (٢٩٧ هـ) ببغداد.

قال الروذبارى: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيمة، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها..

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق: إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

=

تفتك أن تصدق بها فى غيرك؛ ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾[١٩] وقد قال بعض العارفين:
التصديق بالفتح لا يكون إلا بفتح.
مصداق ما قال هذا العارف قول الله تعالى:
﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾[٢٠].
وقال سبحانه: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[٢١].
وقال سبحانه: ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[٢٢].
وقال: ﴿إنما يتذكَّر أُولو الألباب﴾[٢٣].

وإذا أراد الله خيرًا جعله من المصدّقين لأوليائه فيما جاءوا به؛ وإن قصر عقله عن إدراك ذلك؛ فمن أين يجب أن لا يهب الله لأوليائه إلّا ما تسعه عقول العباد؛ وقد قالوا: يخشى على المكذب لهم سوء الخاتمة[٢٤].

وقد قال أبو تراب النخشبى[٢٥]: من لم يصدّق بهذه الكرامات فقد كفر[٢٦]؛ أى قد غطّى عليه الأمر؛ وستر عنه شهود قدرة الله تعالى؛ جعلنا الله وإيّاكم من المعترفين بفضله فى عباده؛ ومن المصدقين بآثار عنايته فى أهل وداده؛ إنه ولىّ ذلك والقادر عليه..

ولم أُخل الكتاب من الكلام على الشىء المشكل وحل الأمر المعضل؛ والتنبيه على أمور جليلة؛ وإظهارُ أسرار أبصار من لم يؤمن بهذه الطائفة عنها كليلة..

= وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة..

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ وبلغ من تقديره أن كان الكتبة (الأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه.
والفقهاء لتقريره.
والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه.
والمتكلمون لتحقيقه.
والصوفية لإشارته وحقائقه.

(١٩) البقرة: ٢٦٥.

(٢٠) النور: ٤٠.

(٢١) الذاريات ٥٥.

(٢٢) ق: ٣٧.

(٢٣) الزمر: ٩.

(٢٤) إن المكذّب للأولياء مكذّبٌ للإيمان والتقوى اللذيْن هما ماهيّة الولىّ، وليرجع القارىء إلى ما كتبناه فى مقدمة الكتاب.

(٢٥) هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى، من أجلّ مشايخ خراسان، يتحدث عنه ابن الجلاء عن خبرة ومشاهدة ومعرفة فيقول: «لقيت ستمائة شيخ، ما لقيت فيهم مثل أربعة: أوّلهم أبو تراب النخشبى، ويقول صاحب الكواكب الدرية: كان شيخ عصره بالاتفاق، جامعًا بين العلم والدين والزهد والتصوّف بلا شقاق، متقشفًا متوكّلًا، متخشّعًا متبتلا، قد أضاء فى سماء المعانى بدرُه، واشتهر فى سماء المعانى حسنه وذكره.

(٢٦) من معانى الكفر: الستر والتغطية، وكل شىء غطّى شيئًا فقد «كفره»، ويسمى الزارع كافرًا لأنه يغطّى البذر بالتراب، ويسمّى الزراع كفارًا لذاك – وهذا هو المعنى الذى أراده أبو تراب، ومن معانى الكفر بطبيعة الحال: أنه ضدّ الإيمان، وليس هذا هو المعنى المراد فى هذه الكلمة.

فالله سبحانه وتعالى يجعل ذلك لوجهه خالصًا؛ ومن أوحال القطيعة مخلِّصًا؛ وأن يمنّ علينا بالصدق فى الأقوال والأفعال والأحوال؛ وأن يجعلنا من العارفين به فى الحال والمآل؛ وأن يتفضّل علينا بالفهم عنه؛ وحسن الاستماع منه؛ إنه الإله القدير؛ وبالإجابة جدير..

وسمّيته: «لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس وشيخه أبى الحسن».

وهذا أوان ابتدائى بما قصدت؛ وإظهار ما أردت؛ وبالله تعالى أستعين وعليه أتوكل؛ وإليه بجاه محمد سيّد المرسلين ﷺ أتوسّل؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أما المقدمة:

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى لما أراد إتمام نعمته؛ وإفاضة فيض رحمته؛ واقتضى فضله العظيم أن يمنَّ على العباد بوجود معرفته؛ وعلِمَ سبحانه عجزَ عقول عموم العباد عن التلقّى من ربوبيته؛ جعل الأنبياء والرسلِ لهم الاستعداد التام لقبول ما يرد من ألوهيته؛ يتلقّون منه بما أودع فيهم من سرّ خصوصيته؛ ويُلقون عنه: جمعًا للعباد على أحديته؛ فهم برازخ الأنوار؛ ومعادن الأسرار؛ رحمة مهداة؛ ومنّة مصفاة؛ حرس أسرارهم فى أزله من رقّ الأغيار[27]؛ وصانهم بوجود عنايته من الركون إلى الآثار، لا يحبوّن إلاّ إيّاه، ولا يعبدون سواه، يلقى الروح من أمره عليهم، ويواصل الإمداد بالتأييد إليهم، ومازال فلك النبوّة والرسالة دائرًا إلى أن عاد الأمر من حيث ابتدى، وختم بمن له كمال الاصطفاء، وهو نبينا محمد ﷺ السيد الكامل، الفاتح الخاتم، نور الأنوار، وسر الأسرار، والمبجّل فى هذه الدار وفى تلك الدار، أعلى المخلوقات منارًا، وأتمهم فخارًا، دلّ على ذلك الكتاب المبين، قال الله تعالى:

﴿وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين﴾[28].

ومن رحم به غيره فهو أفضل من غيره، والعالم كل موجود سوى الله تعالى.

وأما تفضيله ﷺ على بنى آدم خصوصًا فمن قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[29].

وأما تفضيله على آدم فمن قوله ﷺ:

«كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين»[30].

ومن قوله:

«آدم فمن دونه من الأنبياء يوم القيامة تحت لوائى. وأنا أوّل شافع، وأنا أوّل مشفّع، وأنا أوّل من تنشقّ عنه الأرض»[31]..

---

(٢٧) أى ما سوى الله.
(٢٨) الأنبياء: ١٠٧.
(٢٩) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، ورواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة من حديث بغير زيادة: «ولا فخر»..
(٣٠) قال العلمى فى شرح الجامع الصغير حديث صحيح، وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه والبغوى وابن السكن وأبو نعيم فى الحلية وصححه الحاكم بلفظ: «كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد» وفى الترمذى وغيره عن أبى هريرة أنه قال للنبى ﷺ: متى كنت أو كتبت نبيا؟ قال: كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد. قال الترمذى: حسن صحيح: وصححه الحاكم أيضًا..
(٣١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ولفظه: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أوّل من تنشق الأرض عنه ولا فخر، وأنا أوّل شافع وأول مشفّع ولا فخر، ولواء الحمد بيدى يوم القيامة ولا فخر».

وحديث الشفاعة المشهور الذى أخبرنا به الشيخ الإمام الحافظ بقية المحدثين، شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن الدمياطى بقراءتى عليه أو قراءة عليه وأنا أسمع، قال: أخبرنا الشيخان الإمام فخر القضاة أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن الحباب التميمى وأبو التقى صالح بن شجاع بن سيدهم المدلجى الكنانى، قالا: أخبرنا الشريف أبو المفاخر سعيد بن الحسين بن محمد بن سعيد العباسى المأمونى قال: أخبرنا أبو عبد الله الفزارى قال: أخبرنا عبد الغافر الفارسى قال: أخبرنا أبو أحمد محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودى قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه قال: حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى قال: حدثنا أبو الربيع العتكى قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن هلال العنزى.

وحدثنا سعيد بن منصور واللفظ له قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن طلال العنزى قال:

انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بثابت، فانتهينا إليه وهو يصلى الضحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتًا معه على سريره، فقال له: يا أبا حمزة، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدّثهم حديث الشفاعة، قال: حدثنا محمد ﷺ قال:

إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: اشفع لذريتك، فيقول:

لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيأتون موسى عليه السلام؛ فيقول:

لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى عليه السلام، فيقول:

لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ..

فأوتَى فأقول: أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربّى، فيؤذن لى، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلاّ أن يلهمنيه الله عز وجل، ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفّع، فأقول: رب، أمّتى أمّتى، فيقال: انطلق، فمن كان فى قلبه مثقال حبّة من بُرَّة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربى، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمّتى أمتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجه منها؛ فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربى فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمّتى أمتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى

ربّى فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقوم: يارب، أمّتى أمّتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربّى فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمّتى أمّتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه أدنى أدنى من مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل.

هذا حديث أنس الذى أخبرنا به، فخرجنا من عنده، فلما كنّا بظهر الجبان قلنا: لو ملنا إلى الحسن فسلّمنا عليه وهو مستخف فى دار أبى خليفة، قال: فدخلنا عليه فقلنا: يا أبا سعيد، خرجنا من عند أخيك أبى حمزة فلم نسمع بمثل حديث حدثناه فى الشفاعة، فقال: هِيه، فحدثناه الحديث، فقال: هِيه، فقلنا: ما زادنا. قال: قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع[٣٢]، ولقد ترك شيئًا ما أدرى أنسى الشيخ أو كره أن يحدثكم فتتّكلوا، فقلنا له: حدثنا، فضحك وقال:

﴿خُلق الإنسانُ من عجَل﴾[٣٣].

ماذكرت لكم هذا إلاّ وأنا أريد أن أحدثكم:

ثم أرجع إلى ربّى فى الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب ائذن لى فيمن قال: لا إله إلاّ الله، قال:

ليس ذلك لك. أو قال ليس ذلك إليك، ولكن وعزّتى وكبريائى وعظمتى لأخرجنّ من النار من قال: «لا إله إلاّ الله»[٣٤].. قال:

---

(٣٢) أى فى أكمل قوته وتمام ذاكرته ونضرة رجولته.

(٣٣) الأنبياء: ٣٧.

(٣٤) أى ليخرجنه سبحانه مآلاً بعد أن يكون قد استوفى جزاءه عما قدّم من معاصى. اللهم إلاّ أن يتفضل سبحانه على البعض لحكمة، وقد روى البخارى ومسلم رضى الله عنهما فى هذا قوله ﷺ فى حديث جامع:

«أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون ممّ ذاك؟!

(يجمع الله الأوّلين والآخرين فى صعيد واحد، فينظرهم الناظر، ويسمعهم الداعى وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغمّ والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس؛ ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربّكم!!

فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا!

فقال: إن ربى غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيت، نفسى. نفسى. نفسى. اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا فيقولون:

يا نوح: أنت أوّل الرسل إلى الأرض، وقد سماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما بلغنا؟! ألا تشفع لنا إلى ربّك؟

فيقول: إن ربى غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة دعوت بها على قومى، نفسى. نفسى. نفسى!!!

اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبّى الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟! =

فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك أراه قبل عشرين سنة، وهو يومئذ جميع(٣٥)..

فانظر رحمك الله ما تضمّنه هذا الحديث من فخامة قدره ﷺ، وجلالة أمره، وأن أكابر الرسل والأنبياء لم ينازعوه فى هذه الرتبة التى هى مختصة به وهى الشفاعة العامة فى كل من ضمّه المحشر.

فإن قلت: فما بال آدم أحال على نوح فى حديث، وعلى إبراهيم فى هذا، ودلّ نوح على إبراهيم، وإبراهيم على موسى، وموسى على عيسى، وعيسى على محمد ﷺ، ولم لم تكن الدلالة على محمد ﷺ من الأَلّ؟

فاعلم أنه لو وقعت الدلالة على محمد ﷺ من الأول لم يتبيّن من نفس هذا الحديث أن غيره لا تكون له هذه الرتبة، فأراد الحق سبحانه أن يدلّ كل واحد على من بعده، وكل واحد يقول: لست لها، مسلمًا للرتبة، غير مدّعٍ لها، حتى أتوا عيسى فدّل على رسول الله ﷺ، فقال: أنا لها.

وفى هذا الحديث من الفوائد: أن الإيمان يزيد(٣٦) وينقص.

= فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى كذبت ثلاث كذبات: نفسى. نفسى. نفسى!

اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى!

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلّك برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله وإنى قد قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها: نفسى. نفسى. نفسى.

اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلّمت الناس فى المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله – ولم يذكر ذنبًا – نفسى. نفسى. نفسى.!

اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى محمد ﷺ.

– وفى رواية: فيأتونى، فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فأنطلق فآتى تحت العرش، فأقع ساجدًا لربّى، ثم يفتح الله علىّ من محامده، وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلى، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأرفع رأسى فأقول: أمتى يارب، أمتى يارب!

فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة: كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى.

(٣٥) والحديث فى صحيح مسلم (شرح النووى جـ ٣ ص ٢٦٣ ومعنى جميع مجتمع القوة والحفظ).

(٣٦) يقول الإمام البخارى عن الإيمان:

هو قول وفعل، ويزيد وينقص. ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية، نذكر منها: قال الله تعالى:

﴿ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم﴾. ﴿وزدناهم هدى﴾.

﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾.

﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانًا﴾.

﴿أيّكم زادته هذه إيمانًا، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا﴾.

﴿فاخشوهم فزادهم إيمانًا﴾.

وفيه: أن المعارف لا تتناهى، من قوله: لا أقدر عليه إلا أن يلهمنيه الله عزّ وجل، ويشهد لذلك قوله ﷺ:

«لا أحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك[٣٧]».

ويشهد له قوله سبحانه وتعالى:

﴿ولا يحيطون به علمًا﴾[٣٨].

إلى غير ذلك من الفوائد التى لو تكلمنا عليها لخرجنا عن غرض الكتاب، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين﴾[٣٩].

ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، فدعا إلى الله بالبصيرة الواضحة[٤٠]، والبينة الفائقة، وقرب المدارك، وبيّن المسالك، وحثّ على سلوك سبيل الهدى، واجتناب سبيل الردى فما ترك شيئًا يقرّب إلى الله إلاّ ودعا إليه، ولا أدبًا يصلح أن يكون العبد به مع الله إلاّ وحثّ عليه، ولا شيئًا يشغل العباد عن الله إلاّ وحذّر العباد منه، ولا عملاً يقطعهم عن الله إلاّ وأخرجهم عنه، لا يألوا نصحًا[٤١] فى تخليص العباد من أوحال القطيعة، ومواطن الهلكة، إلى أن ترحل ليل الشرك، وانقضت آثاره، وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره، فرفع ﷺ من الدين لواءه، وتمم نظامه، وقرّر فرائضه وأحكامه، وبيّن حلاله وحرامه، وكما بيّن للعباد الأحكام، كذلك فتح لهم باب الأفهام حتى قال الراوى: لقد تركنا رسول الله ﷺ وإن الطير ليتحرك فى السماء فنستفيد منه علمًا، فقد قال سبحانه:

﴿لا إكراه فى الدين قد تبيّن الرشد من الغىّ﴾[٤٢].

وقال سبحانه:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾[٤٣].

وقال ﷺ:

---

(٣٧) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد فى مسنده.

(٣٨) طه: ١١٠.

(٣٩) الأنبياء: ١٠٧ - ويقول الرسول ﷺ: إنما أنا رحمة مهداة. أى مهداة من الله سبحانه وتعالى إلى الإنسانية.

(٤٠) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾، وإن من أوّل شروط الدعاة أن يكونوا على بصيرة من أمر دعوتهم، ومن أهم ما تتضمنه البصيرة: العلم، العلم بكتاب الله وسنّة رسوله، وسيرته الشريفة.

(٤١) يقول الله تعالى فى بيان حرص رسول الله ﷺ على هداية الناس: ﴿فلعلّك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾. ويقول سبحانه:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيزٌ عليه ما عنتم، حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيم﴾.

(٤٢) البقرة : ٢٥٦.

(٤٣) المائدة: ٣.

«تركتها بيضاء نقيّة»[٤٤].

فجزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أمتّه.

ولما أكمل ﷺ البيان لسبيل الرشاد، وأظهر المسالك الموّصلة إلى الله للعباد، توفّاه الله إلى الدار التى هى خيرٌ له وأوْلى، بعد أن خيرٍ فاختار الرفيق الأعلى.

ثم جعل الحق سبحانه الدعاء إلى الله فى أمتّه أبدًا، ودائمًا سرمدًا، بما ورثوا منه، وأخذوا عنه، وقد شهد لهم الحق بذلك، وجعلهم أهلاً لما هنالك، قال الله سبحانه:

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾[٤٥].

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: أى على معاينة، يعاين سبيل كل واحد من الأتباع، فيحمله عليها.

ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه اختلاف وصاياه ﷺ لأصحابه على حسب اختلاف سبلهم، فقال لبلال رضى الله عنه:

(أنفق بلالُ، ولا تخش من ذى العرش إقلالاً)[٤٦].

وقال لآخر أراد أن ينخلع عن ماله كلّه:

«امسك عليك مالك، فإنك إن تدعْ ورَثَتك أغنياء خير لك من أن تدعَهم عالة يتكففون الناس»[٤٧].

وقال له ﷺ رجل: أوصنى، فقال ﷺ:

«استح من الله كما تستحى من رجل صالح من قومك»[٤٨].

وقال له آخر: أوصنى. فقال: لا تغضب.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: فتح الحق سبحانه بقوله:

«أنا ومن اتبعنى» باب البصائر للأتباع. يريد الشيخ أن قول الله سبحانه:

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾[٤٩].

أى ومن اتّبعنى يدعو إلى الله على بصيرة، على ما يقتضيه اللسان؛ لأنك إذا قلت: زيد يدعو إلى

---

(٤٤) رواه أحمد وابن ماجه بنحوه ونصّ الحديث عن العرباض بن سارية: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون. ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟. قال: «وقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدى إلاّ هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتّى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضوا عليها بالنواجذ؛ وعليكم بالطاعة وإن كان عبدًا حبشيًّا، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد.

(٤٥) يوسف: ١٠٨.

(٤٦) البزار عن بلاط والطبرانى عن ابن مسعود.

(٤٧) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث كعب بن مالك.

(٤٨) رواه ابن عدى بنحوه بسند ضعيف.

(٤٩) يوسف: ١٠٨.

السلطان على نصيحة هو وأتباعه، أى وأتباعه يدعون إليه على نصيحة.

إذا ثبت هذا، فالرسول ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة الرسالة الكاملة، والأولياء يدعون على حسب بصائرهم: قطبانية وصديقية وولاية، وقد قال ﷺ.

«العلماء ورثة الأنبياء»(٥٠).

وقال ﷺ.

«إن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورّثوا العلم»(٥١).

وقال ﷺ.

«علماء أمّتى كأنبياء بنى إسرائيل».

وههنا نكتة: وهو أنه ﷺ لم يقل: علماء أمتى كرسل بنى إسرائيل، فمن الناس من ظنّ أن النبى هو الذى نُبِّئ(٥٢) فى نفسه، والرسول هو الذى أرسل إلى غيره، وليس الأمر كما ظن هذا القائل، ولو كان كذلك فلماذا خص الأنبياء دون الرسل بالذكر فى قوله: علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل، ومما يدّلك على بطلان هذا المذهب قول الله سبحانه:

﴿وما أرسلْنا من قبْلك من رسولٍ ولا نبى﴾(٥٣) الآية.

فدّل على أن حكم الإرسال يعمّها، وإنما الفرق ما قال بعض أهل العلم: إن النبىّ لا يأتى بشريعة جديدة، إنما يجىء مقررًا لشريعة من كان قبله كيوشع بن نون فإنه إنما جاء مقررًا لشريعة موسى، وآمرًا بالعمل بما فى التوراة، ولم يأت بشرع جديد، والرسول كموسى عليه السلام إذ أتى بشرع جديد وهو ما تضمنته التوراة، فقال ﷺ: علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل، أى يأتون مقررين ومؤكدين وآمرين بما جئت به لا أنهم يأتون بشرع جديد.

إعلام وبيان:

اعلم أن قول رسول الله ﷺ:

«العلماء ورثة الأنبياء».

و«علماء أمّتى كأنبياء بنى إسرائيل».

و«إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورِّثوا العلم»..

و«ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلّا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»(٥٤).

و«وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»(٥٥).

(٥٠، ٥١) رواه أبو داود والترمذى.

(٥٢) كون النبى ما نبئ فى نفسه أو بتعبير المتكلمين: «ما أوحى إليه ما يعمل به ولم يؤمر بتبليغه» والرسول هو ما أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه. هذا ما جرى عليه الغالبية من علماء علم الكلام، وما ذكره المؤلف هنا أدق وأوضح.

(٥٣) الحج: ٥٢ وتمام الآية: ﴿إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيّته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يُحكِم الله آياته والله عليم حكيم﴾.

(٥٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٥٥) رواه أبو داود والترمذى.

وقوله سبحانه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلّا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط﴾[٥٦].

وقال: ﴿الذين أوتوا العلم درجات﴾[٥٧].

و: ﴿بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم﴾[٥٨].

وحيثما وقع العلم فى كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فإنما المراد به: العلم النافع المخمد للهوى، القامع، الذى تكتنفه الخشية وتكون معه الإنابة قال الله سبحانه:

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[٥٩].

فلم يجعل علم من لم يخشه من العلماء علما، وقد قال داود عليه السلام: يارب، ما علم من لم يخشك، وما خشية من لم يطع أمرك؟

فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله الخشية، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا، والتملق لأربابها، وصرف الهمة إلى اكتسابها، والجمع والادخار، والمباهاة والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء. وهل ينتقل الشىء الموروث إلى الوارث إلّا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه".

ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضىء على غيرها وهى تحرق نفسها[٦٠]؛ جعل الله العلم الذى علمه من هذا وصفه حجة عليه؛ وسببا فى تكثير العقوبة لديه. ولا يغرنك أن يكون به انتفاع البادى والحاضر؛ فقد قال ﷺ:

«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[٦١].

ومثل من يتعلم العلم لا كتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من يرفع العذرة بملعقة من ياقوت؛ فما أشرف الوسيلة؛ وما أخس المتوسل إليه.

ومثل من قطع الأوقات فى طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطهارة ولم يصل صلاة واحدة؛ إذ مقصود العلم العمل، كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة، ولقد سأل رجل الحسن البصرى رضى الله عنه عن مسألة فأفتاه فيها، فقال الرجل للحسن: قد خالفك الفقهاء، فزجره الحسن وقال: ويحك، وهل رأيت فقيها؟ إنما الفقيه الذى فقه عن الله أمره ونهيه.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

---

(٥٦) آل عمران ١٨ - والقسط: هو العدل.

(٥٧) المجادلة: ١١.

(٥٨) العنكبوت: ٤٩.

(٥٩) فاطر: ٢٨.

(٦٠) ولأجل هذا كان الرسول ﷺ يقول فى دعائه - كما رواه الإمام أحمد - اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

(٦١) رواه الطبرانى وصححه السيوطى وفى معناه قوله ﷺ: إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، رواه أحمد والنسائى وابن حبان والطبرانى.

«الفقيه من انفقأ الحجاب عن عينى قلبه وشاهد ملكوت ربه».

وإذ قد عرفت أن الدعاء إلى الله لا يزال أبدا، فاعلم أن الأنوار الظاهرة فى أولياء الله إنما هى من إشراق أنوار النبوة عليهم، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس، وقلوب الأولياء كالأقمار، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته إياها، فإذا الشمس منيرة نهارًا، ومضيئة أيضا ليلا، لظهور نورها فى القمر الممدود منها، فإذا هى لا غروب لها فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله ﷺ فيهم، فالأولياء آيات الله يتلوها على عباده بإظهاره إياهم واحدا بعد واحد:

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾(٦٢).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول فى قوله عز وجل:

﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾(٦٣).

أى ما نذهب من ولى لله إلا ونأت بخير منه أو مثله.

وقد سئل بعض العارفين عن أولياء المدد، أينقصون فى زمن واحد؟.

فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها، ولا أبرزت الأرض نباتها؛ وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم؛ ولا بنقص إمدادهم؛ ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله سبحانه وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم؛ فإذا كان أهل الزمن مُعْرضين عن الله؛ مؤثرين لما سوى الله؛ لا تنجع فيهم الموعظة، ولا تميلهم إلى الله التذكرة؛ لم يكونوا أهلا لظهور أولياء الله فيهم؛ ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون. وقد قال ﷺ:

«لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»(٦٤).

فإذا كان الله سبحانه وصّانا على لسان رسوله ﷺ أن: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها، فمن أولى بهذا الخلق الجميل منا، وقد قال ﷺ:

«إذا رأيت هوًى مطاعا، وشحا متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك»(٦٥).

فسمعوا وصية رسول الله ﷺ، فآثروا الخفاء بل آثر الله لهم ذلك مع أنه لابد أن يكون منهم فى الوقت أئمة ظاهرين قائمين بالحجة، سالكين المحجة، لقول رسول الله ﷺ.

---

(٦٢) الجاثية: ٦.

(٦٣) البقرة: ١٠٦.

(٦٤) إن حديث الصوفية عن بعض آيات القرآن، إنما هو إشارات تمر بوجدانهم لا تنفى من قرب، ولا من بعد المعنى الذى يستمد من الآية بحسب اللغة وأسباب النزول، وموازين المفسرين، ولكن القرآن الكريم نبع فياض، يلهم ويشير ويوجه، وكل إنسان يأخذ منه بحسب صفاء نفسه، ولا عليه، فى ذلك ما دام مؤمنا بالمعنى الذى تقرره الأوضاع الإسلامية الصادقة عاملاً به.

وفى ضوء ما قلناه – وهو الذى يعترف به جميع الصوفية – نرجو من القارئ الكريم أن ينظر إلى ما يأتى من حديث للصوفية فى إشاعات الآية الكريمة.

وهذا المعنى هو الذى يؤخذ من قوله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء﴾ وهى كلمة قرآنية لا منع فيها ولا تعميم.

(٦٥) أبو داود فى الملاحم، والترمذى فى التفسير، وابن ماجه فى الفتن.

«لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناوأهم إلى قيام الساعة»(٦٦).

وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى مخاطباته لكميل بن زياد: اللهم لا تُخْلِ الأرض من قائم لك بحجتك، أولئك الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله فى عباده وبلاده، آه واشوقاه إلى رؤيتهم. وروى الإمام الربانى محمد بن على الترمذى رضى الله عنه فى كتاب «الختم» (٦٧) له، برفعه إلى ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره»(٦٨).

وروى أيضا برفعه إلى أبى الدرداء قال: قالَ رسول الله ﷺ:

«خير أمتى أولها وآخرها، وفى وسطها الكدر».

وروى أيضا برفعه إلى عبد الرحمن بن سمرة قال:

– جئت مبشرا من غزوة مؤتة، فلما ذكرت قتل جعفر وزيد وابن رواحة بكى أصحاب رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ما يبكيكم؟ فقالوا: وما لنا لا نبكى وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا؟ فقال ﷺ: «لا تبكوا، إنما مثل أمتى مثل حديقة قام عليها صاحبها، فاجتلب رواكبها، وهيأ مسالكها، وحلق سعفها، فأطعمت عامًا فوجا ثم عاما فوجا، فلعل آخرها طعما يكون أجودها قنوانا، وأطولها شمراخا، والذى بعثنى بالحق ليجدن ابن مريم من أمتى خلفا من حواريه»(٦٩).

وروى أيضا برفعه إلى سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابى رجالا ونساء يدخلون الجنة بغير حساب»(٧٠).

ثم تلا:

---

(٦٦) متفق عليه.

(٦٧) هو كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذى، وهو من الكتب التى كانت محل عناية كبرى من الشيخ أبى الحسن الشاذلى، ومن الشيخ أبى العباس المرسى وقد نال هذا الكتاب عناية الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، ووصلت عنايته به إلى درجة أنه تحدث عنه غير مرة، وأجاب عن الأسئلة التى وجهها الحكيم الترمذى فى كتابه. وهذا الكتاب طبع فى لبنان.

(٦٨) رواه أحمد والترمذى والطّبرانى وأبو يعلى.

(٦٩) القنوان: جمع قنو وهو العذق أى النخلة بحملها، والشمراخ مثله.

ومن خبر غزوة مؤتة ما ذكره ابن حزم فى «جوامع السيرة» من أن المسلمين عندما دخلوا قرية مؤتة جعل المسلمون على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذرى. وعلى الميسرة عباية بن مالك الأنصارى، وقيل: عبادة. واقتتلوا فقتل الأمير الأول: زيد بن حارثة ملاقيا بصدره الرماح، والراية فى يده، فأخذها جعفر بن أبى طالب ونزل عن فرس شقراء.. فقاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بيسراه، فقطعت فاحتضنها، فقتل كذلك، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأخذ عبد الله بن رواحة الراية؛ وتردد عن النزول بعض التردد ثم صمم، فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بنى العجلان وقال: يا معشر المسلمين: اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: أنت. قال: لا. فأخذها خالد بن الوليد، وانحاز بالمسلمين، فأنذر النبى ﷺ بقتل الأمراء المذكورين قبل ورود الخبر فى يوم قتلهم بعينه أهـ.

(٧٠) رواه ابن أبى حاتم فى التفسير.

﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[٧١].

وروى أيضا يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

«فى كل قرن من أمتى سابقون»[٧٢]

واعلم، جعلك الله تعالى من خاصة عباده، وعرفك لطائف وداده، أنه سواء منهم الظاهر والخفى، والصديق والولى، فساد الوقت لا يكدر أنوارهم، ولا يحط مقدارهم؛ لأنهم مع المؤقت لا مع الأوقات، ومن كان مع المؤقت لا يتغير بتغير الوقت شيئا، ومن كان مع الوقت تغير بتغيره وتكدر بتكدره.

وقال الإمام أبو عبد الله الترمذى رضى الله عنه: الناس صنفان صنف منهم عمال الله يعبدونه على البر والتقوى فهم يحتاجون إلى خير الزمان وإقباله ودولة الحق؛ لأن تأييدهم من ذلك، وصنف منهم أهل اليقين فيعبدون الحق على وفاء التوحيد عن كشف الغطاء وقطع الأسباب فهم غير ملتفين إلى إقبال الزمان وإدباره ولا يغيرهم إدباره وهو قول النبى ﷺ:

إن لله عبادا يغذوهم برحمته، يحييهم فى عافية، تمر بهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرهم.

وقوله ﷺ:

تكون فى أمتى فتن لا ينجو منها إلا من أحياه الله بالعلم.

قال الترمذى: يعنى: بالعلم بالله فيما نرى.

لقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: رجال الليل هم الرجال وإن أولياء هذا الوقت ليؤيدون بشيئين: بالغنى واليقين، فالغنى لكثرة ما عند الناس من الإفلاس، واليقين لكثرة ما عند الناس من الشكوك.

وقال بعض العارفين: إن لله عبادا كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم، فهم كالكواكب، كلما قويت ظلمة الليل قوى إشراقها، وأين نور الكواكب من أنوار قلوب أوليائه، أنوار الكواكب تتكدر وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى فى الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى فى الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه تهدى إلى الله تعالى، ولنا فى هذا المعنى:

أمرتقب النجوم من السماء	نجومُ الأرض أبهرُ فى الضياء
فتلك تنير وقتا ثم تخفى	وهذى لا تكدر بالخفاء
هدايةُ تلك فى ظُلم الليالى	هدايةُ هذه كشفُ الغطاء

وقال صوفى يوما بحضرة فقيه: إن لله عبادًا هم فى أوقات المحن والمحن لا تضرهم، فقال ذلك

(٧١) الجمعة: ٣، ٤.

(٧٢) الأحاديث السابقة خرجها الترمذى فى كتابه «ختم الأولياء».

الفقيه: هذا مالا أفهمه، أنا أريك مثال ذلك، الملائكة الموكلون بالنار هم فى النار والنار لا تضرهم[٧٣].

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: الدنيا كالنار وهى قائلة للمؤمن: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبى.

واعلم أن شأن الولاية والولىّ عظيم، والخطب فيها جسيم ويكفيك فى ذلك ما حدثنا به الشيخ المسند الجليل شهاب الدين أبو المعالى أحمد بن إسحق بن محمد بن المؤيد الابرقوهى رحمه الله، قال: أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن سابور القلانسى الشيرازى بها سنة تسع عشرة وستمائة، قال أخبرنا الإمام أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازى الأدمى قراءة عليه وأنا أسمع فى سنة ثلاث وخمسمائة، قال حدثنا الشيخ الإمام أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد التميمى الحنبلى إملاءً علىّ فى يوم السبت السادس عشر من صفر سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة بأصبهان، قال: أخبرنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن مهدى الفارسى حدثنا أبو عبدالله محمد بن مخلد بن حفص العطار الخطيب الدورى حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة حدثنا خالد بن مخلد عن سليمان بن بلال عن شريك بن أبى نمر عن عطاء عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله عزّ وجل قال: من عادى لى وليا فقد آذننى[٧٤] بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه، ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنّه، وما تردّدت عن شىء أنا فاعله تردّدى عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابدّ له منه».

وهذا الحديث أخرجه البخارى رضى الله عنه فى صحيحه.

وقد روى هذا الحديث من طريق آخر: فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا وقلبًا وعقلاً ويدًا ومؤيدًا.

فاصغ رحمك الله إلى ما تضمنه هذا الحديث من غزارة قدر الولّى وفخامة رتبته، حتى ينزله الحق هذه المنزلة، ويحلّه هذه المرتبة، كقوله ﷺ حاكيًا عن الله:

---

(٧٣) وإن القارئ للقرآن ليعلم ما ذكره القرآن الكريم عن قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال قومه:
﴿حرقوه وانصروا آلهتكم﴾
ثم ألقوه فى النار، فكان الأمر الإلهى:
﴿قلنا يانار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم﴾
إن الله سبحانه وتعالى قد حفظه لأنه كان مواليًا لله سبحانه وتعالى فى أفعاله، ومن كان مواليًا لله سبحانه وتعالى، كان متخذًا لله وليًا، ومن اتخذ الله وليًا وسار فى حياته على ما أحبّه الله سبحانه وتعالى، فإن الله يحفظه فتمرّ به الفتن لا تضرّ.
﴿أليس الله بكاف عبده﴾؟!

(٧٤) رواية البخارى «فقد آذنته الحرب» وكلا الروايتين صحيح فى المعنى إن من عادى ولىّ الله آذن الله بالحرب، فآذنه الله بالحرب- أعاذنا الله من ذلك وعافانا.

«من عادى لى وليا فقد آذننى بالحرب».

لأن الولى قد خرج عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن انتصاره لنفسه لانتصار الله، وعن حوله وقوته بصدق التوكل على الله، وقد قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[٧٥].

وقد قال الله عز وجل: ﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾[٧٦].

وكان ذلك لهم لأنهم جعلوا الله تعالى مكان همومهم، فدفع عنهم الأغيار[٧٧]، وقام لهم بوجود الانتصار.

أخبرنى الشيخ شهاب الدين الأبرقوهى، قال: دخلت على الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه فسمعته يقول: يقول الله عزّ وجل: «عبدى اجعلنى مكان همّك أكفك كلّ همّك، عبدى ماكنت لَكَ فأنت فى محل البعد، وما كنت بى فأنت فى محل القرب واختر لنفسك».

وقد جاء فى الحديث:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»[٧٨].

فإذا كان الحق سبحانه قد رضى لهم أن يشغلهم ذكره عن مسألته، فكيف لا يرضى لهم أن يشغلهم ذكره والثناء عليه عن الانتصار لنفوسهم؟

ومن عرف الله سدّ عليه باب الانتصار لنفسه[٧٩] إذ العارف قد اقتضت له معرفته أن لا يشهد فعلًا لغير معروفه، فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعالا فيهم؟ وكيف يدع أولياءه من نصرته وهم قد ألقوا نفوسهم بين يديه مسلمين ومستسلمين لما يريد منهم حكمًا؟ فهُم فى معاقل عزّه تحت سرادقات مجده، يصونهم من كل شيء إلاّ من ذكره، ويقطعهم عن كل شيء إلاّ عن حبّه، ويحتازهم من كل شيء إلاّ من وجود قربه، ألسنتهم بذكره لهجة، وقلوبهم بأنواره بهجة، وطّن لهم وطنًا بين يديه، فقلوبهم جاثمة فى حضرته، وأسرارهم محقّقة بشهود أحديّته.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

ولىّ الله مع الله كولد اللبؤة فى حجرها، أتراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله؟

---

(٧٥) الطلاق: ٣.

(٧٦) الروم: ٤٧.

(٧٧) جمع «غير» بمعنى: سوى، أى كل ما سوى الله.

(٧٨) البخارى فى التاريخ والبزار فى المسند، والبيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب.

(٧٩) قال تعالى، ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

وقال: ﴿والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾.

وما كان الرسول ﷺ يغضب إلاّ لله.

ومما يذكر أن المولى يقتدى برسول الله ﷺ فى الانتصار لله سبحانه وتعالى، وما جوهر حياة الولىّ إلاّ الانتصار لله تعالى: ينتصر لله من نفسه، وينتصر لله فى أسرته، وينتصر لله فى مجتمعه، أنه يقوم بالمبدأ الإسلامى الواجب وهو: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقد جاء فى بعض الأحاديث أنه ﷺ كان فى بعض غزواته وامرأة تطوف على ولدها رضيع، فلما وجدته أحنت عليه وألقمته الثدى، فنظر الصحابة إليها متعجبين، فقال ﷺ:

«لَلَّه أرحم بعبده المؤمن من هذه[٨٠] بولدها».

ومن هذه الرحمة برز انتصار الحق لهم ومحاربة من عاداهم؛ إذهم حُمّال أسراره ومعادنُ أنواره، وقد قال الله سبحانه:

﴿الله ولى الذين آمنوا﴾[٨١].

وقال: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾[٨٢].

غير أن مقابلة الحق سبحانه لمن آذى أوليائه ليس يلزم أن تكون معجلة؛ لقصر مدّة الدنيا عند الله؛ ولأن الله لم يرض الدنيا أهلاً لعقوبة أعدائه كما لم يرضها أهلاً لإثابة أحبائه، وإن كانت معجلّة فقد تكون قساوة فى القلب، أو جمودًا فى العين، أو تعويقًا عن طاعة الله، أو وقوعًا فى ذنب، أو فترة فى الهمّة أو سلب لذاذة خدمته.

وقد كان رجل فى بنى إسرائيل أقبل على الله ثم أعرض عنه فقال: يارب كم أعصبك ولا تعاقبنى، فأوحى الله تعالى إلى نبى ذلك الزمان أن قل لفلان: كم عاقبتك ولا تشعر؟ ألم أسلبك حلاوة ذكرى ولذاذة مناجاتى؟

وفائدة هذا البيان أن لا يحكم لإنسان آذى وليا من أولياء الله بالسلامة، إذا لم تر عليه محنة فى نفسه وماله وولده، فقد تكون محنته أكبر من أن يطلع العباد عليها.

وقوله ﷺ حاكيًا عن الله عز وجل:

«وما تقرّب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم».

فاعلم أن الفرائض التى اقتضاها الحق من عباده على قسمين: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة: الصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبرّ الوالدين، إلى غير ذلك.

والباطنة: العلم بالله، والحبّ له، والتوكّل عليه، والثقة بوعده، والخوف منه، والرجاء فيه، إلى غير ذلك، وهى أيضًا تنقسم قسمين: أفعال وتروك، شىء اقتضى الحق منك أن تفعله، وشىء اقتضى الحق منك أن لا تفعله، وقد جمع ذلك فى آية واحدة، قال الله سبحانه:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى﴾[٨٢]

فهذا أمر طلب الله منك أن تفعله، ثم قال:

﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾[٨٣].

---

(٨٠) رواه البخارى فى الأدب، ومسلم فى التوبة، وأبو داود فى الجنائز وابن ماجه فى الزهد.

(٨١) البقرة : ٢٥٧.

(٨٢) الحج: ٣٨. (٨٣) النحل: ٩٠.

فهذا أمر اقتضى منك أن تتركه.

ثم اعلم رحمك الله أن الله لم يأمر العباد بشيء وجوبًا أو يقتضيه منهم ندبًا إلّا والمصلحة لهم فى فعل ذلك الأمر، ولم يقتض منهم ترك شيء تحريمًا أو كراهةً إلّا والمصلحة لهم فى أمرهم بتركه وجوبًا أو ندبًا ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى: إنه يجب[٨٤] على الله رعاية مصالح عباده. بل إنما نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمرة، فعلها مع عباده على سبيل التفضّل، فليت شعرى إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه؟

ثم إنّا نظرنا فوجدنا كل مأمور به أو مندوب إليه يستلزم الجمع[٨٥] على الله، وكل منهى عنه أو مكروه يتضمن التفرقة[٨٦] عنه، فإذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه. لكن الطاعات هى أسباب الجمع ووسائله فلذلك أمر بها، والمعصية هى أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها.

وأما الفرائض الظاهرة فلا تنفكّ عن فروض باطنة، والفرائض الباطنة شروطها وممدّة[٨٧] لها، وبين الفرائض الظاهرة والباطنة ما بين الظاهر والباطن.

وأفهم ههنا قوله ﷺ:

«نيّة المؤمن خير من عمله»[٨٨].

---

(٨٤) يشير بذلك إلى رأى المعتزلة.

(٨٥) الجمع ما كان من أقبل الحق من إبداء معاف، وإسداء لطف وإحسان (انظر الرسالة القشيرية).

والجمع فى كل معانيه يقصد به القرب من الله سبحانه وتعالى، وآثار القرب، من الله سبحانه وتعالى لا حدود له، ذلك أن كمال الله سبحانه وتعالى لا يتناهى، ويكون معنى القرب من الله سبحانه وتعالى: زيادة كمال، وزيادة الكمال من آثار زيادة الإيمان، وكلما زادت استقامة الإنسان زاد إيمانه، فزاد بذلك كماله، وزاد قربه من الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أكثر من مرة فى كتابه الكريم زيادة الإيمان، وتحدث سبحانه عن أهل اليمين، وعن الأبرار، وعن المقرّبين، والمقرّبون هم قمّة أهل الإيمان، ودونهم الأبرار فى المنزلة، وأهل اليمين ناجون وكلهم فضلاء يتفاوتون فى الفضل بحسب هممهم فى طاعة الله والخضوع له.

والتفرقة: هى البعد عن الله سبحانه وتعالى بالمعاصى، وهى بعد عن الكمال، ونقص فى الإيمان.

(٨٦) أى رؤية الكسب من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية.

(٨٧) أى معينة عليها.

(٨٨) رواه القضاعى فى مسند الشهاب، وابن عساكر فى أماليه وقال غريب والطبرانى فى المعجم الكبير: قال الهيثمى: رجاله موثقون إلّا حاتم بن عباد بن دينار لم أر من ذكر له ترجمة، وقال المناوى: له عدة طرق تجبر ضعفه، وإنما كانت نيّة المؤمن خيرًا من عمله.

لأن تخليد الله العبد فى الجنة ليس بعمله، وإنما هو لنيّته؛ لأنه لو كان بعمله كان خلوده فيها بقدر مدة عمله، أو أضعافه، لكنه جازاه بنيّته؛ لأنه كان ناويًا أن يطيع الله أبدًا، فلما اخترمته منيته جوزى بنيته، وكذا الكافر لأنه لو جوزى بعمله لم يستحق التخليد فى النار إلّا بقدر مدة كفر ولأنه نوى الإقامة على كفره أبدًا لو بقى فجوزىَ بنيته. ذكره بعضهم.

وقال الكرمانى: المراد أن النيّة خير من العمل بلا نيّة؛ إذ لو كان المراد خير من عمل مع نية لزم كون الشيء خيرًا من نفسه مع غيره، أو المراد أن الجزء الذى هو النية خير من الجزء الذى هو العمل؛ لاستحالة دخول الرياء فيها، أو أن النيّة خير من جملة الخيرات الواقعة بعمله، أو أن النية فعل القلب، وفعل الأشرف أشرف، أو لأن القصد من الطاعة تنوير القلب، وتنويره بها أكثر لأنها صفته.

وقال البعض: إنما قال النبى ﷺ ذلك؛ لأن النيّة عبودية القلب والعمل عبودية الجوارح وعمل القلب أبلغ وأنفع، وهو أمير، والجوارح رعية، وعمل الملك أعظم وأبلغ، ولأن العمل يدخل تحت الحصر، والنية لا، إذ المتحقق فى إيمانه عقد نيته على أن يطيع الله ما أحياه، ولو أماته ثم أحياه، وثم ثم، وهذا اعتقاد منبرم مستدام، فيترتب له من الجزاء على نيته ما لا يترتب له على عمله. =

وكذلك الذنوب الباطنة صغائرها وكبائرها أشد من الذنوب الظاهرة، صغيرها من صغيرها وكبيرها من كبيرها، ولما كانت الفرائض اقتضاها الحق من عبده اقتضاءَ إلزامٍ حتّمه عليه لم يدخل العبد فيها إلّا باختيار الله له، فاندفع هوى العبد فيها؛ لأن الله سبحانه وقت أعدادَها وآمادها وأسبابها، فلما كان كذلك كان قيام العبد فيها مقتَطَعًا عن اختياره لنفسه، راجعًا إلى اختياره الله له، فأوجبت من القرب إلى الله مالم يوجبه غيرها فلذلك قال: «ما تقرّب إلىّ المتقرّبون بمثل أداء ما افترضته عليهم».

ثم قال: وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه.

فاعلم أن النوافل هى الزيادة؛ ولذلك سمّى النفل نفلًا، وهو ما ينفله الإمام لمن يراه: زائدًا على نصيبه من الغنيمة، وقال الله سبحانه:

﴿ومن الليل فتهجّد به نافلةً لك﴾(٨٩).

= وقال بعضهم: معناه، أن المؤمن كلما عمل خيرًا نوى أن يعمل ما هو خير منه، فليس لنيته فى الخير منتهى، والفاجر كلما عمل شرًا نوى أن يعمل ما هو شرٌّ منه، فليس لنيته فى الشر منتهى.

وقال بعضهم فى حديث آخر: من نوى حسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات، فالعمل فى هذا الحديث خير من النية، وليس ذلك مرادًا للحديث الأوّل، وإنما تكون النية خيرًا من العمل فى حال دون حال.

وقال بعض شراح مسلم: أفاد هذا الخبر أن الثواب المترتب على الصلاة أكثر للنية وباقية لغيرها من قيام وغيره.

وفى رواية: «نيّة المؤمن أبلغ من عمله» لما تقرر؛ ولأن المؤمن فى عمل ونيته عند فراغه لعمل ثان، ولأن النية بانفرادها توصل إلى مالا يوصله العمل بانفراده، ولأنها هى التى تقلب العمل الصالح فاسدًا، والفاسد صالحًا، مثابًا عليه، ويثاب عليها أضعاف ما يثاب على العمل، ويعاقب عليها أضعاف ما يعاقب عليه، فكانت أبلغ وأنفع.

وقيل: إذا فسدت النية وقعت البليّة.

ومن الناس من تكون نيته وهمّته أجلّ من الدنيا وما عليها، وآخر نيته وهمته من أخس نية وهمة، فالنية تبلغ بصاحبها فى الخير والشر ما لا يبلغه عمله، فأين نية من طلب العلم وعلمه ليصلى الله عليه وملائكته وتستغفر له دواب البرّ وحيتان البحر إلى، نية من طلبه لمأكل أو وظيفة كتدريس؟

وسبحان الله كم بين من يريد بعلمه وجه الله والنظر إليه وسماع كلامه وتسليمه عليه فى جنة عدن، وبين من يطلب حظًّا خسيسًا كتدريس أو غيره من العرض الفانى.

قال الحكيم: والنية نهوض القلب إلى الله، وبدوّها خاطر ثم المشيئة، ثم الإرادة ثم النهوض؛ ثم اللحوق إلى الله تعالى مرتحلًا بعقله وعمله وذهنه وهمته وعزمه فمن هنا تتم النية؛ ومنه يخرج إلى الأركان فيظهر على الجوارح فعله، وإذا صحّ العزم خرج الرياء والفخر والخيلاء من جميع أعماله وبلغ مقام الأقوياء؛ وأما غير الكامل فصدره مرج (بستان) من المروج ملتف فيه من النبات ما إذا تخطى فيه لا يكاد يستبين موضع قدمه أين يضعها من كثرة النفاق؛ فهذا صدر فيه أشغال النفس وفنونها ووساوس شهواتها فمن أين يأتى النور؟

وإنما يستنير قلب أجرد أزهر فى صدره فسح قد شرحه الله للإسلام فهو على نور من ربه (رطب بذكر الله ورحمته) وصلب بآلاء الله.

والناس فى هذه النية على طبقاتٍ: أمّا نيّة العامة فارتحالهم إلى الله بهذا العلم والعقل والذهن والهمة والعزم؛ فمبلغ ارتحالهم المحو، ثم ليس لقلوبهم من القوة ما يرتحلون به فيطيرون لأنه لا ريش لقلوبهم والمحو مسدود لأن القلوب لما مالت إلى النفوس وإطاعتها أفسد طريقها إلى ربها.

وأما العارفون فنيّاتهم صارت كلها نية واحدة لأن القلب ارتحل إلى الله ووجد الطريق إليه فمرّ والقلب أمير والنفس أسير، أهـ فيض القدير ج ٦ ص ٢٩٢.

(٨٩) الإسراء: ٧٩.

أى زيادة لك من فضلنا على ما اقتضته الفرائض لك.

واعلم أن الحق سبحانه لم يوجب شيئًا من الواجبات غالبًا إلّا وجعل منْ جنسه نافلةً حتى إذا قام العبد بذلك الواجب وفيه خلل ما جبر بالنافلة التى هى من جنسه؛ ولذلك جاء فى الحديث:

أنه ينظر فى صلاة العبد فإن قام بها كما أمره الله جوزى عليها وأُثبتت له وإن كان فيها خلل أكملت من نافلته»[٩٠] حتى قال أهل العلم: إنما تثبت لك نافلة إذا سلمت لك الفريضة.

ولما علم الله سبحانه أن فى عباده المؤمنين أقوياء وضعفاء كما جاء فى الحديث:

«المؤمن القوى أحبّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف» أو قال: «خير من المؤمن الضعيف» وفى كلٍّ خير[٩١].

ففسَّح الله على الضعفاء بالاكتفاء بالواجبات، وفتح للأقوياء باب نوافل الخيرات، فعباد أنهضهم إلى القيام بالواجبات خوف عقوبته، فقاموا بها تخليصًا لأنفسهم من وجود الهلكة وملاقاة العقوبة، فما قاموا لله شوقًا له ولا طلبًا بربوبيته، فلو قوبلوا بالمحاققة لم يقبل منهم قيامهم هذا، فإنهم لم ينهضوا إلّا لأجل نفوسهم ولم يطلبوا إلّا حظوظهم، فقاموا بواجبات الله مجرورين بسلاسل الإيجاب؛ لذلك جاء فى الحديث:

«عجب ربّك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل»[٩٢].

وأما العباد الآخرون فعندهم من غليان الشغف ووجود الحب ما ليس تكفيهم الواجبات، بل قلوبهم متلفتة إلى الله من عوائق هذه الدار، فلو لما يحجر عليهم التنفل بالصلاة فى أوقات النهى لسر مدوا الأوقات بها، ولحمّلوا أنفسهم فوق ما يطيقون.

ومما يدلك على أن الناس انقسموا على هذين القسمين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث:

«بادروا بالأعمال سبعًا، هل ينتظر أحدكم إلّا غنىً مطغيًا، أو فقرًا منسيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشرٌّ غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر»[٩٣].

فهذا الحديث يقتضى إنهاض الهمم إلى معاملة الله سبحانه وتعالى، والحث على المبادرة إلى طاعته، ومسابقة العوارض والقواطع قبل ورودها، فهذا خطاب الفريق الأوّل فطالبهم الرسول ﷺ بالمبادرة بالأعمال، وجَاءت أحاديث أخر آمرة للعبَاد بالاقتصاد فى الطاعة لئلّا يطيعوا باعث الشغف فيحملون أنفسهم فوق ما يطيقون فيؤدّى ذلك إلى عجزهم عن طاعة الله أو قيامهم فيها بوجود التكلف، فقال ﷺ:

---

(٩٠) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن تميم الدارى بنحوه وصححه السيوطى.

(٩١) رواه مسلم ونصّه: المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا، كان كذا، وكذا ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل فإنّ لو تفتح عمل الشيطان.

(٩٢) رواه أحمد والبخارى وأبو داود.

(٩٣) رواه الترمذى والحاكم وصححه.

«أكلفوا من العمل ما تطيقون فو الله لا يملّ الله حتى تملّوا»[٩٤].

وقال: القصد القصد تبلغوا[٩٥].

وقوله: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»[٩٦].

وقوله ﷺ «ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله».

ومثل القائم بالواجبات المكتفى بها والقائم بها وبالنوافل معها كمثل عبدين خارجها[٩٧] الملك على أربعة دراهم كل يوم فأمّا أحدهما فقام بها ولم يزد، وأما الآخر فقام بها وعمد إلى طرف الفواكه وغرائب التحف فاشتراها وأهداها إلى السيد، فهو لا شك أوْلى بودّ السيد من العبد الآخر.

وقوله: فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به الحديث إلى آخره.

المعنى به: وجود البقاء بعد الفناء فتمحى أوصافك وتطوى بظهور أوصاف المولى فيك.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

إن لله عبادًا محوا أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذواتهم بذواته وحملهم من أسرارهم ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه، وهم الذين غرقوا فى بحر الذات وتيار الصفات، فهى إذًا فناءات ثلاث أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله، وعن أوصافك بأوصافه، وعن ذاتك بذاته، ولذا قال قائلهم:

وقوم تاهوا فى أرض بقفر وقوم تاهوا فى ميدان حبه
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا وأبقوا بالبقا من قرب قربه

فإذا أفناك عنك أبقاك به، فالفناء دهليز البقاء، ومنه يدخل إليه، فمن صدق فناؤه صدق بقاؤه، ومن كان عمّا سوى الله فناؤه كان بالله بقاؤه، ولذلك قالوا: من كان فى الله تلفه كان على الله خلفه، فالفناء يوجب عذرهم، والبقاء يوجب نصرهم، الفناء يوجب غيبتهم عن كل شىء، والبقاء يحضرهم مع الله فى كل شىء فلا ينقطعون عنه بشىء، الفناء يميتهم، والبقاء يحييهم، ومن دكّت جبال وجوده استمع داعى شهوده، قال الله سبحانه:

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربّى نسفًا، فيذرها قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوَجًا ولا أمتًا، يومئذ يتّبعون الداعِى لا عِوجَ له وخَشعتِ الأصواتُ للرحمن فلا تسمع إلا همسًا﴾[٩٨].

---

(٩٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائى ورواه الشيخان بنحوه.

(٩٥) رواه البخارى.

(٩٦) رواه أحمد عن أنس وصححه.

(٩٧) أطلقها ليعملا حرّيْن على أن يؤدّيا إليه أربعة دراهم كل يوم.

(٩٨) طه: (١٠٥ - ١٠٨) ومما يذكر هنا أنه قد أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف المذمومة. وأشاروا بالبقاء: إلى قيام الأوصاف المحمودة به.

وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين، فمن المعلوم: أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة. فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة.

وصاحب البقاء يقوم عن الله، وصاحب الفناء يقوم الله عنه.

وقوله: وما تردّدت فى شىء أنا فاعله أكثر من تردّدى فى قبض روح عبدى المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولابدّ له منه.

اعلم أن التردد يجب تأويله ولا يحمل على ظاهره، وإنما التردد فى المخلوقين: إما لتقابل الجواذب، وإمّا لانبهام العواقب وذلك محال فى حق الله سبحانه، وإنما المراد بالتردد ههنا: أن سابق علم الله يقتضى وفاة العبد فى الوقت الذى سبق العلم بتعيينه، وصفة الرأفة تقتضى دفع ذلك لولا ما سبق العلم، وقد أشار الحق سبحانه إلى صفة الرأفة بقوله: يكره الموت وأكره مساءته، وأشار إلى صفة العلم بقوله: ولابدّ له منه.

انعطاف:

واعلم رحمك الله بإقباله عليك وجعل أنواره واصلة إليك، أنهما ولايتان: ولىّ يتولّى الله، وولىّ يتولاّه الله، وقد قال الله عزّ وجلّ فى الولاية الأولى:

﴿ومن يتولَّ الله ورسولَه والذين آمنوا فإنّ حزبَ الله هم الغالبون﴾(٩٩).

وقال فى الولاية الثانية:

﴿وهو يتولّى الصالحين﴾(١٠٠).

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: من أجلِّ مواهب الله الرضا بمواقع القضاء، والصبر عند نزول البلاء، والتوكل على الله عند الشدائد، والرجوع إليه عند النوائب.

فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة، ومتابعة السنّة، والاقتداء بالأئمة، فقد صحّت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون.

ومن خرجت له من خزائن المنن على بساط المحبة، فقد تمت ولاية الله له بقوله:

﴿وهو يتولّى الصالحين﴾.

ففرق بين الولايتين: فعبد يتولّى الله، وعبد يتولاه الله فهما ولايتان: صغرى وكبرى، فولايتك لله خرجت من المجاهدة، وولايتك لرسوله خرجت من متابعتك لسنته، وولايتك للمؤمنين خرجت من الاقتداء بالأئمة، فافهم ذلك من قوله:

﴿ومن يتولَّ الله ورسوله... الآية﴾.

واعلم رحمك الله بورود عواطفه(١٠١)، وفهمك لطائف عوارفه: أن الصلاح الذى فى قوله عزّ وجلّ:

﴿وهو يتولّى الصالحين﴾.

---

(٩٩) المائدة: ٥٦.
(١٠٠) الأعراف: ١٩٦.
(١٠١) أى: بمنحه وعطاياه.

ليس مرادًا به الصلاح الذى يقصده أهل الطريق عند تفصيل المراتب، فيقولون فلان صالح وشهيد وولىّ، بل الصلاح هنا المراد به: الذين صلَحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خليقته، ألم تسمع قول الله سبحانه حاكيًا عن يوسف عليه السلام.

﴿توفّنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين﴾.

أراد بالصالحين هنا المرسلين من آبائه، لأن الله أهّلهم لنبوّته ورسالته، فكانوا لها أهلًا.

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الإيمان، وولاية الإيقان، فولاية الإيمان قول الله سبحانه:

﴿الله وَلىُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾(١٠٢).

وفى هذه الآية فوائد:

الفائدة الأولى: اختصاص اسم الله بالذكر فى هذا الموطن دون ما سواه من الأسماء فقال الله سبحانه:

﴿الله وَلىُّ الذين آمنوا﴾.

ولم يقل: الرحمن، ولا القهار، ولا غير ذلك من الأسماء التى تتضمن الأوصاف؛ لأنه أراد أن يعرّفك شمول ولايته لعباده المؤمنين من الاسم الجامع لجميع الأسماء فلو ذكر اسمًا من أسماء الأوصاف لكانت الولاية من حيثية ذلك الاسم.

الفائدة الثانية: ربط الولاية بالإيمان: ليعرفك عزازة قدر الإيمان وعلوّ منصبه حتى كان سببًا لثبوت ولاية الله للعبد، ولا يفهم من هذه الآية اختصاص الولاية بمن وقع منه الإيمان قبل نزول هذا الخطاب لإتيانه بصيغة الماضى، بل المراد أن من قام به الإيمان وجبت ولاية الله له أى وقت كان ذلك الإيمان، وقد تساق الأفعال على صيغة خاصة وليس المراد خصوص تلك الصيغة، كما تقول قد أفلح من آمن وخاب من كفر، ألا ترى أن المراد بالأوّل: قد أفلح من كان منه إيمان، وقد خاب من كان منه كفر من غير تعرّض لزمن معين.

الفائدة الثالثة: دلّ سبحانه بقوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور على وسع رحمته وسبوغ نعمته: إذ لما قال:

﴿الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

علم أنهم قد يدخلون فى الظلمات، ولكن الله لولايته إياهم يتولّى إخراجهم، كما قال فى الآية الأخرى:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلّا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾.

فساق ذلك مساق المدح للمؤمنين، كما ساق قوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور، مساق

---

(١٠٢) البقرة: ٢٥٧.

البشارة لهم، ولم يقل: والذين لا يفعلون الفاحشة: إذ لو قال ذلك لم يدخل فيه إلاّ أهل الاعتناء الأكبر.

وكذلك قوله:

﴿وإذا ما غضِبوا هم يغفِرون﴾(١٠٣).

وكذلك قوله: ﴿والكاظمين الغيظ﴾(١٠٤).

فمدحهم بالمغفرة بعد الغضب، ولم يقل: والذين لا يغضبون، فيصفهم بفقدان الغضب أصلًا؛ إذ البشرية التى هم متصفون بها لا تقتضى ذلك.

الفائدة الرابعة: إعلام الحق سبحانه فى هذه الآية المؤمنين ببشارة عظمى تتضمنها ولايته؛ لأنها تضمنت كل خير من خيور(١٠٥) الدنيا والآخرة، من: نور وعلم، وفتح وشهود، ومغفرة ويقين، وتأييد ووجود مزيد، وحور وقصور، وأنهار وثمار، ورؤية الله، ورضًى عن الله، ومن الله، وما بين ذلك من الحشر مع المتقين، وأخذ الكتاب باليمين، وثقل ميزان الحسنات، والتثبيت على الصراط وما سوى ذلك من المنح والمواهب التى تضمنتها ولاية الله لعباده المؤمنين، فهى البشارة التى تضمنت كل بشارة.

واعلم أن ولاية الله تتضمن النفع والدفع.

أما النفع فمن قوله:

﴿فلوْلا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها﴾(١٠٦).

ومن قوله: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوْا بأسنا﴾(١٠٧).

وفى هذه وصف الكافرين، فمفهومه أن الإيمان ينفع المؤمنين ولو عند رؤية البأس، وكذلك قوله:

﴿يوم يأتى بعضُ آيات ربِّك لا ينفَع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبْلُ أو كسَبت فى إيمانها خيرًا﴾(١٠٨).

فمفهومه إذا كانت مؤمنةً من قبل نفعها(١٠٩) بإيمانها.

وأما الدفع فمن قوله:

﴿إنّ الله يدافعُ عن الذين آمنوا﴾(١١٠).

وتتضمن النصر لقوله: ﴿وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين﴾(١١١).

وتتضمن النجاة لقوله:

﴿وكذلك نُنجى المؤمنين﴾(١١٢).

---

(١٠٣) الشورى: ٣٧.
(١٠٤) آل عمران: ١٣٤.
(١٠٥) جمع خير.
(١٠٦) يونس: ٩٨.
(١٠٧) غافر: ٨٥.
(١٠٨) الأنعام: ١٥٨.
(١٠٩) أى انتفاعها بإيمانها.
(١١٠) الحج: ٣٨.
(١١١) الروم: ٤٧.
(١١٢) الأنبياء: ٨٨.

الفائدة الخامسة: قوله:

﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

أى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ومن ظلمات البدعة إلى نور السنّة.

ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة.

ومن ظلمات الحظوظ إلى نور الحقوق.

ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة.

ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة.

ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف.

ومن ظلمات الهوى إلى نور التقوى.

ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبرى من الحول والقوى.

ومن ظلمات الكون إلى شهود المكوّن.

ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض.

إلى غير ذلك مما لا يحصره العدّ مما يخرجهم منه ويخرجهم إليه.

الولاية الثانية: ولاية الإيقان، وهى تتضمن الإيمان والتوكّل، وقد قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسْبُه﴾(١١٣).

ولا يكون التوكل إلّا مع اليقين، ولا يكون يقين وتوكّل إلّا مع إيمان؛ لأن اليقين عبارة عن استقرار العلم بالله فى القلب، مأخوذ من يقن الماء فى الجبل إذا سكن فيه، فكل يقين إيمان، وليس كل إيمان يقيناً.

والفرق بينهما أن الإيمان قد تكون معه الغفلة، واليقين لا تجامعه الغفلة.

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الصادقين، وولاية الصديقين.

فولاية الصادقين بإخلاص العمل لله، والقيام بالوفاء مع الله، طلبًا للجزاء من الله.

وولاية الصديقين بالفناء عما سوى الله، والبقاء فى كل شىء بالله. وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: فى بعض كتب الله المنزلة على أنبيائه، «قال الله: «من أطاعنى فى كل شىء أطعته فى كل شىء»!.

فقال الشيخ أبو الحسن: (من أطاعنى فى كل شىء بهجرانه لكل شىء) أطعته فى كل شىء بأن أتجلّى له فى كل شىء حتى يرانى أقرب إليه من كل شىء، هذه طريق أولى، وهى طريق السالكين،

(١١٣) الطلاق: ٣.

وطريق كبرى: من أطاعنى فى كل شىء بإقباله على كل شىء لحسن إرادة مولاه فى كل شىء، أطعته فى كل شىء، بأن أتجلّى له فى كل شىء، حتى يرانى كأنّى عين كل شىء.

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنهما وليان: ولىٌّ يفنى عن كل شىء فلا يشهد مع الله شيئًا، وولىٌّ يبقى فى كل شىء فيشهد الله فى كل شىء، وهذا أتم؛ لأن الله سبحانه لم يظهر المملكة إلّا كى يشهد فيها، فالكائنات مرايا الصفات، فمن غاب عن الكون غاب عن شهود الحق فيه، فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها: تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها. ولنا فى هذا المعنى.

مـا أبينـت لـك الـعوالم إلّا	لتـراهـا بعـين من لا يـراهـا
فارْقَ عنها رقىَّ من ليس يرضى	حـالةً دون أن يـرى مـولاهـا

فالناظر للكائنات غير شاهد للحق فيها غافل، والفانى عنها عبد بسطوات الشهود ذاهل، والشاهد للحق فيها عبد مخصص كامل. وإنما ترفع الهمة عن الكون من حيث كونيته لا من حيث ظهور الحق فيه، وذلك: لعدم نفوذهم إليه فى كل شىء لا لعدم ظهوره فى كل شىء، فإنه ظاهر فى كل شىء حتى إنه ظاهر فيما به احتجب فلا حجاب. ولنا فى هذا المعنى:

أرى الكلَّ محتاجًا وأنت لك الغنى	ومثلى من يخْطى ومثلك من يعفو
وأنت الذى تُبْدى الودادَ تكرّمًا	ومثلُك من يرعى ومثلى من يَجْفو
وما طاب عيشٌ لم تكن فيه واصلًا	ولم يصفُ - لا والله - أنّى له يصفو
عزمت على أن أتركَ الكونَ كلَّه	وأقْفُو سبيل الحب والمجْتَبَى يقفو
شهـودُك يجلو والحجـاب لأنـه	إذا حقق التحقيق صار هو الكشف
وما أحسن الأحباب فى كل حالة	فلله مـا يُبْـدو ولله مـا يخْفـو
وإن الأولى لم يشهـدوك بمشهد	قلوبُهم عن نيل سرِّ الهوى غُلف(١١٤)
وأنت الذى أظهرت ثم ظهرت فى	جميع المبادئ مثل ما شهد العرف
ظهرت لكل الكون فالكون مظهر	وفيه له أيضًا كما جاءت الصحف
فـأىّ فؤاد عن ودادك ينـثـنى	وأيةُ عين بعد قربك لى تغفو
وأيـةُ نفس لم يُلْهِـا هـواك	على حبّكم طرًّا نفوسُ الورى وقف

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية دليل وبرهان، وولاية شهود وعيان. ولاية الدليل والبرهان لأهل الاعتبار، وولاية الشهود والعيان لأهل الاستبصار. فلأهل الولاية الأولى قوله سبحانه:

﴿سنُريهم آياتِنا فى الآفاق وفى أنفسِهم حتى يتبيّن لهم أنه الحقُّ﴾(١١٥).

ولأهل الولاية الثانية:

﴿قلِ الله ثم ذَرْهم فى خوْضِهم يلعبونَ﴾(١١٦)

---

(١١٤) أى مغطاة عن الحق.

(١١٥) فصلت: ٥٣.

(١١٦) الأنعام: ٩١.

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان؛ لأن أهل الشهود والعيان قدّسوا الحق فى ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل؟ وكيف يكون معروفًا به وهو المعرّف له؟

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشىء من سبق وجودُه وجودَ كل شىء؟

وقال مريدٌ لشيخه: يا أستاذ، أين الله؟ فقال: أسحقك الله، أتطلب مع العين «أين». وأنشد بعض العارفين:

لقد ظهرْت فلا تخفَى على أحد | إلّا على أكمه لا يبصر القمرا
ثم استترْت عن الأبصار يا صمد | فكيف يُعْرف من بالعزّة استترا

فما احتجب الحق عن العباد إلّا بعظيم ظهوره، ولا منع الأبصار أن تشهده إلّا قهارية نوره، فعظيم القرب هو الذى غيّب عنك شهود القرب.

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشمّ رائحة المسك فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزايد ريحها، فلما دخل البيت الذى هو فيه انقطعت رائحته عنه.

وأنشد بعض العارفين:

كم ذا تموه بالشِّعبين والعلَمِ | والأمر أوضح من نار على علَمِ
أراك تسأل عن نجد وأنت بها | وعن تهامة هذا فعل متَّهَمِ

ووجدت بخط شيخنا أبى العباس رضى الله عنه:

أعندك من ليلى حديث محرر | بإيراده يحيى الرميمُ وينشرُ
فعهدى بها العهدُ القديم وإننى | على كل حال فى هواها مقصر
وقد كان منها الطَّيف قدمًا يزورنى | ولما يزر ما باله يتعذّر
فهل بخلت حتى بطيف خيالها | أم اعتلّ حتى لا يصحُّ التصوّر
ومن وجه ليلى طلعةَ الشمس تستضى | وفى الشمس أبصار الورى تتحير
وما احتجبت إلّا برفع حجابها | ومن عجبى أن الظهور تستر

واعلم أن الأدلة إنما نصبت لمن يطلب الحق لا لمن يشهده: فإن الشاهد غنىّ بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبيّة ثم تعود فى نهايتها ضرورية.

وإذا كان من الكائنات ما هو غنىّ بوضوحه عن إقامة دليل، فالمكوِّن أولى بغناه عن الدليل منها.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

إنّا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان وإنّا لا نرى أحدًا

من الخلق، هل فى الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان ولابدّ فكالهباء فى الهواء إن فتّشته لم تجده شيئًا.

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه، أو هل له من الوضوح ما ليس له حتى تكون هى المظهرة له.

وإن كانت الكائنات موصلة إليه، فليس ذلك لها من حيث ذاتها، ولكن هو الذى ولّاها رتبة التوصيل فوصّلت، فما وصّل إليه غير إلاهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهى لمن وقف عندها ولم ينفذ إلى قدرته عين الحجاب، وقد قال الراوى: أصبح رسول الله ﷺ فى أثر سحابة كانت من الليل، فقال:

أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال ربكم: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى، فأمّا من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب، وأمّا من قال مطرنا بنجم كذا أو بنوْء كذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب.

رواه مالك فى موطّئه(١١٧)، فلابدّ من الأسباب وجودًا ولابدّ من الغيبة عنها شهودًا.

وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذى أظهرها أو معرِّفة له وهو الذى عرفها.

فإن قلت: فقد جاء فى الحديث: من عرف نفسه عرف ربه فهذا يدل على أن معرفة النفس موصلة إلى معرفة الله وهى كوْن من الأكوان ففيه إثبات توصيل الكائنات إليه.

فاعلم أنى سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: فى هذا الحديث تأويلان:

أحدهما: أى من عرف نفسه بذِّلها وعجزها وفقرها عرف الله بعزِّهِ وقدرته وغناه فتكون معرفة النفس أوّلًا ثم معرفة الله من بعد.

والتأويل الثانى: من عرف نفسه عرف ربّه، أى من عرف نفسه فقد دلَّ ذلك منه على أنه عرف الله من قبل، فالأوّل حال السالكين والثانى حال المجذوبين.

واعلم بسط الله لك بساط منّته وجعلك من أهل حضرته أن الله سبحانه إذا تولّى وليًّا صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتىّ لقد قال بعض العارفين: إذا كان الحق سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها، فقلب المؤمن أوْلى بذلك لقول الله سبحانه فيما يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «لم تسعنى أرضى ولا سمائى ويسعنى قلب عبدى المؤمن»(١١٨).

فانظر رحمك الله هذا الأمر الأكبر الذى أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلًا.

ولقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنّك بنور المؤمن المطيع.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: لو كشف عن حقيقة الولىّ لَعُبِدَ لأنَ

(١١٧) ورواه البخارى ومسلم.

(١١٨) لعل أصل هذا الحديث ما رواه الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى من قول النبى ﷺ: إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين.

أوصافه من أوصافى ونعوته من نعوتى، ولقد أخبرنى بعض المريدين قال: صلّيت خلف شيخى صلاة فشهدت ما أبهر عقلى، وذلك أنى شهدت بدن الشيخ والأنوار قد ملأته، وانبثّت الأنوار من وجوده حتى أننى لم أستطيع النظر إليه، فلو كشف الحق عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر فى مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمسُ والقمر من أنوارهم؟ الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب؛ ولذلك قال قائلهم:

إن شمس النهـار تغـرب بالليـ ـل وشمس القلوب ليست تغيب

ونور الشمس يُشْهد به الآثار ونور اليقين يُشْهد به المؤثر.

ولنا فى هذا المعنى:

هـذه الشمس قـابلتنـا بنـور وَلَشَمْسُ اليقـين أبهـر نـورًا
فـرأينـا بهـذه النـور لكنّـا بهـاتيك قـد رأينـا المنيـرا

لكن الحق سبحانه يوفى أعيان الكائنات حقّها، ويعطيها قسطها، فيقدر لكن كوْن رتبته، ويوفيه دولته، فلذلك ستر سرّ الخصوصية فى وجود البشرية، ولابدّ للشمس من سحاب وللحسناء من نقاب، وهل يكون الكنز إلّا مدفونًا والسرّ إلّا مصونًا؟ وضع ذلك سبحانه ليكون سرّ الولاية غيبًا، فيكون المؤمن به مؤمنًا بالغيب، وأيضًا أجلّ ولايته أن يُظهره فى دار لابقاء لها فأرخى عليه ذيل الستر حتى إذا كانت الدار الآخرة التى رضيها أهلًا لظهوره واقترابه ووجود كشف حجابه، كذلك يكشف الحجاب هنالك عن سرّ الولاية ويجلّ مقداره ويرفع مناره(١١٩).

---

(١١٩) حين بدأ الرسول ﷺ الجهر بدعوته، بعد نحو ثلاث سنوات من الإسرار بها: فإنه صلوات الله وسلامه عليه لم يبدأ بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو، وتحدّى العرب بصدقه!

ومن قبل ذلك حين فاجأه الملك فى الغار، ونزل الوحى لم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحى بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالأمر بأن يقرأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه باسم ربه: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾.

ومضى القرن الأوّل كله، ولم يحاول إنسان قط أن يتحدث حديثًا عابرًا أو مستفيضًا عن إثبات وجود الله - تعالى - ومضى أكثر القرن الثانى والمسألة - فيما يتعلق بوجود الله - لا توضع موضع البحث.

ذلك أن وجود الله : إنما هو أمر بدهى لا ينبغى أن يتحدث فيه المؤمنون نفيًا أو إثباتًا، ولا سلبًا أو إيجابًا!

إن وجود الله من القضايا المسلّمة التى لا توضع فى الأوساط الدينية موضع البحث لأنها فطرية:

وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص فى إيمانه دخل.

وفى دينه انحراف، فما خفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبته البشر، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ومن المعروف أن الدين الإسلامى لم يجىء لإثبات وجود الله، وإنما جاء لتوحيد الله.

وإذا تصفحت القرآن أو التوراة - حتى على وضعها الحالى - أو الإنجيل - حتى فى وضعه الراهن: فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت فى أى سفر منها مكانة تجعلها هدفًا من الأهداف الدينية، أو احتلّت مكانًا يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية.

والقرآن الكريم: يتحدث عن بداهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة يقول سبحانه:

﴿ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن الله﴾ إنهم يقولون: إن الخالق هو الله. مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجوه فى إيمانهم بالله تعالى، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله، وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد فى الله، أو لتصحيح طريق الوحيد.

أما الآيات الكثيرة التى يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود، فليست من ذلك فى قليل ولا فى كثير، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبرياءه وهيمنته الكاملة على العالم، ما عظم من أمره ودقّ منه، لا تفوت هيمنته صغيرة ولا كبيرة، ولا يخرج عن =

فاعلم رحمك الله أن من أراد الله به أن يكون داعيًا إليه من أوليائه، فلابّد من إظهاره للعباد إذ

= سلطانه ما دقّ وما جلّ.

وقد أتت على هذا الوضع لتقود الإنسان إلى إسلام وجهه لله إسلامًا كاملًا بحيث لا يصدر ولا يرد إلّا باسمه سبحانه، ولا يأتى ما يأتى أو يدع ما يدع إلّا فى سبيله تعالى.

ومضى القرن الأوّل على ذلك، ومضى القرن الثانى - أو أكثره - على الفطرة ثم كانت الفلسفة اليونانية.

والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية؛ لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحى، وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحى فى عالم ما وراء الطبيعة، أى فى عالم العقيدة إنما هى فكرة وثنية، أى أنها فكرة لا حق لها فى الوجود؛ لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله، يبيّنه على لسان رسله، وكل تدخّل من الإنسان فى هذا العالم، إنما هو تدخل فيما ليس للإنسان التدخل فيه؛ لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة لا ينبغى أن يدخلها الإنسان إلّا دخول الساجد الخاشع الخاضع المسلم لما جاء به الوحى الإلهى.

إن الفلسفة اليونانية فى عالم العقيدة: فلسفة وثنية: إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله، ولا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية، إنها وثنية بالمبدأ الذى قامت عليه، وهو مبدأ تأليه العقل البشرى. ويستوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرته.

وهى حينما تثبت وجود الله عقليًا ليس فى ذاك كبير فائدة، ولا يبرر ذلك وجودها، ولا قيمة لما تثبته، وإثباتها والعدم سواء؛ ذلك أن العقل الذى أثبت هو العقل الذى يمكنه أن ينكر، وهو العقل الذى ينكر بالفعل.

ولا لزوم إذن للطنطنة والتصفيق الذى نحيى به كل عبقرية فكرية فى الشرق أو فى الغرب تحاول فكريًا أن تثبت وجود الله. إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشرى مهما كان هذا الفكر عبقريًا.

ويجب على المؤمن ألّا يقيم وزنًا - أى وزن - لأىّ نتاج فكرى فى عالم ما وراء الطبيعة سواء خالف معتقده أو وافقه، إنه فى معتقده يدين لله وحده، وكفى بالله مصدرًا، وكفى بالله هاديًا، وكفى بالله مرشدًا ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم، ومن يعتصم بالله فهو حسبه.

إن كل ما عدا الهدى الإلهى فى عالم الدين إنما هو وثنية وضلال.

كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية، وقد أرادت أن تجد لجامًا يعصمها من الخطأ فاخترعت فنًا وثنيًا آخر، هو فنّ المنطق، فما أجدى ولا أغنى، ولا تقدّم بالفكر الوثنى فى عالم الصواب شروى نقير!

وبقيت هذه الفلسفة الوثنية - عبر القرون - على ما هى عليه، فيها كلّ سمات الوثنية من ضلال وخرافات.

ولقد كانت الأمة اليونانية معذورة بعض العذر، فما كان فى ربوعها، دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة، وما كان مثلها فى ذلك إلّا كمثل العصر الجاهلى فى الجزيرة العربية: فلجأت إلى العقل وألهته، وأخذت تثبت به وتنكر فضلّت وأضلّت.

جاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع، فعزلت فكرة الألوهية من تدنيس الوثنية، وسمت بالله جلّ جلاله عن أن تضع وجوده موضع البحث ثم تسلّلت إليها - كمكروب خبيث - وثنية اليونان، فجعلت من وجود الله - مجرّد وجود الله بابًا ضخمًا من أبواب البحث أو من أبواب اللاهوت الكنسى. ونزلت بذلك الفكر الدينية المقدسة عن الله إلى مستوى الجوّ الوثنى البشرى!

وجاء الإسلام تطهيرًا كاملًا للعقيدة، وتزكية تامّة للإيمان، وأعلن بمجرد التسمية: «الإسلام» الحرب على التدخل البشرى فى دين الله ورسالته، فما جاء الإسلام إلّا للاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى، إنه الاسترسال مع الله على ما يرضيه، وهل للإنسان غير هذا بالنسبة لله؟ وهل للمؤمن أن يتصرّف تصرفًا آخر؟ وهل إذا تصرف تصرفا آخر سمّى مؤمنًا؟

إن الاسترسال مع الله على ما يحب هو الإسلام، وهو الدين لا دين غيره، يقول الله تعالى:

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

ويقول سبحانه:

﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبلَ منه﴾.

وإن كل من لا يستسلم لله فى وحيه استسلامًا مطلقًا، فإنه يبتغى - فى قليل أو فى كثير حسب انحرافه - غير الإسلام دينًا.

ولقد كان الإسلام توجيهًا ، وكان مبادئ!

ومن توجيه الإسلام: أن وجود الله لا ينبغى أن يوضع موضع البحث، وكلّ من وضعه موضع البحث: فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى توجيه بشرى. إنه يبتغى غير الإسلام موجّهًا!

ولقد ابتغى المسلمون الأول الإسلام توجيهًا كما ابتغوه مبادئ، وسار الأمر على ذلك إلى أن تسللت الفلسفة اليونانية - =

لا يكون الدعاء إلى الله إلّا كذلك، ثم لابدّ أن يكسوه الحق سبحانه كسوتين: الجلالة، والبهاء.

= كمكروب خبيث – إلى الجوّ الإسلامي، تسللت في عهد المأمون، وتولّى كِبْر هذا التسلل المأمون، وشجّعه على ذلك معتزلة عصره، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من النفور، وحقّ لهم ذلك، فما كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضى بأن تكون راية العصمة، راية الدين الإلهي مرفوعة ترفرف على ربوع الأمة الإسلامية في محيط العقيدة: فنميل بهذه الراية قليلا أو كثيرا لترفع بجوارها راية أرسطو أو راية أبيقور.

ورفع المأمون راية الانحراف الوثنية بجوار راية الهداية المعصومة وعارض المؤمنون واحتجّوا وبيّنوا أن الوثنية ولو وافقت الدين فهي وثنية.

ولكن النهج الوثنى أخذ يقوى شيئًا فشيئًا، ثم طلب التصريح بالإقامة واستوطن! ومعاذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى – الإيمان بالله وبالرسالة وبالبعث – قد تلوّثت بالوثنية!

كلّا، وإنما الذى تلوّث بالوثنية – وإلى حدٍّ كبير – إنما هو النهج والنزعة والاتجاه في البحث ومنهج البحث وليس ذلك بالأمر الهيّن أو الذى لا يؤبه له، كلّا! – فذلك له خطورته في جانب قوّة الإيمان وضعفه.

وفرق بين أن تأخذ قضايا الوحى مأخذ المستسلم المسترسل معها على ما تريد، وأن تأخذها محكمًا فيها عقلك مؤوّلًا لها أو عادلًا بها إلى اتجاه خاص، أو شارحًا لها على نزعة معينة.

وبتعبير آخر: فرق بين أن تصدر عن الوحى متفهمًا له بعقلك، وبين أن تصدر عن عقلك متفهمًا للوحى.

ولعلّ بعض الناس لا يرى فرقًا في التعبيرين، ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى الوضع الإنسانى: فهو إمّا أن ينطلق من الوحى قائدًا العقل إلى الخضوع له، وإمّا أن ينطلق عن العقل محاولًا تأويل الوحى بما يوافق النتائج التى وصل إليها العقل، والأوّل طريق المؤمنين المسلمين، والثانى طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين. والنهج الوثنى – نهج إثبات وجود الله عقليًّا – هو الذى أتاح الانحراف الكامل أى إنكار وجود الله، فمادام النهج الوثنى قد أعطى حقّ الوجود، فإن الوثنية – كمنهج – تأتى بالوثنية كنتائج!

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث. هو الذى هيّأ لذوى الفِطَر المنحرفة أن يلحدوا في دين الله، وأن يكفروا به سبحانه..! هذه نتيجة!

أمّا النتيجة الثانية فإنها ضعف الإيمان، وإذا كنت تضع الوجود الإلهى – مجرّد الوجود – موضع بحث، فمعنى ذلك أنك وضعته موضع شك وريبة، ولو لم يكن كذلك لما وضع موضع البحث.

وإذا كان الوجود الإلهى – مجرّد الوجود – موضع شك وريبة فماذا بقى من أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة؟!

إن الإيمان في هذه الأوضاع الوثنية لا يتأتّى له إلّا أن يخبو شيئًا فشيئًا حتى يصبح كلا إيمان!

وهذا هو ما حدث لبعض الأفراد في الأمة الإسلامية!

لقد وصل إيمانهم إلى درجة يشبه أن يكون معدومًا، وما ذلك إلّا لتغلغل النهجى الوثنى في بحث قضايا الدين ومبادئه.

لقد أصبحت قضايا الدين – كلّ قضاياه – موضع بحث وهل يتأتى أن تبقى قضية من قضايا الدين في مجال اليقين بعد أن وضع وجود الله – مجرّد وجوده سبحانه – موضع البحث؟ نستغفرك اللّهم ونتوب إليك! ونعود فنقول: إن الدين في نفسه محفوظ بحفظ الله لكتابه العزيز.

﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ولكن الذى نشكو منه إنما هو: النهج، أو المنهج أو النزعة، أو الاتجاه في البحث.

إنّ الذى نشكو منه إنما هو:

منهج البحث الوثنى: وإن شئت قلت: إنما هو منهج البحث اليونانى. سئل أحد العارفين عن الدليل على الله فقال: الله! فقيل له: فما العقل؟ فقال: العقل عاجز لا يدلّ إلّا على عاجز مثله!

أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندرى الذى جمع بين رئاسة الشريعة ورئاسة الحقيقة فإنه يقول: إلهى: كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصّل إليك؟

«كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى أظهر كل شىء»؟!

أمّا الجلالة فليعظمه العباد فيقفوا على حدود الأدب معه، ويضع له فى قلوب العباد هيبة يبصره بها؛ ليكون إذا أمر ونهى مسموعًا أمره ونهيه، وجعل هذه الهيبة فى قلوب العباد من تمكين الحق له ليعينه على القيام له بالنصرة، قال الله سبحانه: ﴿الذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتُوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوْا عن المنكر ولله عاقبةُ الأمور﴾[١٢٠].

وهى من إظهار إعزاز الحق لعباده المؤمنين، قال الله سبحانه:

﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾[١٢١].

وهذه الهيبة التي جعلها الحق فى قلوب العباد لأوليائه سرت إليهم لا نبساط جاه المتبوع عليهم، ألم تسمع قوله ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر[١٢٢]؟ ألبسهم الحق ملابس هيبته، وأظهر عليهم إجلال عظمته، كلما نزلوا إلى أرض العبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية، فهم الملوك وإن لم تخفق عليهم البنود[١٢٣] والأعزّاء وإن لم تسر أمامهم الجنود.

ولله در القائل فى مالك بن أنس رضى الله عنه:

يأبى الجوابَ فما يُراجَع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعزّ سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

ومن ملّكه الله أمر نفسه وهواه فقد آتاه الله الملك، قال الله تعالى:

﴿قل اللّهم مالكَ المُلكِ تُؤتى المُلْكَ من تشاءُ﴾[١٢٤].

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

قال ملك من الملوك لبعض العارفين تَمنَّ علىّ.

فقال له ذلك العارف: إلىّ تقول ولى عبدان قد ملكتُها وملكاكَ وقهرتُها وقهراكَ وهما الشهوة

= «كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر فى كل شيء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذى ليس معه شيء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء»؟

«شتّان بين من يستدّل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلّا فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه»؟!

(١٢٠) الحج: ٤١.

(١٢١) المنافقون: ٨.

(١٢٢) رواه البخارى ومسلم والنسائى.

(١٢٣) أى ترفرف الرايات.

(١٢٤) آل عمران: ٢٦ – وما ذكره المؤلف رضى لله عنه هو بعض ما تشير إليه الآية الكريمة وهى عامة، فهى تشمل الملك فى الآفاق – كل الآفاق – وفى الأنفس، أنه سبحانه المالك للسماوات والأرض وما بين السماوات والأرض، وهو سبحانه المملِّك ما يشاء لمن يشاء، ومع تمليكه ما يشاء لمن يشاء فهو المالك الدائم لكل ما خلق ويخلق.

والحرص؟ فأنت عبد عبدى. فكيف أتمنّى على عبد عبدى؟!.

الكسوة الثانية التى يكسوها الحق سبحانه لأوليائه إذا أظهرهم: كسوة البهاء، وذلك ليحليهم فى قلوب عباده فينظرون إليهم بعين الألفة والمحبّة، فيكون ذلك باعثًا لهم على الانقياد إليهم، أفلا ترى كيف قال الله سبحانه فى شأن موسى عليه السلام:

﴿وألقيْتُ عليك محبةً منى﴾[١٢٥].

وقال سبحانه: ﴿إنّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات سيجعلُ لهم الرحمنُ وُدًّا﴾[١٢٦].

فحلاهم بحلية الهيبة ليحبّهم العباد فيجرّهم حبُّهم إلى حبِّ الله، والحبُّ فى الله يوجب المحّبة من الله، لقوله ﷺ حاكيًا عن الله: (وجبت محبتى للمتحابّين فى)[١٢٧].

وهى مراتب أربع: الحب لله، والحب فى الله، والحب بالله، والحب من الله. الحب لله ابتداءً، والحب من الله انتهاءً، والحب فى الله وبالله واسطة بينهما.

الحب لله هو أن تؤثره ولا تؤثر عليه سواه[١٢٨]، والحب فى الله أن تحبَّ فيه من والاه، والحبُّ بالله أن يحبَّ العبد من أحبَّه وما أحبَّه منقطعًا عن نفسه وهواه، والحبُّ من الله هو أن يأخذك من كل شىء فلا تحب إلاّ إيّاه.

وعلامة الحب لله دوام ذكره مع الحضور، وعلامة الحب فى الله أن تحبّ من لم يحسن إليك بدنيا من أهل الطاعة والخير، وعلامة الحب بالله أن يكون باعث الحظ بنور الله مقهورًا، وعلامة الحب من الله أن يجذبك إليه فيجعل ما سواه عنك مستورًا.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

من أحب الله وأحب لله فقد تّمت ولايته بالحب.

والمحبُّ على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته: فإذًا من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت، ويعلم ذلك من قوله تعالى:

﴿قل يـٰأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياءُ لله مِن دونِ الناس فتمنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين﴾[١٢٩].

فإذًا الولىّ على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه.

وقد أحبَّ الله من لا محبوب له سواه، وأحبَّ له من لا يحب شيئًا لهواه، وأحب لقاءه من ذاق أنس مولاه.

---

(١٢٥) طه: ٣٩.

(١٢٦) مريم: ٩٦.

(١٢٧) قال النووى: حديث صحيح رواه مالك فى الموطأ.

(١٢٨) يقول الله سبحانه:

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربّصوا حتى يأتى الله بأمره﴾.

(١٢٩) الجمعة: ٦.

ويتمحّض لك الحب له فى عشرة فاعتبرها فيما وراءها:

فى الرسول ﷺ(١٣٠)، والصديق، والفاروق والصحابة، والتابعين، والأولياء والعلماء الهداة إلى الله تعالى، والشهداء، والصالحين، والمؤمنين.

فإذا افترق الأمر بعد الإيمان إلى عشرة أشياء: إلى السنّة والبدعة والهداية والضلالة، والطاعة والمعصية، والعدل والجور، والحق والباطل، وميزت وأحببت وأبغضت فأحب له، وأبغض له، ولست تبالى بأيّهما كنت، وقد يجتمع لك الوصفان فى شخص واحد، ويجب عليك القيام بحقّهما جميعًا، فإذًا قد بان لك الحب لله فى العشرة الأول، فانظر هل ترى للهوى هناك أثرًا، فكذلك فاعتبر حبّ من حضر من إخوانك الصادقين، والمشايخ الصالحين، والعلماء المهتدين، وسائر من حضر ومن لم يحضر ممن غاب عنك أو مات، فإن وجدت قلبك لا متعلّق له بمن حضر كما لا متعلق له بمن غاب عنك أو مات فقد خلص الحب من الهوى وثبت الحب لله، وإن وجدت شيئًا يتعلّق به فيمن تحب أو فيما تحب فارجع إلى العلم وأتقن النظر فى الأقسام الخمسة من الواجب والمندوب إليه والمكروه والمحظور والمباح.

واعلم أن قول الشيخ: «من ثبتت ولايته لا يكره الموت» هذا ميزان أعطاه للمريدين ليزنوا به نفوسهم إذا ادعّى فيهم أو أدّعوا ولاية الله، فإن من شأن النفوس وجود الدعاوى والتوثب إلى المراتب العالية من غير أن يسلك السبيل الموصلة إليها؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾(١٣١).

وقال هنا: ﴿فتمَنَّوا الموت إن كنتم صادقين﴾(١٣٢).

وقال الرسول ﷺ لحارثة: «لكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانك»؟ لما قال لحارثة: «كيف أصبحت»؟ فقال: أصبحت مؤمنا حقا، ولا يحب الموت من فيه البقايا، ولا من هو مصر على شىء من الخطايا.

وجعل الله تمنى الموت شاهدًا للولى بولايته، وعدم تمنيه شاهدا للغوى بغوايته.

وقل سبحانه: ﴿وأقيموا الوزْن بالقسط﴾(١٣٣).

والموت ميزان على الأفعال والأحوال، كما هو ميزان فى دائرة الرتب أما الرتب فكما تقدم، وأما الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر أنت فيه لا تدرى: هل رضا الله فى تركه أو فعله أو

(١٣٠) يقول رسول الله ﷺ:
«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». رواه مسلم.
ولقد قال سيدنا عمر مرة لرسول الله ﷺ:
والله لأنت يا رسول الله أحب إلىّ من كل شىء إلاّ نفسى. فقال: لا، والذى نفسى بيده، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك. فقال عمر: فأنت الآن والله أحبّ إلىّ من نفسى. فقال: الآن يا عمر!.

(١٣١) النمل: ٦٤.

(١٣٢) الجمعة: ٦.

(١٣٣) الرحمن: ٩.

حالة أنت بها لا تدرى: هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال فكل حالة وعمل يثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهى حق، وكل حالة وعمل هزمها الموت فهى باطل إذ الموت حق والحق يهزم الباطل ويدمغه لقول الله عز وجل:

﴿بل نَقذِفُ بالحق على الباطل فيدمغُه فإذا هو زاهقٌ﴾[١٣٤].

﴿قل إنّ ربّى يقذف بالحق علامُ الغيوب﴾[١٣٥].

﴿وقل جاء الحقُّ وَزَهَقَ الباطلُ إنّ الباطل كان زهوقًا﴾[١٣٦].

وما كنت فيه قائمًا بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق، والموت حق، والحق لا يهزم الحق.

وقد تجاريت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم فى أنه ينبغى إخلاص النيّة فيه، وأنه لا يشتغل به إلّا لله، فقلت له: الذى يقرأ العلم لله هو الذى إذا قلت له غدًا تموت لم يضع الكتاب من يده.

وربما غرَّ الغافل من طلبة العلم قول من قال: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله»، وليس فى قول هذا القائل ما يستروح به من طلب العلم للرئاسة والمنافسة، وإنما أخبر هذا القائل عن أمر مُنَّ به عليه، وفتنة سلّمه الله منها، لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره وذلك بمثابة من به مرض مزمن فى المِعَى أعياه علاجه وضاق منه خلقه فأخذ خنجرًا وضرب به مراق بطنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المعى فقطعه فخرج الداء منه، فهذا لا يستصوب العقلاءُ فعله وإن نجحت عاقبته، وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم للتهلكة.

«ليس المغر بمحمود وإن سلما».

وقول الشيخ رضى الله عنه: «وقد أحب الله من لا محبوب له سواه» فهو كلام يستدعى معرفة المحبة وما هى؟

اعلم أن المحبة هى من أجل مقامات اليقين، حتى اختلف أهل الله أيها أتم: مقام المحبة أو مقام الرضا؟

وإن كان الذى نقول به: إن مقام الرضا أتم؛ لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب، وقوى عليه وجود الشغف، فأدّاه ذلك إلى طلب شهود ما لا يليق بمقامه، ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب، والراضى عن الله راضى عنه أشهده أم حجبه؟ والمحب يحب دوام الوصلة، والراضى عن الله راض عنه وصله أو قطعه إذ ليس هو مع ما يريد لنفسه، بل إنما هو مع ما يريد الله له، المحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضى لا طلب له.

ولنا فى هذا المعنى:

وكنت قديمًا أطلب الوصل منهم	فلما أتانى العلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلبا له	فإن قربوا فضل وإن بعدوا عدل

(١٣٤) الأنبياء: ١٨.

(١٣٥) سبأ: ٤٨.

(١٣٦) الإسراء: ٨١.

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

المحبة آخذه من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصناً بمعرفته، والروح مأخوذة فى حضرته، والسرّ مغموراً فى مشاهدته، والعبد يستزيد فيزاد، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة، ويمسّ أبكار الحقائق وثيبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا:

أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون.

قال له القائل: قد علمت الحب.

فما شراب الحب؟

وما كأس الحب؟

ومن الساقى؟

وما الذوق؟

وما الشراب؟

وما الرى؟

وما السكر؟

وما الصحو؟

قال: الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب.

والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب.

والساقى هو المتولّى الأكبر للمخصوصين من أوليائه والصالحين من عباده وهو الله العالم بالمقادير ومصالح أحبائه، فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظى منه بشيء نَفَسًا أو نفَسَين، ثم أرخِيَ عليه الحجاب فهو الذائق المشتاق.

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقًّا.

ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك هو الرِّىّ.

وربما غاب عن المحسوس والمعقول. فلا يدرى ما يقال، ولا مايقول: فذاك هو السكر.

وقد تدور عليهم الكئوس وتختلف لديهم الحالات، فيردون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون عن الصفات، ومع تزاحم المقدورات فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم، ومزيد علمهم.

فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون فى ليلهم.

وبشموس المعارف يستضيئون فى نهارهم.

﴿أولئك حزب الله ألا إنّ حزبَ الله هم المفلحون﴾[١٣٧].

---

(١٣٧) المجادلة: ٢٢.

قال الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبى الحسن رضى الله عنهما:

الزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا، كلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت.

وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت، أو تيقظت شربت، حتى يكورك وصحوك به، وحتى تغيب بجماله، عن المحبة، وعن الشراب، والشرب والكأس بما يبدو لك من نور جماله وقدس كمال جلاله.

ولعلِّى أُحَدِّث مَنْ لا يعرف المحبة ولا الشراب ولا الشرب ولا الكأس ولا السكر ولا الصحو.

قال له القائل: أجل، وكم من غريق فى شىء لا يعرفُ بغرقه، فَعرِّفنى ونَبهنى عما أجهل أو لما مُنَّ به علىَّ وأنا عنه غافل.

قلت لك: نعم المحبة آخذة من الله تعالى قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله وقدس كمال جلاله.

وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والأسماء بالأسماء والنعوت بالنعوت والأفعال بالأفعال ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عزّ وجل.

والشرب سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر، ويكون الشرب بالتدريب بعد التذويب والتهذيب فيسقى كل على قدره.

فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتولّى ذلك منه له.

ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين.

فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئًا، فما ظنّك بعد بالذوق، وبعد بالشرب، وبعد بالرى، وبعد بالسكر بالمشروب.

ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتّى كما أن السكر أيضًا كذلك.

والكأس مغرفة الحق يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافى لمن شاء من عباده المخصوصين من خلقه، فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، وتارة يشهدها معنوية، وتارة يشهدها علمية، فالصورة حظّ الأبدان والأنفس، والمعنوية حظ القلوب والعقول، والعلمية حظ الأرواح والأسرار.

فياله من شراب ما أعذبه، فطوبَى لمن شرب منه، وداوم عليه، ولم يقطع عنه.

نسأل الله من فضله: ﴿ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾(١٣٨).

وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة، وقد يسقون من كئوس كثيرة، وقد يسقى الواحد بكأس وكئوس، وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الأكؤس، وقد يختلف الشرب من

(١٣٨) الجمعة: ٤.

كأس واحدة وإن شرب منه الجم الغفير من الأحبة(١٣٩).

---

(١٣٩) لقد حلق بنا المؤلف فى موضوع المحبة فى صورة أسمى ما تكون العواطف، والواقع أن المحبة «صراط الأولياء» على حدّ تعبير الشبلى.

إنها صراطهم الدائم، حين يصلون إليها تلهج بها ألسنتهم، وتمتلئ بها قلوبهم إلى آخر نفس من حياتهم.

والناس فى العواطف درجات: فمنهم سلطان المحبين، ومنهم سلطان العاشقين.

ومهما جمح بالإنسان أمر الحب، ومهما كان سلطانه فإنه فى الأوضاع الشرعية التى التزمها الصوفية له شروط، وله علامات لن يتأتى أن يكون الحب بدونها. يقول الله تعالى فى حديث قدسي:

«من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحبّ إلى مما افترضه عليه. ومايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبُّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنّه».

وفى هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه فى قوّة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه.. وأولياؤه هم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومن عاداهم فإنما يعادى: المؤمن التقى.

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى:

«آذنته بالحرب».

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبّه، وأوّل خطوة فى هذا الطريق:

«أداء ما افترضه عليك»

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأوّل: شرط القرب منه سبحانه وهو أداء الفرائض.

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله.

لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله - وكذبوا كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»!

لابدّ من أداء الفرائض، وإلاّ لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل ومع أداء الفرائض - فى وجوب القرب - الإكثار من النوافل. فإذا أكثر من النوافل أحبّه الله:

«وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبُّه»!

ويترتب على حبّ الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى.

ويربط أسلافنا - رضوان الله عليهم - ربطًا محكمًا بين محبّة الله سبحانه واتّباع رسول الله ﷺ. متناسقين فى ذلك مع توجيه الله سبحانه:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾

وهذا الربط معناه: الربط بين محبة الله تعالى والعمل.

ومقدمات محبة الله تعالى - فى توفيقه - هى العمل، ومن نتائج محبة الله سبحانه: العمل.

يقول الإمام أبو سعيد الخراز:

وبلغنا عن الحسن البصرى رضى الله عنه أن ناسًا قالوا - على عهد رسول الله ﷺ:

«يا رسول الله، إنّا نحب ربّنا حبًّا شديدًا» فجعل الله تعالى لمحبته علمًا وأنزل عزّ وجل:

﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعونى يحببكم الله﴾

فمن صدق المحبة اتباع رسول الله ﷺ فى هديه وزهده وأخلاقه والتأسّى به فى الأمور كلها، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها، فإن الله عزّ وجلّ جعل محمدًا عليه الصلاة والسلام علمًا ودليلاً وحجةً على أمّته. ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز وجل فى جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك.

ويقول:

فعلامة المحب الموافقة للمحبوب، والتجارى مع طرقاته فى كل الأمور، والتقرب إليه بكل حيلة، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه.

انعطاف:

ثم اعلم فتح الله بصيرتك لشهود أنواره، ووالى عليك ورود معارفه وأسراره، أن من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة.

= أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالى يقول:

وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة إذ قال أبو زين العقيلى: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وفى حديث آخر:

«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»

وفى رواية: «ومن نفسه».

كيف وقد قال الله تعالى:

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشوْن كسادها. ومساكن ترضوْنها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾.

وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار... اهـ.

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله يحيى بن معاذ: إلهى إنّى مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيرًا أخذتنى إليك. وسربلتنى بمعرفتك، وأمكنتنى من لطفك، ونقلتنى فى الأحوال وقلبتنى فى الأعمال: سترًا وتوبةً، وزهدًا وشوقًا، ورضًا وحبًّا، تسقينى من حياضك، وتهملنى فى رياضك، ملازمًا لأمرك، ومشغوفًا، بقولك... ولما طرّ شاربى، ولاح طائرى، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرًا، وقد اعتدت هذا منك صغيرًا، فلى ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأنى محبٌ، وكل محبٌّ بحبيبه شغوف، وعن غير حبيبه مصروف.

وبعد:

فإن ثمرة محبة الله تعالى هى ما قاله سبحانه عن أوليائه:

﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾.

وهى أيضًا أن يجد حلاوة الإيمان، يقول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان:

١ - أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢ - وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله.

٣ - وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار.

ولقد سمع الناس كثيرًا عن عاطفة الحب الإلهى عند السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها، وسمعوا عن حبّ الإمام ابن الفارض، والإمام البرعى. ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية نعتبرها نموذجًا للصوفية فى صلتهم بالله سبحانه: إنها شخصية الإمام الشبلى!

وإذا كان الجم الغفير من الشعب الإسلامى قد أخذ فكرة عن الحب عند بعض الصوفية، فإنه لم تتح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن الحب عند الشبلى ولكن المؤرخين لحياة أبى بكر الشبلى يتحدثون عن حبّه العميق وهيامه المستمر. ومنهم مثلاً صاحب الحلية الذى يقول عنه:

ومنهم المجتذب الولهان، والمستلب السكران، الوارد العطشان، اجتذب عن الكدور والأغيار، واستلب إلى الحضور والأنوار، وسقى بالدنان، وارتهن ممتلأ ريان: أبو بكر الشهير بالشبلى.

وسيرى القارئ أن أسباب المحبة عنده، وأن ثمارها، وأن تصريفها وكل ما يحيط بها منغمس فى جو من الاتباع لرسول الله ﷺ، وشعار من التزام الشريعة الغرّاء، وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والاقتداء برسول الله ﷺ أساسًا لكل تصرفاتهم.

أما عن أسباب المحبة: فإنها فيما يرى الشبلى نتيجة «الهمة»!

والهمة عند الصوفية هى التشمير والجدّ فى العبادة.

ويقول الشبلى:

«إن من ملّت همّته ضعفت محبّته»

سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: يكون الولى مشحونا بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة، حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن له من الله فى الكلام، ويجب أن تفهم أن من أذن له فى التعبير بَهِيَتْ(١٤٠) فى مسامع الخلق عبارته، وحليت لديهم إشارته.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر.

ثم اعلم أن مبنى أمر الولى على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهوده، قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾(١٤١).
وقال سبحانه: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾(١٤٢).

= فمع الهمّة إذن صعودًا وهبوطًا تكون المحبة صعودًا وهبوطًا.
ولقد جلس عنده جمع من المريدين فوجدهم غفلة لا يذكرون، فقال فى حزن:

كفى حزنًا بالواله الصبّ أن يرى ... منازل من يهوى معطلة قفرا

وسئل مرة عن أعجب شيء فقال:
«من عرف الله ثم عصاه»!
ولا يسرّ المحب شيء أكثر من موافقة من يحب.
قال أبو القاسم عبدالله بن على البصرى: قال رجل للشبلى:
إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟ قال:
«إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته» وأنشد:

أسرُّ بمهلكى فيه لأنى ... أسرُّ بما يسرّ الإلف جدا
ولو سئلت عظامى عن بلاها ... لأنكرت البلى وسمعت جحدا
ولو أخرجت من سقمى لنادى ... لهيب الشوق بى يسأله ردًا

ولابدّ للمحب من الأدب الكامل فى القول فضلًا عن السلوك ويقول الشبلى:
«الانبساط مع الحق بالقول ترك أدب».
والمحبة رقّ للمحبوب، وإذا سألت عن الفرق بين رقّ العبودية ورقّ المحبة فإن أحمد بن محم بن عمران قال:
سمعت الشبلى - وسئل - فقيل: ما الفرق بين رق العبودية ورق المحبة؟ فقال: كم بين عبد إذا أعتق صار حرًا، وعبد كلما أعتق ازداد رقًا.
ثم أنشأ يقول:

لتحشرنّ عظامى بعد إذ بليت ... يوم الحساب وفيها حبكم علق

وقد يسأل إنسان عن تعريف المحبة عند الشبلى: ما هى؟
والجواب: إنه يقول:
«المحبة اتباع أوامر المحبوب، وتجنّب نواهيه، ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص، وكتمان الحال مع بذل الجهد فى المجاهدة، ثم بعد ذلك لا توصل للمحبوب إلّا بفضله ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾.

(١٤٠) بهيت: أى حسنت وراقت.
(١٤١) الطلاق: ٣.
(١٤٢) الزمر: ٣٦.

وقال سبحانه: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾[١٤٣].

وقال سبحانه: ﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد﴾[١٤٤]؟ فمبنى أمرهم فى بداياتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكتم الأحوال، تحقيقا لفنائهم، وتثبيتا لزهدهم، وعملا على سلامة قلوبهم، وحبا فى إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء، فهنالك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، وإن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شىء إليه، وظهور الولى ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قدمناه، فلما لم يكن الظهور مطلبهم، وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم، تولاهم فى ذلك بتأييده وواردات مزيده لقوله ﷺ: يا عبد الرحمن بن سمرة لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت[١٤٥] إليها.

ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهورا ولا خفاء، بل إرادته وقف على اختيار سيده له.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبدا لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه.

ولنختم هذه المقدمة بذكر كرامات أولياء الله جوازا ووقوعا وأقسام ذلك على سبيل الاختصار، وكون هذا قد سبق إلى الكلام عليه بالإيعاب غيرنا قد أقام لنا الاعتذار، لكنا ننبه على نكت[١٤٦] مفيدة لأولى الألباب، ويكشف عن وجه حسنها ما أسدل عليه من نقاب، ليكون ذلك مهيئا لك لقبول ما نورده عن هذه الطائفة من الكرامات، وما نسنده إليهم من بواهر الآيات إن شاء الله تعالى.

---

(١٤٣) العلق: ١٤.
(١٤٤) فصلت: ٥٣.
(١٤٥) رواه مسلم.
(١٤٦) أى مسائل.

فصل فى الكلام على الكرامات

اعلم أن الكلام فى الكرامات ينحصر فى طرفين:

الطرف الأول: الجـــواز.

والثـــانى: الوقـوع.

أما الجواز فلا خفاء أن ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات؛ لأنه لو لم يكن من الممكنات، فإما أن يكون من الواجبات، وما أن يكون من المستحيلات، وباطل أن يكون من المستحيلات فإن المستحيل هو الذى لو قدر وجوده لزم منه محال عقلى، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلى، وباطل أن يكون جريان الكرامات على الأولياء وجوبا إذا الطائفة مجمعة على أنه قد يكون الولى وليًّا وإن لم تخرق العادة له.

فتعين أن يكون من الجائزات، وكل شىء كان من الجائزات لا يحيله العقل، وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله به أولياءه.

ثم إن هذه الكرامات قد تكون طيًّا للأرض، ومشيا على الماء، وطيرانا فى الهواء، واطلاعا على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة، وتكثيرًا لطعام أو شراب، أو إتيانا بثمرة فى غير إبانها، أو اتباع ماء من غير حفر، أو تسخير حيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر فى غير وقته، أو صبرا عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة أو إثمارا لشجرة يابسة ما ليس عادتها أن تكون مثمرة له، وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية.

وكرامات هى عند أهل الله أفضل منها وأجل وهى الكرامة المعنوية: كالمعرفة بالله، والخشية له، ودوام المراقبة له، والمسارعة لامتثال أمره ونهيه، والرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين، ودوام الثقة به، وصدق التوكل عليه، إلى غير ذلك.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

الطى على قسمين: طى أصغر وطى أكبر.

فالطى الأصغر لعامة هذه الطائفة أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها فى نفس واحد.

والطى الأكبر طى أوصاف النفوس.

وصدق رضى الله عنه فإن طى الأرض لو أعجزك الله عنه وأفقدك إياه ما نقص ذلك من رتبتك عنده إذا قمت له بالوفاء فى العبودية، وطى أوصاف النفوس لو لم تقدم عليه به لكنت من المعتوبين وحشرت فى زمرة الغافلين.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن

أعطيها ثم جعل يشتاق إلى غيرها فهو عبد مفتر كذاب وذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا، وكل كرامة لا يصحبها الرضا من الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور.

واعلم أن اطلاع أولياء الله على بعض الغيوب لا يحيله العقل وقد ورد به النقل.

قال أبو بكر لعائشة رضى الله عنها فى مرض موته وزوجته حامل: إنما هما أخواك وأختاك وبطن خارجة أراها جارية فأخبر بأن فى بطن امرأته جارية وكان كما قال رضى الله عنه.

وقال عمر رضى الله عنه: يا سارية الجبل، وسارية بأقصى العراق؛ فسمع سارية صوته وكان قد أطلعه الله على سارية وقد أحاط به العدو فأمره بالانحياز إلى الجبل فانحاز هو والجيش الذى كان معه فانتصروا وظفروا وكان قد قال ذلك وهو فى أثناء خطبته على المنبر فترك الخطبة، وقال يا سارية الجبل، وعاد إلى خطبته، فجاء بعض الصحابة إلى على رضى الله عنه فقالوا له: بينما عمر اليوم يخطب إذا ترك خطبته وقال: يا سارية الجبل، ثم عاد إلى خطبته، فقال على: ويحكم دعوا عمر فإنه ما دخل فى شىء إلا كان له المخرج منه، فبعد ذلك قدم سارية وأخبر عن ذلك اليوم أنه سمع نداء عمر فى الوقت الذى نادى فيه عمر(١٤٧).

وقول عثمان رضى الله عنه لداخل دخل عليه وكان قد نظر إلى محاسن امرأة فى الطريق: يدخل أحدكم وآثار الزنى بادية فى وجهه.

وأما على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد جاء عنه فى هذا الباب العجب العجاب حتى إنه ذكر الأخباريون عنه أنه أرجف بالكوفة أن معاوية قد مات فقال رضى الله عنه إذا بلغه ذلك: والله ما مات ولن يموت حتى يملك ما تحت قدمى هاتين، وإنما أراد ابن هند أن يشيع ذلك حتى يستثير علمى فيه، فمن يومئذ كاتب أهل الكوفة معاوية، وعلموا أن الأمر صائر إليه.

وحكايات الأولياء فى كل عصر ومصر تتضمن ثبوت ذلك بما بلغ حد التواتر فلا يمكن جحده.

ثم أنا أدلك - رحمك الله - على أمر يسهل عليك التصديق بذلك، وهو أن اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله ليس بجثمانيته ولا وجود صورته، وإنما هو بنور الحق فيه، دليل ذلك قوله ﷺ:

---

(١٤٧) يقول ابن خلدون فى هذا المقام:

(وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرية عن المقاصد المذمومةآووإنما يقصدون جمع الهمة، والإقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد، ويزيدون فى رياضتهم إلى الجمع، والجوع: التغذية بالذكر، فيها تتم وجهتهم فى هذه الرياضة، لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله، وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية، وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصرفة إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصودا من أول الأمر؛ لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله، وإنما هى لقصد التصرف والاطلاع على الغيب، وأخسر بها صفقة، فإنها فى الحقيقة شرك، قال بعضهم:

«ومن آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى» أى (فقد قال بأن الله له ثان - أى أشرك بالله) فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا شىء سواه، وإذا حصل فى أثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم.

وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد الله لذاته لا لغيره، وحصول ذلك لهم معروف، ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا. وما يقع لهم من التصرف كرامة، وليس شىء من ذلك بنكير فى حقهم، وقد ذهب =

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[١٤٨].

فكيف يستغرب أن يطلع مؤمن على غيب من غيوب الله بعد أن شهد له الرسول ﷺ أنه إنما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه؟

وكذلك قوله فى الحديث الذى تقدم.

فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به - الحديث إلى آخره.

ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب بمستغرب فيه.

وفى بعض طرق هذا الحديث: فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا وقلبًا وعقلاً ويدًا ومؤيّدًا.

فإن قلت: كيف تصنع بهذه الآية؛ وهى قوله سبحانه:

﴿عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدًا، إلاّ من ارتضى من رسول﴾[١٤٩].

فلم يستثن أحدًا إلا الرسول؟

فاعلم أنى سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: وفى معناه أو صدّيق أو ولىّ[١٥٠].

فإن قلت هذه زيادة على ما تضمنه الكتاب العزيز.

فاعلم أنه إذا قيل إن السلطان لم يأذن اليوم إلاّ للوزير وحده ربما دخل مماليك الوزير معه،

= إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحق الأسفراييني. وأبو محمد بن أبى زيد المالكى - فرارا من التباس المعجزة بغيرها، والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدى فهو كاف.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال:

«إن فيكم محدثين، وإن منهم عمر» (أى فيكم من يخبر بالأمر كأنه حدث به).

وقد وقع للصحابه من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك فى مثل قول عمر رضى الله عنه: يا سارية الجبل - وهو سارية بن زنيم، كان قائدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات، وتورط مع المشركين فى معترك، وهم بالانهزام، وكان بقربه جبل يتجهز إليه، فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه:

«يا سارية الجبل» وسمعه سارية وهو بمكانه، ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة.

ووقع مثله أيضا لأبى بكر - رضى الله عنه - فى وصيته عائشة ابنته رضى الله عنها فى شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديقته، ثم نبهها على جذاذه لتحوزه عن الورثة، فقال فى سياق كلامه... «وإنما هما أخواك وأختاك» فقالت: (إنما هى أسماء، فمن الأخرى)؟ فقال: «إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية) فكانت جارية، وقع فى الموطأ فى باب: «ما لا يجوز من النحل».

ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم، ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء إلا أن أهل التصوف يقولون: إنه يقل فى زمن النبوة، إذا لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبى حتى إنهم يقولون:

إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها.

والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق... أهـ. مقدمة ابن خلدون ٥٣٢/١ - ٥٣٥ مع تصريف يسير.

(١٤٨) رواه البخارى فى التاريخ والترمذى عن أبى سعيد والحكيم الترمذى، والطبرانى وابن عدى عن أبى أمامه، وابن جرير عن ابن عمر.. والفراسة بكسر الفاء دقة النظر، ووفور العلم بنور البصيرة.

(١٤٩) الجن: ٢٦، ٢٧.

(١٥٠) فى تفسير الألوسى لهذه الآيات.. ظاهر الآية أنه تعالى عالم كل غيب وحده لا يظهر على غيبه المختص به، وهو ما يتعلق بذاته تعالى وصفاته عزّ وجلّ بدلالة الإضافة: إلاّ رسولاً وهو كذلك، فإن غيبه تعالى لا يطلع عليه إلاّ بالإعلام من رسول ملكى أو بشرى، ولا كل غيبه تعالى الخاص مطلع عليه، بل بعضه وأقل القليل منه، فدلّ المفهوم على أن غير هذا النوع الخاص من الغيب لا منع من اطلاع الله تعالى غير الرسول عليه، فهذا اهر الآية دون تعسف.. إلخ.

وكان الإذن لمتبوعهم إذنًا لهم، كذلك الولىّ إذا أطلعه الله على غيب من غيوبه فإنما ذلك لانطوائه فى جاه النبوة، وقيامه بصدق المتابعة، فما رأى ذلك بنفسه وإنما رآه بنور متبوعه.

وأيضًا أن الآية تشير إلى نفى اطلاع العباد على غيب الله إلاّ من أطلعه الله.

وبيّن سبحانه سبب إطلاعه من أطلعه على غيب من غيوبه وأن ذلك إنما كان لأنه مرتضى عنده بقوله إلاّ من ارتضى.

وقوله من رسول خصّ الرسول بالذكر ولم يذكر النبىّ ولا الصديق ولا الولىّ وإن كان كل منهم ممن ارتضى؛ لأن الرسول أولى بذلك مما سواه.

أمور تسهل عليك الإيمان بكرامات أولياء الله وأن لا تستكثرها عليهم:

الأوّل: أن تعلم أن قدرة الله التى لا يكبر عليها شىء هى التى أظهرت الكرامة فى هذا الولىّ فلا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة السيد؛ فجحْد الكرامة للولىّ جحدٌ لقدرة القدير؛ وعَمىً منعك من شهود عظمة وصفه سبحانه وتعالى.

الثانى: أنه ربما كان سبب إنكار الكرامة استكثارها على ذلك العبد الذى أضيفت إليه؛ وذلك العبد إنما أظهرت الكرامة عليه شهادةً بصدق طريق متبوعة؛ فهى بالنسبة إلى من ظهرت عليه وهو ذلك الولىّ كرامة؛ وهى بالنسبة إلى من ظهرت ببركات متابعته معجزة؛ فلذلك قالوا:

كل كرامة لولىّ فهى معجزة لذلك النبى الذى هذا الولىّ مُتبّع له؛ فلا تنظر إلى التابع ولكن انظر إلى عظيم المتبوع.

الثالث: أن تعلم أن الذى أعطاه الله سبحانه لأوليائه من الإيمان واليقين مما أنت مصدّق به ومثبت له أعظم مما استغربته، وأنكرته، من اطلاع على غيب أو طيران فى الهواء، أو مشى على الماء؛ فمثلك إذا استغربت ذلك على المؤمن كمثل من يستغرب على عبدٍ من خواصّ الملك أعطاه الملك سفطًا(١٥١) مملوءًا ياقوتًا ثمينًا علمت أنت به؛ كل يا قوتة تضمّنها ذلك السفط تساوى عشرة آلاف دينار؛ ثم قال ذلك العبد الذى هو من خواص الملك أو قيل عنه: إن الملك قد أعطاه مائة دينار؛ فاستغربت أنت ذلك فهل يستصوبُ استغرابَك هذا ذو فهم ولبّ؟ وما أكرم الله تعالى العباد فى الدنيا والآخرة كرامةً بمثل كرامة الإيمان به والمعرفة بربوبيته؛ لأن كل خير من خيور الدنيا والآخرة إنما هو فرع الإيمان بالله من أحوال ومقامات، وأوراد وواردات، وكل نور وعلم وفتح، ونفوذ إلى غيب وسماع مخاطبة؛ وجريان كرامة؛ وما تضمنته الجنة من حور وقصور وأنهار وثمار، وكان به أهلها فيها من رضًى عن الله؛ ورضًى من الله؛ ورؤية لله: فكل ذلك إنما هو من نتائج الإيمان؛ ووجود آثاره وإمداد أنواره.

جعلنا الله وإياك من المؤمنين بربوبية الإيمان الذى رضيه لخاصة عباده؛ وبسطنا وإياك بالتسليم له فى مراده.

واعلم أن من الناس من واجهه الخذلان من الله فأنكر كرامات أولياء الله أصلاً، فنعوذ بالله من

(١٥١) سفطا: وعاء يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء مفتوح الأوّل والوسط.

هذا المذهب؛ وهو حقيق بأن لا يذكر؛ لكن سبب ذكره أن تعلم أن الله إذا أراد أن يضل عبدًا لم ينصره عقل ولم ينفعه[١٥٢] علم.

قال الله سبحانه: ﴿ومن يُرد الله فتنَته فلن تملِكَ له مِن الله شيئًا﴾[١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿فإن زَللتم من بعدِ ما جاءتكم البيناتُ فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾[١٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وهو يُجير ولا يُجار عليه﴾[١٥٥].

لذلك كانت الأحوال والأقوال، والأفعال ومراتب الإنزال موقوفة على توفيقه، لا توجب أنوارًا، ولا تستحق قبولاً، ولا يستوجب صاحبها إقبالاً حتى ينصره التوفيق، ولعزازة قدره عند الله لم يذكره فى كتابه العزيز إلّا فى موضع واحد، فقال سبحانه: ﴿وما توفيقى إلا بالله﴾[١٥٦]، والجالب للتوفيق وعلامته صدق الرجعَى إلى الله فى أوّل كل فعل وترك بتحقيق الفقر والفاقة إليه، والانغماس فى بحر الذِّلة والمسكنة بين يديه، واستصحاب ذلك إلى الفراغ ومن بعد ذلك أبدًا، وقد قال سبحانه:

﴿ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلة﴾[١٥٧].

وقال: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾[١٥٨].

فلا تدخل جنّة علمك وعملك وما أعطيت من نور وفتح، فتقول كما قال من خذل فأخبر الله عنه:

﴿ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه قال ما أظنُّ أن تبيد هذه أبدًا﴾[١٥٩] الآية.

ولكن ادخلها كما بيّن لك وقل كما رضى لك:

﴿ولوْلا إذ دخلتَ جنتك قلتَ ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله﴾[١٦٠].

وافهم ههنا قوله عليه السلام: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله كنز من كنوز الجنة» وفى روايةٍ: كنز من كنوز تحت العرش[١٦١].

فالترجمة[١٦٢] ظاهر الكنز والمكنوز فيها هو صدق التبرّى من الحوْل والقوة؛ والرجوع إلى حول الله وقوته.

---

(١٥٢) وفى ذلك يقول الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأوّل ما يجنى عليه اجتهاده

(١٥٣) المائدة: ٤١.

(١٥٤) البقرة: ٢٠٩.

(١٥٥) المؤمنون: ٨٨.

(١٥٦) هود: ٨٨.

(١٥٧) آل عمران: ١٢٣.

(١٥٨) التوبة: ٦٠.

(١٥٩) الكهف: ٣٥.

(١٦٠) الكهف: ٣٩.

(١٦١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه، ولفظه فيما روى الشيخان عن أبى موسى قال: قال لى رسول الله ﷺ: ألا أدّلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: لا حول ولا قوة إلّا بالله.

(١٦٢) أى اللفظ والكلام المنطوق به.

ومن أنكر كرامات أولياء الله فالدلائل النقلية والعقلية تردّ عليه، ويُخشى على من هذا مذهبه سوء الخاتمة.

ومن الناس فرقة أخرى صدقوا بكرامات الأولياء الذين ليسوا فى زمنهم كمعروف وسرى والجنيد وأشباههم وكذبوا بكرامات أولياء زمانهم، فهم كما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ما هى إلّا إسرائيلية صدّقوا بموسى وعيسى عليهما السلام وكذّبوا بمحمد ﷺ لأنهم أدركوا زمانه.

وفرقة أخرى يصدّقون بأن فى مملكة الله أولياء لهم كرامات من غير أن يسلموا ذلك لأحد من أهل زمانهم معينا، فكل من ذكر لهم أنه ولىّ أو نسبت إليه كرامة دافعوا إثبات ذلك بمقاييس اقتضتها عقولهم المعقولة بعقال الغفلة، المخدوعة بمتابعة الهوى، فلن يجرى عليهم هذا التصديق وجود الاقتداء ولا إشراق نور الاهتداء؛ إذ الاقتداء لا يكون بولىّ مجهول العين فى كون الله، بل الاقتداء إنما يكون بولىّ دلّك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته فى وجود خصوصيته، وألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك وكمائنها ودفائنها، ويدلّك على الجمع على الله، ويعلّمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك فى طريقك حتى تصل إلى الله، ويوقفك على إساءة نفسك، ويعرّفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه(١٦٣).

فإن قلت: فأين من هذا وصفه؟ لقد دللتنى على أغرب من عنقاء مغرب.

فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالّين، وإنما قد يعوزك وجود الصدق فى طلبهم، جد صدقًا تجد مرشدًا، وتجد ذلك فى آيتين من كتاب الله: قال الله سبحانه:

﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه﴾(١٦٤).

وقال سبحانه: ﴿فلو صدَقوا الله لكان خيرًا لهم﴾(١٦٥).

فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن للماء، والخائف للأمن؛ لوجدت ذلك

---

(١٦٣) يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدًا، يقول أبو يزيد البسطامى: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.

وقال أبو على الدقاق: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقه نفسًا فنفسًا، فهو عابد هواه لا يجد نفاذًا.

ويشترط الرازى فى الشيخ أن يكون مخلصًا صادقًا قد انتهج الصراط المستقيم وأن يكون سالكًا: أما السالك فلأن الوصول تارة بالجذبة: وقال تعالى: «الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب»، وأخرى بالسلوك.

والأوّل لا يصحّ أن يقتدى به لأنه مثل من وجد كنزًا غنيًّا، فإنه وإن كان ذا مال لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال. فلا ينفع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب، وأما الثانى فهو الذى يصلح لتربية المريد لأن من سلك الطريق، وعرف مراحلها ومنازلها، واطلع على متالفها ومعاطبها أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل.

(١٦٤) النمل: ٦٢.

(١٦٥) محمد: ٢١.

أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريبًا ولك مجيبًا، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك؛ ولتوجّه الحق بتبيين ذلك إليك؛ فهذا الكلام فى طريق الجواز والوقوع جميعًا.

وذكر أعيان الكرامات التى اتّفقت للسلف رضى الله عنهم لا يستطاع حصرها؛ وقد أشبع القول فيها الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى رسالته وأفرد له بابًا.

واعلم أن الكرامة تارةً تظهر للولىّ فى نفسه.

وتارةً تظهر فيه لغيره.

فإن ظهرت للولىّ فى نفسه فالمراد تعريفه بقدرة الله وفرديته وأحديّته؛ وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب؛ وأن العوائد هو حاكم عليها ليس هى حاكمة عليه.

وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته، وسحب شمس أحديته: فواقف عندها مخذول، ونافذ منها إليه هو بالعناية موصول.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية، بجمع لا يفترق، وأمر لا يتعدّد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد.

أيستوى من تعرّف الله إليه بنوره بمن تعرّف إلى الله بعقله!

ولأجل أنها تثبيت لمن أظهرت له ربما وجدها أهل البدايات فى بداياتهم وفقدها أرباب النهايات فى نهايتهم؛ إذ ما عليه أهل النهاية فى الرسوخ فى اليقين والقوّة والتمكين لا يحتاجون معه إلى مثبِّت، وهكذا كان السلف رضى الله عنهم لم يحوجهم الحق سبحانه إلى وجود الكرامات الحسّية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية، ولا يحتاج جبل إلى مرساة، فالكرامة دافعة لزلزلة الشك فى المنّة، ومعرفة بفضل الله فيمن أظهرت عليه، وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه.

والناس فى الكرامات على ثلاثة أقسام:

قوم يجعلونها غاية الأمر، فإن وجدوها عظموا من أظهرت عليه، وإن فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم إليه.

وقسم قالوا: وما هى الكرامات؟ إنما هى خدع يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا على حدودهم، وحتى لا يلجوا مقامًا ليس هو لهم، حتى قال أبو تراب النخشبى لأبى عباس الرِّقى: ما يقول أصحابك فى هذه الأمور التى يكرم الله بها عباده؟ فقال: ما رأيت أحدًا إلّا وهو يؤمن بها. فقال: من لم يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال.

فقلت: ما أعرف لهم قولًا.

فقال: بلى قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع فى حالة السكون إليها. فأما من لم يقترح ذلك ولم يساكنها فتلك مرتبة الربانيين.

وكان هذا من أبى تراب بعد أن عطش أصحابه فضرب بيده الأرض فنبع الماء.

فقال فتىً هنالك: أريد أن أشربه فى قدح.

فضرب بيده إلى الأرض فناوله قدحًا من زجاج أبيض فشرب وسقانا.

قال أبو العباس الرقى: وما زال القدح معنا إلى مكة.

والقول الفصل فى ذلك أنه لا ينبغى أن تطلب، أدبًا مع الله، ومن أظهرت عليه عُظِّم لأنها شاهدة له بالاستقامة مع الله.

القسم الثانى: وهو أن تظهر الكرامة فى الولىّ لغيره، فالمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذى شهدها بصحّة طريق هذا الولىّ الذى أظهرت عليه الكرامة: إما أن يكون جاحدًا فيرجع إلى الاعتراف، أو كافرًا فيعود إلى الإيمان، أو شاكًا فى خصوصية ذلك العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من ودائع الإحسان.

وقد انبسط الكلام فى هذه المقدمة، وما كان لنا باختيار، ولكن قد تضمنت علومًا وأسرارًا، وأَطْلَعَتْ على من له نصيب من المنّة مشرقات أنوار.

وهذا أوان ابتدائنا بما قصدنا، وإظهارنا ما إليه صمدنا[١٦٦]، والله هو القائم بالبيان، وهو ولىّ الفضل والإحسان، له الحمد كما يجب لجلاله، والشكر لتوالى نعمه وأفضاله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وأما الكتاب فهو ينقسم كما تقدم إلى عشرة أبواب:

---

(١٦٦) صمدنا: قصدنا.

الباب الأول

فى التعريف بشيخه الذى أخذ عنه هذا الشأن، وشهادة من عاصره من أهل زمنه من العلماء الأعيان، إنه قطب الزمان والحامل فى وقته لواء أهل العيان

وهو الشيخ الإمام حجّة الصوفية علَم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، والمنفرد فى زمانه بالمعارف السنّية والمفاخر، العالم بالله، والدالّ على الله، زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، والقطب الغوث الجامع: تقىّ الدين أبو الحسن علىّ بن عبدالله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصىّ بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه.

عرف بالشاذلى.

منشؤه بالمغرب الأقصى.

ومبدأ ظهوره بشاذلة: بلدة على القرب من تونس، وإليها نسب.

له السياحات الكثيرة، والمنازلات الجليلة، والعلوم الغزيرة، لم يدخل فى طريق الله حتى كان يعدّ للمناظرة فى العلوم الظاهرة، ذا علوم جمّة.

ذكره الشيخ صفى الدين بن أبى المنصور رضى الله عنه فى كتابه، وأثنى عليه الثناء الكبير.

وذكره الشيخ قطب الدين القسطلانى رضى الله عنه فى جملة من لقيه من المشايخ، وأثنى عليه.

وذكره الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضى الله عنه، وشهد له بالقطبانية.

وذكره الشيخ عبد الغفار بن نوح رضى الله عنه فى كتابه الوصيد، وأثنى عليه.

لم يختلف فى قطبانيته ذو قلب مستنير، ولا عارف بصير، جاء فى هذه الطريق بالعجب العجاب، وشرع من علم الحقيقة الأطناب[1]، ووسّع للسالكين الرحاب، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتى الإسلام تقىّ الدين محمد بن على القشيرى رحمه الله يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه.

وأخبرنى الشيخ العارف مكين الدين الأسمر رضى الله عنه قال:

(١) الأطناب: جمع طنَب وطنب هو حبل الخباء والسرادق ونحوهما، وما يشدّ به البيت من الحبال بين الأرض والطرائق.

حضرت بالمنصورة فى خيمة فيها الشيخ الإمام مفتى الأنام عزّ الدين بن عبد السلام، والشيخ مجد الدين بن تقى الدين على بن وهب القشيرى المدرس، والشيخ محيى الدين بن سراقة، والشيخ مجد الدين الأخميمى، والشيخ أبو الحسن الشاذلى، رضى الله عنهم: ورسالة القشيرى تقرأ عليهم، وهم يتكلمون ، والشيخ أبو الحسن صامت، إلى أن فرغ كلامهم فقالوا:

يا سيدى نريد أن نسمع منك.

فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه، وقد تكلمتم.

فقالوا: لابدّ أن نسمع منك.

قال: فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة.

فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال:

اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله(٢).

وأخبرنى الشيخ أبو عبد الله بن الحاج قال: أخبرنى الشيخ أبو زكرياء يحيى البلنسى قال: صحبت الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه ثم سافرت إلى الأندلس، فقال لى الشيخ أبو الحسن عند وداعى إياه: إذا وصلت إلى الأندلس فاجتمع بالشيخ أبى العباس بن مكنون فإن أبا العباس بن مكنون اطلع على الوجود، وعرف حيث هو، ولم يطلع الناس على أبى العباس فيعلمون حيث هو. قال: فلما جئت إلى الأندلس جئت إلى الشيخ أبى العباس بن مكنون فحين وقع بصره علىّ قال لى ولم يعرفنى قبل: جئت يا يحيى، جئت يا يحيى، الحمد لله على اجتماعك بقطب الزمان. يا يحيى، الذى أخبرك به الشيخ أبو الحسن لا تخبر به أحدًا.

أخبرنى رشيد الدين بن الرايس قال: تخاصمت أنا وبعض أصحاب المشايخ فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن فذكرت مقاولتنا له فقال الشيخ: كنت تقول له: أنا ربّانى القطب، ومن ربّاه القطب ربّته أربعون بدلًا(٣).

وأخبرنى والدى رحمه الله قال: دخلت على الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه فسمعته يقول: والله لقد تسألونى عن المسألة لا يكون عندى لها جواب فأرى الجواب مسطرًا فى الدواة والحصير والحائط.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى يومًا:

والله إنه لينزل على المدد فأرى سريانه فى الحوت فى الماء، والطائر فى الهواء. وكان الشيخ أمين الدين جبريل حاضرًا فقال للشيخ أبى الحسن: فأنت إذًا القطب، فأنت إذًا القطب. فقال الشيخ

---

(٢) أى أنه ليس علم كتب ولا دراسة، وإنما هو إلهامات وتجلّيات من الحق سبحانه فى جانب المعرفة، والله سبحانه وتعالى يقول عن عبد من عباده: ﴿وعلّمناه من لدنا علمًا﴾.

(٣) ورد فى السُّنة المطهرة أحاديث صحيحة وحسنة عن الأبدال نذكر منها قوله ﷺ: «الأبدال فى هذه الأمة ثلاثون رجلًا، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلًا» رواه الإمام أحمد: «الأبدال فى أمّتى ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون» رواه الإمام أحمد.

«الأبدل فى أهل الشام، وبهم ينصرون، وبهم يرزقون» رواه الطبرانى عن عوف بن مالك. ورمز له السيوطى بالحسن.

أبو الحسن: أنا عبدالله، أنا عبدالله.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى: والله ما وَلَّى اللّٰهُ وليًّا إلاّ وضع حبّه فى قلبى قبل أن يولّيه، ولا رفض عبدًا إلاّ وألقى بغضه فى قلبى قبل أن يرفضه.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: لما رجع الشيخ أبو الحسن من الحج أتى إلى الشيخ الإمام عزّ الدين بن عبد السلام قبل أن يأتى منزله فقال له: الرسول ﷺ يسلم عليك. قال: فاستصغر الشيخ عزَ الدين نفسه أن يكون أهلاً لذلك، قال: فدعا الشيخ عز الدين إلى خانقات الصوفية بالقاهرة وحضر معه محيى الدين بن سراقة وأبو العلم ياسين أحد أصحاب الشيخ العارف بالله محيى الدين بن عربى، فقال الشيخ محيى الدين بن سراقة للشيخ عز الدين: ليهنكم ما سمعنا يا سيدى، والله إن هذا لشىء يفرح به أن يكون فى هذا الزمان من يسلم عليه رسول الله ﷺ، فقال الشيخ عز الدين: الله يسترنا. فقال الشيخ أبو العلم ياسين: اللهم افضحنا حتى يتبيّن المحقّ من المبطل. ثم أشاروا للقوّال أن يقول وهو من البعد بحيث لا يسمع ما دار بينهم فكان أول ما قال:

صدق المحدّث والحديث كما جرى وحديث أهل الحق ما لا يفترى

فقام الشيخ عز الدين وطاب وقته وقام الجميع لقيامه.

وأخبرنى الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه قال: سمعت مخاطبة الحق فقلت له: يا سيدى كيف كان ذلك؟ فقال: كان فى الإسكندرية بعض الصالحين صحب الشيخ أبا الحسن ثم كثر عليه ما سمعه منه من العلوم الجليلة والمخرقات فلم يسع ذلك عقله، فانقطع عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه، فإذا ليلة من الليالى وأنا أسمع أن فلانًا دعانا فى هذا الوقت بستّ دعوات فإن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلى دعانا بكذا دعانا بكذا حتى عيّنت لى الستّ دعوات، قال: ثم انفصل الخطاب عنى، فنظرت إلى المتوسط فى ذلك الوقت فعرفت الوقت الذى كان ذلك الرجل دعا فيه، ثم أصبحت فذهبت إلى ذلك الرجل فقلت له: دعوت الله البارحة بست دعوات دعوته بكذا، دعوته بكذا، إلى أن عددت له الست دعوات فقال: نعم. فقلت له: أتريد أن يستجاب لك؟ قال: ومن لى بذلك؟ فقلت له: قيل لى: إن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلى.

وسمعت شيخنا أبا العباس يقول. كان الشيخ قد قال لى:

إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تسأل من أحد شيئًا، فمكثت على ذلك سنة ثم قال لى:

إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تقبل من أحد شيئًا، فكان إذا اشتدّ الوقت علىّ أخرج إلى ساحل بحر الإسكندرية ألتقط ما يرميه البحر بالساحل من القمح حين يرفع من المراكب، فأنا يومًا على ذلك وإذا عبد القادر النقاد – وكان من أولياء الله – يفعل كفعلى، فقال لى:

أطلعت البارحة على مقام الشيخ أبى الحسن.

فقلت له: وأين مقام الشيخ؟

فقال: عند العرش.

فقلت له: ذاك مقام تنزل لك الشيخ فيه حتى رأيته.

ثم دخلت أنا وهو على الشيخ، فلما استقر بنا المجلس قال الشيخ رضى الله عنه:
رأيت البارحة عبد القادر النقاد فى المنام فقال لى:
أعرشي أنت أم كرسى؟
فقلت له:
دع عنك ذا.
الطينة أرضية.
والنفس سماوية.
والقلب عرشى.
والروح كرسى.
والسرّ مع الله بلا أين.
والأمر يتنزل فيما بين ذلك ويتلوه الشاهد منه.

وقدم بعض الدّالّين على الله إلى الإسكندرية فقال الشيخ مكين الدين الأسمر: هذا الرجل يدعو الناس إلى باب الله وكان الشيخ أبو الحسن يدخلهم على الله.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت مع الشيخ أبى الحسن بالقيروان.
وكان شهر رمضان.
وكانت ليلة جمعة.
وكانت ليلة سبع وعشرين.
فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه.

فلما دخل الجامع، وأحرم، رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل، فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ:

ما كانت البارحة إلاّ ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر، ورأيت الرسول ﷺ وهو يقول:
يا علىّ طهر ثيابك من الدنس، تحظ بمدد الله فى كل نفس.
قلت: يا رسول الله: وما ثيابى؟
قال: اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع:
خلعة المحبة.
وخلعة المعرفة.
وخلعة التوحيد.
وخلعة الإيمان.
وخلعة الإسلام.
فمن أحب الله هان عليه كل شىء.
ومن عرف الله صغر لديه كل شىء.
ومن وحد الله لم يشرك به شيئا.

ومن آمن بالله أمن من كل شيء.
ومن أسلم لله ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره.
ففهمت حينئذ معنى قوله عزّ وجل: (وثيابك فطهّر).
وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه:

جلْت فى ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقًا بساق العرش وهو رجل أشقر أزرق العينين، فقلت له: ما علومك وما مقامك؟ فقال: أما علومى فأحد وسبعون علمًا، وأما مقامى فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال، قلت له: فما تقول فى شيخى أبى الحسن الشاذلى؟ قال: زائد علىّ بأربعين علمًا، هو البحر الذى لا يحاط به.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قيل للشيخ أبى الحسن: من هو شيخك يا سيدى؟ فقال:

كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسبُ لأحد، بل أعوم فى عشرة أبحر: خمسة من الآدميين النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ، وخمسة من الروحانيين جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأكبر.

وأخبرنى ولده سيدنا ومولانا الإمام العارف شهاب الدين أحمد قال: قال الشيخ عند موته: والله لقد جئت فى هذا الطريق بما لم يأت به أحد.

ومن الأمر المشهور أنه لما دفن بحميثرا وغسل من مائها كثر الماء بعد ذلك وعذب حتى صار يكفى الركب إذا نزل عليه ولم يكن قبل ذلك كذلك.

وكتب إلىّ الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضى الله عنه أبياتًا يوصينى فيها بالشيخ أبى العباس رضى الله عنه:

عطاء إله العرش فى الثغر أحمد　　سررت به فى الصحب فالله أحمد

ثم يقول فى الشيخ أبى العباس رضى الله عنه:

ووارث علم الشاذلى حقيقة　　وذلك قطب فاعلموه وأوحد
رأيت له بعد الممات عجائبا　　تدلّ على من كان للفتح يجحد

فالذى عنى الشيخ أبو عبد الله بقوله: «رأيت له بعد الممات عجائبا» أن الماء حلا فوق ما كان وكثر لما غسل منه.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قال الشيخ: قيل لى:

ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام.
ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم.
ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: لما نزلت بتونس حين أتيت من «مرسية» وأنا إذ ذاك شاب فسمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه:

فقال لى رجل: تمضى بنا إليه؟

قلت: حتى أستخير الله، فنمت تلك الليلة، فرأيت كأنى أصعد إلى رأس جبل، فلما علوت فوقه رأيت هنالك رجلاً عليه برنس أخضر وهو جالس، وعن يمينه رجل، وعن يساره رجل، فنظرت إليه فقال لى:

عثرت على خليفة الزمان.

قال: فانتبهت، فلما كان بعد صلاة الصبح، أتانى الرجل الذى دعانى إلى زيارة الشيخ فسرت معه.

فلما دخلنا على الشيخ رأيته على الصفة التى رأيته فوق الجبل، قال: فدهشت، فقال لى:

عثرت على خليفة الزمان. ما اسمك؟

فذكرت له اسمى ونسبى.

فقال لى: رفعت إلى منذ عشرة أعوام.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: لما قدمنا من المغرب إلى الإسكندرية نزلنا عند عمود السوارى من ظاهرها، وكان وصولنا عند اصفرار الشمس، وكانت بنا فاقة وجوع شديد، فبعث لنا رجل من عدول الإسكندرية طعامًا، فلما قيل للشيخ عنه قال: لا يأكل أحد منه شيئًا، فبتنا على ما نحن عليه من الجوع، فلما كان عند الصبح صلّى بنا الشيخ وقال: مدّوا السماط وأحضروا ذلك الطعام. ففعلنا وتقدمنا فأكلنا، فقال الشيخ رضى الله عنه: رأيت فى المنام قائلاً يقول لى: أحلُّ الحلال ما لم يخطر لك على بال، ولا سألت فيه أحدًا من النساء والرجال.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت ليلة من الليالى نائمًا بالإسكندرية وإذا قائل يقول: مكة والمدينة!

فلما أصبحت عزمت على السفر.

وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه بالمقسم بالقاهرة، فسافرت إليه، فلما مثلت بين يديه قال لى:

مكة والمدينة.

فقلت: لأجل ذلك جئت يا سيدى.

قال: اجلس. فجلست، وإذا رجل داخل عليه وقال:

يا سيدى عزمت على الحج، وما معى شىء من الدنيا.

فقال لى الشيخ: أى شىء معك؟

قلت: عشرة دنانير.

قال: ادفعها لهذا الرجل. فدفعتها له.

فقال لى الشيخ: إذا كان غدًا أخرج إلى الساحل واشتر لى عشرين أردب قمح.

فأصبحت ونزلت إلى الساحل واشتريت عشرين أردبًا قمحًا وحملته إلى المخزن وأتيت إلى الشيخ فقال لى:

هذا القمح قيل لى أنه مسوس ما نأخذ منه شيئًا.

فبقيت متحيرًا لا أدرى كيف أصنع فبقيت ثلاثة أيام لا يطالبنى صاحب القمح بالثمن فلما كان اليوم الرابع وإذا رجل يطوف علىّ فلما رآنى قال:

أنت صاحب القمح؟

قلت: نعم.

قال: تأخذ فيه فائدة ألف درهم؟

قلت: نعم.

قال: فوزن لى ألف درهم فوضع الله البركة فيها فلو قلت إنى أنفق منها إلى اليوم لصدقت.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه:

سافرنا مع الشيخ رضى الله عنه فى السنة التى توفى فيها، فلما كنا عند أخميم قال لى الشيخ:

رأيت البارحة كأنى فى جلبة وأنا فى البحر، والرياح قد اختلفت، والأمواج قد تلاطمت، والمركب قد انفتح، وأشرفنا على الغرق، فأتيت إلى جانب المركب، وقلت: أيها البحر، إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لى فالمنّة لله السميع العليم، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

فلما سافرنا، وتوفى الشيخ رضى الله عنه ودفنّاه بحميثرا من صحراء عيذاب وكنا فى جلبة، فلما صرنا فى وسط البحر، اختلفت الأمواج، وتلاطمت الرياح، وانفتح المركب وأشرفنا على الغرق، ونسيت كلام الشيخ، فلما اشتدّ الأمر ذكرت ذلك فأتيت إلى جانب المركب وقلت:

أيها البحر إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لأولياء الله فالمنّة لله السميع العليم، ما قلت كما قال الشيخ بالسمع والطاعة لى، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

وسكن البحر وطاب السفر.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت مع الشيخ فى بحر عيذاب وكنّا فى شدّة من الريح الأزيب[٤]، وكان المركب قد انفتح، فقال الشيخ: رأيت السماء قد فتحت ونزل منها ملكان، أحدهما يقول: موسى أعلم من الخضر، والآخر يقول: الخضر أعلم من موسى. ونزل ملك آخر وهو يقول: والله ما علم الخضر فى علم موسى إلاّ كعلم الهدهد فى علم سليمان حين قال: ﴿أحطتُ بما لم تُحط به﴾[٥]، ففهمت أن الله سلمنا فى سفرنا فإن موسى سخر له البحر[٦].

---

(٤) الأزيب: الشديد. (٥) النمل: ٢٢.

(٦) حيث انفلق البحر معجزة وكرامةً لموسى ومن آمن معه حينما فرّوا هاربين من فرعون وقومه الذين تبعوهم. قال تعالى: ﴿فأتبعوهم مشرقين، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون قال: كلّا إنّ معىَ ربى سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلُ فِرق كالطوْد العظيم..﴾ (الشعراء: ٦٠ – ٦٣).

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: قال رجل للشيخ: ما تقول فى الخضر أحى هو أم ميت؟ فقال الشيخ رضى الله عنه: اذهب إلى الفقيه ناصر الدين بن الأبيارى فإنه يفتى أنه حىّ وأنه نّبى والشيخ عبد المعطى لقيه. وسكت ساعة، وقال؛ أنا لقيته وسبابته ووسطاه سواء.

وأعلم أن بقاء الخضر قد أجمع عليه هذه الطائفة وتواتر عن أولياء كل عصر لقاؤه والأخذ عنه واشتهر ذلك إلى أن بلغ الأمر إلى حدّ التواتر الذى لا يمكن جحده، والحكايات فى ذلك كثيرة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لقيت الخضر فى صحراء عيذاب فقال لى: يا أبا الحسن أصحبك الله اللطف الجميل، وكان لك صاحبًا فى المقام والرحيل.

وذكر الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه أن أبا السعود بن الشبل كان يومًا فى مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلانى رضى الله عنه يكنس فيها، فوقف الخضر على رأسه وقال: السلام عليكم. فرفع أبو السعود رأسه وقال؛ وعليكم السلام. ثم عاد إلى شغله بما هو فيه، فقال له الخضر: ما بالك لم تهتبل بى كأنك لم تعرفنى فقال أبو السعود: بلى قد عرفتك، أنت الخضر. فقال له الخضر: فما بالك لم تهتبل[٧] بى؟ قال: فقال له أبو السعود – والتفت إلىّ: الشيخ عبد القادر الكيلانى لم يترك فى هذا الشيخ فضلة لغيره.

وقال الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه مخبرًا عن نفسه كنت أنا وصاحب لى بالمغرب الأقصى بساحل البحر المحيط وهناك مسجد يأوى إليه الأبدال، فرأيت أنا وصاحبى رجلًا قد وضع حصيرًا فى الهواء على مقدار أربعة أذرع من الأرض وصلى عليها فجئت أنا وصاحبى ووقفت تحته وقلت:

شغل المحب عن الحبيب بسره ... فى حب من خلق الهواء وسخّره
العارفون عقولهم معقولة ... عن كل كون ترتضيه مطّهره
فهم لديه مكرمون وعنده ... أسرارهم محفوظة ومحرّره[٨]

قال: فأوجز فى صلاته وقال: إنما فعلت هذا لهذا المنكِر الذى معك وأنا أبو العباس الخضر، ولم أكن أعلم أن صاحبى ينكر كرامات الأولياء فالتفتُ إلى صاحبى وقلت: يا فلان أكنت تنكر كرامات الأولياء؟ قال: نعم. قلت: فما تقول الآن؟

قال: فما بعد العيان ما يقال، وقال الشيخ عبد المعطى الإسكندرانى لتلميذه عند موته: خذ هذه الجّبة فطال ما عانقت فيها الخضر.

وقالت زوجة القرشى رضى الله عنه: خرجت من عند الشيخ ولم أترك عنده أحدًا فسمعت عنده رجلًا يكلّمه، فوقفت حتى انقطع كلامه ثم دخلت فقلت: يا سيدى! خرجتُ وما كان عندك

---

(٧) يعنى: لم لم تهتم بى وتغتنم فرصة وجودى.

(٨) معنى كلام ابن عربى رضى الله عنه: أن العارف لا يهتم بخوارق العادات، فإنها فى الكون ومن الكون. واهتمام العارف كل اهتمامه – أن يكون سرّه مع الله وسعادته – كل سعادته – أن يكون مع المكون، وكأن ابن عربى بشعره هذا ينتقد هذا الذى يرتفع فى الهواء، ولكن هذا الذى يرتفع فى الهواء لم يكن يفعل ذلك هوًى فى نفسه؛ ولذلك علّل فعله تعليلًا أرضى ابن عربى.

أحد والآن سمعت كلامًا عندك. فقال الشيخ: الخضر أتانى بزيتونة من أرض نجد فقال لى: كل هذه الزيتونة ففيها شفاؤك.

فقلت له: اذهب أنت وزيتونتك لا حاجة لى بها.

وكان الشيخ به داء الجذام.

وقد جاء أنه لما توفى رسول الله ﷺ سمعوا قائلاً يقول من جوف البيت، يسمعون صوته ولا يرون شخصه: إن فى الله خلفًا من كل هالك، وعوضًا من كل فائت، وإن المصاب من حرم الثواب. قال الراوى. كانوا يرون أنه الخضر(٩).

واعلم رحمك الله أن من أنكر وجود الخضر فقد غلط.

أو من قال إنه غير خضر موسى.

أو من قال لكل زمان خضر وأن الخضرية رتبة يقوم بها رجل فى كل زمان.

والمنكر لوجود الخضر معترف على نفسه بأن منّة الله بلقاء الخضر لم تواجهه وليته إذ فاته الوصول إليها لا يفوته الإيمان بها.

ولا تغتر بما عساك أن تقف عليه من كلام أبى الفرج بن الجوزى فى كتاب سماه: «عجالة المنتظر فى شرح حال الخضر» أنكر فيه وجود الخضر وقال؛ من قال إنه موجود فإنما ذلك لهواجس ووساوس وهوس قام به واستدلّ على عدم وجوده بقوله سبحانه:

﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلِكَ الخلد﴾(١٠).

فعجب لهذا الرجل كيف استدلّ بهذه الآية ولا دليل فيها؛ لأن الخلد هو بقاء لا موت بعده، وليس هو المدّعَى فى الخضر، إنما المدعى فى الخضر طول إقامة يكون الموت بعدها.

فاعجبوا رحمكم الله لرجل يصدّق بطول بقاء إبليس وينكر طول بقاء الخضر.

---

(٩) قال الحافظ البيهقى: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفقيه، حدثنا شافع بن محمد، حدثنا أبو جعفر بن سلامة الطحاوى، حدثنا المزّى، حدثنا الشافعى، عن القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص عن جعفر بن محمد عن أبيه – الحديث بطوله – وفيه:

فلما توفى النبى ﷺ وجاءت التعزية سمعوا صوتًا من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن فى الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركًا من كل فائت، فبالله ثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب، فقال على رضى الله عنه: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السلام.

وهذا الحديث مرسل وفى إسناده ضعف بحال القاسم العمرى هذا، فإنه قد ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه بالكلّية آخرون. ورواه الربيع عن الشافعى عن القاسم عن جعفر عن أبيه عن جده، وفى الإسناد العمرى المذكور.

وروى البيهقى عن الحاكم عن أبى جعفر البغدادى حدثنا عبد الله بن الحارثّ أو عبد الرحمن بن المرتعد الصغانى، حدثنا أبو الوليد المخزومى، حدثنا أنس بن عياض عن جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله قال: لما توفى رسول الله ﷺ ناداهم منادٍ، يسمعون الحسّ ولا يرون الشخص فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. إن فى الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفًا من كل فائت، ودركًا من كل هالك، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المحروم من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم قال البيهقى: هذان الإسنادان وإن كانا ضعيفين فأحدهما يتأكد بالآخر، ويدلّ على أن له أصلاً من حديث جعفر.. والله أعلم.
(سيرة ابن كثير)

(١٠) الأنبياء: ٣٤.

وما يروونه عن رسول الله ﷺ: لو كان الخضر حيًّا لزارنى فلم يثبته أهل الحديث.

فإن قالوا: لو كان ذلك لنقل.

فاعلم أنه ليس كل شىء أطلع الله عليه رسوله ﷺ يلزمه الإعلام به.

كيف، وقد روى عنه ﷺ أنه قال: علّمنى ربى ثلاثة علوم: علم أمرنى بإفشائه، وعلم نهانى عن إفشائه، وعلم خيّرنى فى إفشائه.

وقال بعض عارفين: إن الله سبحانه أطلع الخضر على أرواح الأولياء فسأل ربه أن يبقيه فى دائرة الشهادة حتى يراهم شهادةً كما رآهم غيبًا.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت مع الشيخ فى سفر ونحن قاصدون إلى الإسكندرية حين مجيئنا من المغرب، فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فلما أحسّ بى قال: أحمد قلت: نعم يا سيدى قال: آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم خمسمائة عام[١١] ثم نزل به إلى الأرض، والله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله: ﴿إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفةً﴾[١٢] ما قال فى الجنة ولا فى السماء فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة، وأنت أيضًا لك قسط من آدم: كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة المعارف فأنزلت إلى الأرض النفس لتعبده بالتكليف، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة.

وأخبرنى بعض أصحاب الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه قال: قال الشيخ ليلة: اجتمع بى الشريف البونى، وشرف الدين بن المجلى وأخبرانى أنهما دخلا على امرأة بغربى الإسكندرية، قالا: فقالت لنا: أريانى أيديكما فشمّت أيدينا، وقالت: أخوان صالحان، ثم قالت: انتهيت فى المعرفة إلى مقام الحيرة. فقلت: إلٰهى بم يخرج العارفون من الحيرة؟ فقيل لى: بالتوحيد، فهل فيكم من يعرف هذا التوحيد الذى يخرج به العارفون من الحيرة؟ قالا: فقلنا لها: إنما جئنا لنلتمس بركتك. قال: ثم قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: ألا دلّوها على من ضيّق عليه، ألا دلّوها على من ضُيق عليه؟ ثم توجه إلى جهتها وقال: التوحيد الذى يخرج به العارفون من الحيرة لا إلٰه إلاّ هو، يخرج العارفون من الحيرة بلا إلٰه إلاّ هو، فأصبح بعض أصحاب الشيخ فذهب إليها فوجدها وهى تقول: استغنيت استغنيت، فعلمنا أن الشيخ أمدّها فى تلك الساعة.

وأخبرنى بعض أصحاب الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه قال: دخل علىَ الشيخ أبى الحسن عبدُ القادر النقاد فقال له الشيخ: يا عبد القادر أيعصى الولىّ؟ فقال عبد القادر: أى والله الذى لا إلٰه إلاّ هو وهو يطالع عين الحقيقة. فقال الشيخ أبو الحسن؛ أشهد أنك ولىّ الله.

(١١) يقول الله تعالى: ﴿وإنّ يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾.
(١٢) البقرة: ٣٠.

وقال الشيخ أبو الحسن: كنت فى بعض سياحاتى قد أويت إلى مغارة بالمغرب من مدينة للمسلمين فمكثت ثلاثة أيام لم أذق طعامًا فبعد الثلاثة الأيام دخل علىّ ناسٌ من الروم كانت قد أرست سفينتهم هناك فلما رأونى قالوا: قسيس من المسلمين. ووضعوا عندى طعامًا وإدامًا كثيرًا، فعجبت كيف رُزقت على أيدى الكافرين ومُنعت ذلك من المسلمين، فإذا قائل يقول لى: ليس الرجل من نصر بأحيائه إنما الرجل من نصر بأعدائه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: نمت ليلةً فى سياحتى على راية من الأرض فجاءت السباع فطافت بى وأقامت إلى الصباح، فما وجدت أنسًا كأنس وجدته فى تلك الليلة فلما أصبحت خطر لى أنه قد حصل لى من مقام الأنس بالله شىء، فهبطت واديًا، وكان هنالك طيور حَجَل لم أرها، فلما أحسّت بى طارت بمرة فخفق قلبى رعبًا فإذا قائل يقول لى: أيا من كان البارحة يأنس بالسباع، مالك توجل من خفقان الحجل[١٣]، ولكنك البارحة بنا والآن أنت بنفسك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه؛ قلت يوما وأنا فى مغارة فى سياحتى:

إلٰهى متى أكون لك عبدًا شكورًا،؟ فإذا قائل يقول لى:

إذا لم تر منعما عليه غيرك.

فقلت: إلٰهى كيف لا أرى منعمًا عليه غيرى وقد أنعمت على الأنبياء، قد أنعمت على العلماء، وقد أنعمت على الملوك؟ فإذا قائل يقول لى:

لولا الأنبياء لما اهتديت.

ولولا العلماء لما اقتديت.

ولولا الملوك لما أمنت، فالكل نعمة منى عليك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: جعت مرة ثمانين يوما فخطر لى أن قد حصل لى من هذا الأمر شىء، وإذا بامرأة خارجة من مغارة ووجهها كأنه الشمس حسنا وهى تقول منحوس منحوس، جاع ثمانين يوما فأخذ يدل على الله بعمله، وها أنا لى ستة أشهر لم أذق طعاما.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت فى سياحتى فى مبدأ أمرى حصل لى تردد: هل ألزم البرارى والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار، أو أرجع إلى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخيار؟ فوصف لى ولى هناك، وكان برأس جبل فصعدت إليه، فما وصلت إليه إلا ليلا. فقلت فى نفسى: لا أدخل عليه فى هذا الوقت. فسمعته يقول من داخل المغارة؛ اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإنى أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجئى إلا إليك. قال: فالتفت إلى نفسى وقلت: يا نفس انظرى من أى بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبحت دخلت إليه فأرعبت من هيبته.

فقلت له:

يا سيدى كيف حالك؟

---

(١٣) الحجل: بفتحتين: إناث اليعاقيب، واليعاقيب ذكورها.

فقال: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار.

فقلت؛ يا سيدى أما شكواى من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا؟

فقال: أخاف أن تشغلنى حلاوتها عن الله.

قلت: ياسيدى سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك، فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإنى أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجئى إلا إليك، فتبسم ثم قال:

يا بنى، عوض ما تقول: سخر لى خلقك، قل: يارب كن لى، أترى إذا كان لك أيفوتك شيء؟ فما هذه الجناية.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت أنا وصاحب لى قد أوينا إلى مغارة نطلب الوصول إلى الله فكنا نقول غدا يفتح لنا، بعد غد يفتح لنا، فدخل علينا رجل له هيبة فقلنا له: من أنت؟ فقال: أنا عبد الملك، فعلمنا أنه من أولياء الله، فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من يقول غدا يفتح لى بعد غد يفتح لى؟ فلا ولاية ولا فلاح، يا نفس، لم لا تعبدين الله لله؟ قال فتفطنا من أين دخل علينا فتبنا إلى الله واستغفرنا ففتح لنا.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت يوما بين يدى الأستاذ فقلت فى نفسى: ليت شعرى هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم؟ فقال ولد الشيخ وهو فى آخر المكان الذى أنا فيه: يا أبا الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم الأعظم، إنما الشأن من يكون هو عين الاسم، فقال الشيخ من صدر المكان: أصاب وتفرس فيك ولدى.

وقيل للشيخ أبى الحسن رضى الله عنه: لم لا تسمع السماع؟ فقال: السماع من الخلق جفاء.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: استشفع طالب بالشيخ أبى الحسن إلى القاضى تاج الدين بن بنت الأعز أن يزاد على مُرتبه عشرة دراهم، فذهب الشيخ إليه، فأكبر القاضى تاج الدين مجىء الشيخ وقال ياسيدى فيم جئت؟

قال: من أجل فلان الطالب لنزيده فى مرتبة عشرة دراهم.

قال: فقال له القاضى تاج الدين؛ يا سيدى هذا له فى المكان الفلانى كذا، وله فى المكان الفلانى كذا، وفى موضع كذا وكذا.

قال: فقال له الشيخ أبو الحسن: يا تاج الدين، لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها فإن الله لم يقنع بالجنة للمؤمن جزاء حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم فيها.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه سمعت الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة»[١٤].

---

(١٤) أخرجه مسلم وأبو داود.

فأشكل على معناه، فرأيت رسول الله ﷺ وهو يقول لى: يا مبارك ذاك غين الأنوار لا غين الأغيار.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: سمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ: «من سكن خوف الفقر قلبه قل ما يرفع[١٥] له عمل»، فمكثت سنة أظن أنه لا يرفع لى عمل أقول: ومن يسلم من هذا؟ فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام وهو يقول لى: «يا مبارك أهلكت نفسك، فرق بين خطر وسكن».

وقال رضى الله عنه: رأيت الصديق فى المنام فقال لى: أتدرى ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قال: قلت: لا أدرى. قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال رضى الله عنه: استنار قلبى يوما فكنت أشهد ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، فوقعت منى هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فتعجبت كيف حجبنى هذا الأمر الصغير عن هذا الأمر الكبير، فإذا قائل يقول لى: البصيرة كالبصر أدنى شىء يحل فيها يعطل النظر.

ولنقبض عنان المقال لئلا نخرج عن غرض الكتاب، وإلا فكلام الشيخ رضى الله عنه أشهر من أن ننبه عليه، وأكثر ما ذكرته هنا لا يوجد فى الكلام المنسوب إليه، وقد مضى من كلامه فى المقدمة، وسيأتى فى أثناء الكتاب إن الله[١٦]، وحسبك من كلامه ما ذكره من كرامات القطب، وما ذكره من طريق الخصوص والعموم، والعلوم والحقائق والأسرار، وحلاوة اللفظ ووجازته، مع الاشتمال على المعانى الكثيرة، والهيبة التى تجدها عند ذكرك كلامه أو سماعك إياه، قل أن نجد ذلك فى شىء من كلام أهل الطريق.

أما ما قال فى كرامات القطب فقال رضى الله عنه: للقطب خمس عشرة كرامةفمن ادعاها أو شيئا منها فليبرز بمدد الرحمة والعصمة والخلافة والنيابة ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الوجودين، وانفصال الأول عن الأول، وما انفصل عنه إلى منتهاه، ومن ثبت فيه، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء وهو العلم المحيط بكل علم ولكل معلوم بدءا من السر الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه. فهذا معيار أعطاه الله الشيخ يختبر به من ادعى هذه الرتبة العظيمة القائمة بكفالة الأسرار، والمحيطة بمدد الأنوار.

وهذا نحو ما ذكره العارف بالله أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى كتاب ختم الأولياء له: إن من ادعى الولاية فيقال له: صف لنا منازل الأولياء فذكر مسائل معيارا على من ادعى الولاية[١٧].

---

(١٥) ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ضمن الرزق وأقسم على ذلك فقال تعالى: ﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾.

(١٦) انظر سيرة الإمام الشاذلى - رضى الله عنه - بالتفصيل فى كتابنا الذى كتبناه عنه - نشر دار الكتب الحديثة.

(١٧) كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذى، وهو من الكتب التى أثارت اهتمام الكثيرين فى عالم الفكر الإسلامى، واهتم به اهتماما كثيرا الإمام محيى الدين بن عربى وتحدث عنه أكثر من مرة - وقد طبع هذا الكتاب حديثا فى بيروت.

ولقد أخبرنى الشيخ مكين الدين الأسمر قال: مكثت أربعين سنة يشكل على الأمر فى طريق القوم، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل عنى إشكاله، حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال كل شىء أشكل على.

ولما قدم الشيخ صدر الدين القونوى إلى ديار مصر رسولا اجتمع بالشيخ أبى الحسن، وتكلم بحضرته بعلوم كثيرة، والشيخ مطرق إلى أن استوفى الشيخ صدر الدين كلامه، فرفع الشيخ أبو الحسن رأسه وقال: أخبرونى أين قطب الزمان اليوم، ومن هو صديقه وما علومه؟

قال: فسكت الشيخ صدر الدين ولم يرد جوابا.

وطريقه رضى الله عنه طريق الغنى الأكبر، والتوصيل العظيم، حتى أنه كان يقول: ليس الشيخ من دلك على تعبك، إنما الشيخ من دلك على راحتك.

ونشأ على يده رضى الله عنه رجال.

منهم من أقام بالمغرب كأبى الحسن الصقلى وكان من أكابر الصديقين، وعبد الله الجيبى وكان من أكابر أولياء الله.

ومنهم من أتى معه وهاجر إلى ديار مصر منهم سيدنا ومولانا حجة الصوفية علم أهل الخصوصية شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصارى المرسى رضى الله عنه.

ومنهم الحاج محمد القرطبى وأبو الحسن البجاوى وأبو عبد الله البجائى والوجهانى والخراز.

ومنهم من صحبه بديار مصر منهم الشيخ مكين الدين الأسمر والشيخ عبد الحكيم، والشيخ الشريف البونى، والشيخ عبد الله اللقانى، والشيخ عثمان البورنجى، والشيخ أمين الدين جبريل.

ولكل من هؤلاء علوم وأسرار وإشارات وأصحاب أخذوا عنهم، تركنا تتبع كراماتهم وخصوصياتهم، لئلا نخرج عن غرض الكتاب.

وطريقته رضى الله عنه تنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، والشيخ عبد السلام ينتسب إلى الشيخ عبد الرحمن المدنى، ثم واحد عن واحد إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: طريقتنا هذه لا تنسب للمشارقة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو أول الأقطاب.

وإنما يلزم تعيين المشايخ الذين تستند إليهم طريق الإنسان من كانت طريقته يلبس الخرقة فإنها رواية، والرواية يتعين تعيين رجال سندها، وهذه هداية، وقد يجذب الله العبد إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ(١٨)، وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ فيكون آخذا عنه، وكفى بهذا منة.

ولقد قال لى الشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه: أنا ما ربانى إلا رسول الله ﷺ وذكر عن الشيخ عبد الرحمن القناوى رضى الله عنه أنه كان يقول: أنا لامنة لأحد على إلا لرسول الله ﷺ، وإذا أراد الله أن يتفضل على عبد يغنيه عن الأستاذ حتى لا يكون له فيه سلف.

---

(١٨) يقول تعالى: ﴿الله يجتبى إليه من يشاء﴾.

وقال ملك لبعض جلسائه: إني أريد أن أجعلك وزيرا قال: ليس لى فى هذا سلف. قال: إنى أريد أن أجعلك سلفا لمن بعدك.

ولنقتصر على هذا القدر فإنه كاف فى التعريف بقدر الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه.

وما الأمر إلا كما قال القائل:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة　　فإن وجدت لسانا قائلا فقل

وبدأنا بذكر الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه وإن كان غرضنا فى وضع هذا الكتاب ذكر مناقب شيخنا أبى العباس رضى الله عنه، لكن فعلنا ذلك لأمرين:

أحدهما أن ذلك تعريف بقدر الشيخ أبى العباس رضى الله عنه، لأن شرف التابع بشرف المتبوع.

ولأن الشيخ رضى الله عنه هكذا كان شأنه: ذكر الشيخ رضى الله عنه والدلالة عليه والإعراض عن ذكر خصائصه هو فى نفسه، حتى قال له إنسان: يا سيدى، نراك تقول: قال الشيخ: وقلَّ أن تسند لنفسك شيئًا، فقال له الشيخ: لو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال الله قلت: قال الله، ولو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال رسول الله قلت: قال رسول الله ﷺ، ولو شئت على عدد الأنفاس أن أقول: قلت أنا، قلت أنا، ولكن أقول: قال الشيخ واترك ذكر نفسى أدبًا معه.

وقد تم الكلام فى الباب الأول والحمد لله رب العالمين.

الباب الثانى

فى شهادة الشيخ له أنه الوارث للمقام والحائز قصب السبق بالتمام وإخباره هو عن نفسه بما مُنَّ به عليه من النعم الجسام وشهادة الأولياء له بأنه بلغ من الوصول إلى الله لأفضل مرام

ولنقدم أمام ذلك مقدمة:

اعلم أن الوارث للرجل هو الظاهر بعلمه وحاله، وهو الذى تظهر طريق الموروث على يديه يفسّر مجملها ويبسط مختصرها، يرفع منارها ويبثّ أنوارها، يُعرّف الناس بما كان ذلك الرجل الكبير عليه من العلم بالله والمعرفة والنفوذ إليه والاحتظاء من نوره، حتى إذا فرّط الناس فى محبّة ذلك الرجل الكبير وتعظيمه فى حال حياته استدركوا ذلك بعد وفاته؛ لأن كل ما هو مقدور عليه مزهود فيه وكل معجوز عنه متطلّع إليه بالشغف، حتى لقد سمعت الشيخ أبا العباس رضى الله عنه يقول: يكون الرجل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالاً، حتى إذا مات قالوا كان فلان، وربما دخل فى طريق الرجل بعد وفاته أكثر مما دخل فيها فى حياته، والذى ظهر بهذه الأوصاف هو: الشيخ أبو العباس رضى الله عنه.

هو الذى بثّ علوم الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه، ونشر أنوارها، وأبدى أسرارها، وسار الناس إليه من أقاصى البلاد، وأقبلوا مسرعين إليه من كل ناد، فنشأت على يديه الرجال، ونصرها وأظهرها بالمقال والفعال، حتى انتشرت فى الآفاق الأصحاب، وأصحاب الأصحاب، وظهرت علوم الشيخ فى مظهرى لسان وكتاب.

وأخبرنى الشيخ الصالح الأمين العدل زكى الدين الأسوانى قال: قال لى الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا زكى عليك بأبى العباس فوالله إنه ليأتيه البدوى يبول على ساقيه فلا يمسى عليه المساء إلاّ وقد وصله إلى الله، يا زكى عليك بأبى العباس فوالله ما من ولىٍّ لله كان أو هو كائن إلاّ وقد أطلعه الله عليه، يا زكى أبو العباس هو الرجل الكامل.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول عن نفسه: والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف حتى يلقوا واحدًا مثلنا فإذا لقوه كان بغيتهم، ثم قال: وبالله الذى لا إله إلاّ هو ما من ولىٍّ لله كان أو هو كائن إلاّ وقد أطلعنى الله عليه وعلى اسمه ونسبه وكم حظّه من الله.

وبلغنى عن الشيخ أبى الحسن أنه كان يقول: أبو العباس شمس وعبد الحكيم قمر،

وعبد الحكيم هذا وليّ كبير من أصحاب الشيخ أبى الحسن وقد تقدّم ذكره.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: سمعت يقال لى: لن تهلك أمة فيها أربعة إمام ووليّ وصدِّيق وسخيٌّ.

قال الشيخ أبو الحسن: الإمام هو أبو العباس.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: ليس الشأن من ملك، الشأن من مَلَكَ وملَكَ أن يُمَلِّك، وأنا والله مَلَكْت وملَكت أن أملّك من ستٍّ وثلاثين سنة.

وسمعته رضى الله عنه يقول: الوليّ إذا أراد أغْنَى.

وسمعته يقول: والله ما بينى وبين الرجل إلاّ أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته.

وسمعته يقول: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس ما صحبتك إلاّ لتكون أنت أنا، وأنا أنت.

وسمعته يقول: قال لى الشيخ يا أبا العباس فيك ما فى الأولياء، وليس فى الأولياء ما فيك.

وقد أخبرنى بعض أهل البهنسا قال: قدم علينا الشيخ أبو العباس فقال: لى الآن خمس وعشرون سنة ما حُجبت فيها عن طاعة الله طرفة عين قال: ثم غاب عنّا خمس عشرة سنة ثم قدم علينا فقال: لى الآن أربعون سنة ما حُجبت فيها عن الله طرفة عين.

وقال يومًا: والله لو حُجب عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين.

وأخبرنى بعض أصحابه قال: دخل عليه بدمنهور إنسان، فلما أراد أن يخرج قال: يا سيدى صافحنى، فإنك قد لقيت بلادًا وعبادًا فلما خرج. قال الشيخ: ما الذى يعنى ببلاد وعباد، فقال إنسان: يريد أنك صافحت عبادًا وسلكت بلادًا اكتسبت بركاتها، فإذا صافحك حصل له منك بركة، فضحك الشيخ ثم قال: والله ما صافحت بهذه اليد رسول الله ﷺ.

وكان بنشيل القناطر رجل يقال له خليل وهو الآن مدفون بها وكان من أولياء الله قال: دخل على الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فتوضأ عندى، ثم أخذ قوسًا لى فجرّها ثلاث مرات، فقلت له: يا سيدى من هو الخليفة بعدك؟ فقال: من يأتيك إلى ههنا ويتوضأ نحو وضوئى هذا ويجرّ هذا القوس ثلاث مرات، فهو الخليفة بعدى، قال: فدخل على أصحاب الشيخ أجمعهم وأنا أترصد هل يفعل ذلك أحد فلم يتّفق، حتى دخل الشيخ أبو العباس رضى الله عنه عليّ فى ذلك المكان وتوضأ نحو وضوء الشيخ ورفع بصره فرأى القوس معلّقةً فقال: ناولنى تلك القوس، فناولته إيّاها فجرّها ثلاث مرات ثم قال: يا خليل جاءك وعد الشيخ.

وبلغنى عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه أنه قال: هذا أبو العباس منذ نفذ إلى الله لم يُحجب ولو طلب الحجاب لم يجده.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت ليلة من الليالى جالسًا بالإسكندرية أكتب كتابًا لبعض أصحابنا وإذا بالشيخ خليل هذا فى الهواء، فقلت له: إلى أين انتهت سياحتك فى هذه الليلة؟ فقال: خرجت من نشيل وانتهيت إلى جبال الزيتون بالمغرب الأقصى وأنا أريد أن أذهب إلى

البيت المقدس وأعود إلى بلدى ولو بسط لى أكثر من ذلك لانبسطت.

قال الشيخ: فقلت له: ليس الشأن أن تذهب إلى جبال الزيتون وتعود فى ليلتك ولكن أنا الساعة لو أردت أن آخذ بيدك وأضعك على قاف وأنا ههنا لفعلت.

وأخبرنى أبو عبد الله بن سلطان وكان من أولياء الله قال: أردت أن أرسل إلى الشيخ أبى العباس عسلاً فقلت لبعض أصحابى فقال لى: عندى نصفيتان عسل فراخ أى جرتان صغيرتان، وأتى إلىّ بهما فسددتهما وكتبت عليهما: وديعة الشيخ أبى العباس المرسى وأتيت بهما إلى بحر تونس فأدليتهما فيه فجاءنى الخبر من عنده أنهما وصلتا إليه، وأخبرنى بعض أصحابه قال: كان الشيخ يومًا جالسًا فقال لبعض أصحابه: قم بنا، فأتى إلى بحر السلسلة وأدلى يده وأخرج الجرتين منه.

وأخبرنى عبد الدائم ابن الشيخ ماضى، وماضى هذا أحد أصحاب الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه وهو أخو أبى عبد الله بن سلطان قال: صلّيت ليلةً عند الشيخ أبى العباس قيام رمضان، فلما فرغ من الصلاة قال لولده: خذ ابن عمك واصعد به إلى فوق، قال: فطلعنا عند الشيخ فوضع لنا قطايف وعسلاً وقال: هذا العسل من عند عمك، فلما ذهبت إلى والدى قال لى: أبطأت الليلة لقد شغلت قلبى، قلت له: كنت عند الشيخ أبى العباس وأطعمنى قطايف وعسلاً، وقال: هذا العسل من عند عمك، فقال أبى: عجيب هذا لى فى ديار مصر عشرون سنة ما أرسل إلىّ أخى شيئًا قط، حتى بلغه أن وصول العسل كان على الوجه الذى تقدم.

وكان يقول: والله لو حجبت عن جنة الفردوس طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين.

وكان يقول: والله لو فاتنى الوقوف بعرفة سنةً ما عددت نفسى من المسلمين.

وسمعته يقول: كان الشيخ إذا أوذيت من بعض أصحابه يقول: اصبر فوالله ما هى إلّا لك أى ما الوراثة إلّا لك.

ووجدت بخط ابن ناشئ: أخبرنا الشيخ جلال الدين عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه قال: ألبس اليوم أبو العباس ثياب البدلية حين مجيئهم من الحجاز بالمراسى بالجديد، قال ابن ناشئ: فكتبت إلى شيخى أبى العباس رضى الله عنه فى ذلك:

على ذلك الوجه الجميل تحيتى … فيارب بلغنى إلى باب قدوتى
أقبل أقدامًا سعت نحو خلوة … بها جلوة للشيخ أعظم جلوة
فأخرج من ضيق الضلال إلى الهدى … وصحّح لى عقدى وعهدى ونيّتى
وأشرقت الأنوار من كل وجهة … بتلقينه الأذكار فى كل زورة
وأبصرت ما أبصرت من ذلك الذى … فلا تسألوا يا قوم عن تكلم التى
أنوح عليها لا أبوح ببعضها … ولكننى إن بحت نحت بعبرتى
فسبحان من أعمى القلوب عن الذى … تصرف فى سر القلوب بهمتى
ومن ذا الذى ربى بحضرة شيخه … فأكرم بها من حضرة بعد حضرة
وكان جديرًا فى الجديد بحلّة … غدت حلّة الأبدال أوّل سفرة
كذلك قال الشيخ وهو مسافر … بلا وقفة للركب فى عام وقفة

أتانى فربّانى على حين فترة أفى الوقت ربانى كأحمد الذى
علا فى العلا أعلا مقام المحبة ومدحى له مدح لأحمد الذى
إلى قبره بعد القيام بحجة فصلّى عليه الله ما سار سائر

وأخبرنى الشيخ الإمام العارف نجم الدين عبد الله الأصبهانى نزيل مكة قال: قال لى شيخ صحبته – وأنا ببلاد العجم –: إنك ستلقى القطب بديار مصر فخرجت من بلادى قاصدًا لذلك، فأنا فى بعض الطريق وإذا بجماعة من التتار قد لاقونى فأمسكونى، وقالوا: هذا جاسوس. فكتفونى ثم تشاوروا فى قتلى، فقال بعضهم: نقتله. وقال آخرون: لا نقتله، فبتُّ مكتوفًا ففكرت فى أمرى وقلت: خرجت من بلادى أريد لقاء من يعرّفنى بالله، والله ما جزعى من الموت، ولكن كيف أموت قبل أن أنال ما قصدت، فعملت أبياتًا ضمنت فيها شعرًا لامرىء القيس:

وقد أتعبت نفسى باغتراب وقد أوطأت نعلى كل أرض
رضيت من الغنيمة بالإياب وقد طوّفت فى الآفاق حتى

فما استتْممتُ الإنشاد إلّا وأنا أرى رجلًا كثّ اللحية ظاهر الهيبة أتى إلىّ كالبازى إذا انقض على الفريسة فحلّ كتافى، وقال: قم يا عبد الله فأنا مطلوبك. ثم إنى قدمت ديار مصر فقيل لى: هنا رجل يقال له أبو العباس المرسى، فذهبت إليه فإذا هو ذلك الرجل الذى حلّ وثاقى وقال: لقد أعجبنى نظمك ليلة أسرت وقولك وذكر الأبيات إلى آخرها.

وأخبرنى الشيخ نجم الدين أيضًا قال: قال لى شيخى: إذا لقيت القطب فلا تصلِّينَّ وهو وراءك، فجئت يومًا إلى الشيخ أبى العباس رضى الله عنه وهو بالإسكندرية عند صلاة العصر فلما دخلت عليه قال: أصلّيت العصر؟ قال: قلت: لا. قال: قم فصلِّ، وفى المكان الذى هو فيه إيوانان قبلىّ وبحرى، وكان الشيخ جالسًا فى البحرى منهما، فلما قمت لأصلّى ذكرت ما قاله لى شيخى: «إذا لقيت القطب فلا تصلين وهو وراءك» وعلمت أنى إذا صلّيت كان الشيخ خلف ظهرى، فأقام الله فى قلبى حاله وقلت: حيث ما كان الشيخ هنالك القبلة، فتوجهت لناحية الشيخ وأردت أن أكبّر فقال الشيخ: لا، لا، هو لا يرضيه خلاف السنة.

وقال رضى الله عنه: ما أصنع بالكيمياء والله لقد صحبت أقوامًا يعبر أحدهم على الشجرة اليابسة فيشير إليها فتثمر رمّانًا للوقت، فمن صحب هؤلاء الرجال ماذا يصنع بالكيمياء[1].

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: كنت أصحب بمدينة «قوص» الشيخ أبا عبد الله البجائى، أحد أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، فكان يقع لى الأمر، فأسأل عنه الشيخ أبا عبدالله، فيقول لى: ليس هذا الأمر لى، ولكن إن جمع الله بينك وبين الشيخ أبى العباس المرسى تجد عنده ما تريد.

قال: ورأيت فى المنام كأن معى طبقًا فيه بسر وحُوَّارَى نأكل منه، فعبرته، فقيل لى: هذا رجل كبير لك على يديه علوم كثيرة بعدما أتى وقتها. فلما ورد الشيخ أبو العباس إلى مدينة «قوص»

(١) إن الكيمياء بالمعنى القديم – وهو المراد هنا – هى: تحويل العناصر إلى بعضها، كتحويل النحاس مثلًا إلى ذهب، وهذا هو المعنى المقصود من كلمة «الكيمياء»، هنا وكان كثير من القدماء يعتقدون أن ذلك ممكن، ويسعون وراء تحقيقه.

دخلت عليه فسألته عما كان يقع لى، فأجابنى عن ذلك وقال: تذكر رؤياك البسر والحُوَّارَى تأكل منه، أنا ذلك الحُوَّارَى[٢].

وتجاريت الكلام يومًا مع الشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه فقلت له عن الشيخ أبى العباس قال الشيخ كذا وقال كذا إلى أن تمادى بنا الكلام والفقيه مكين الدين يستغرب تلك الحقائق التى أقولها عن الشيخ، إلى أن قال: نقول لك الحق: ما عرفنا الشيخ أبا العباس.

فهذا اعتراف من الشيخ مكين الدين[٣] الأسمر بعظيم شأن الشيخ أبى العباس وأنه لم يعرفه، مع أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه شهد للشيخ مكين الدين الأسمر أنه من السبعة الأبدال.

وكنت يومًا عند الشيخ أبى العباس الدمنهورى، وعنده إنسان من أصحاب الشيخ أبى العباس فقال له إنسان: يا سيدى هذا من أصحاب الشيخ أبى العباس المرسى.

فقال له الشيخ أبو العباس الدمنهورى: سيدى أبو العباس المرسى ملك من ملوك الآخرة.

وأخبرنى سليمان بن الباخس قال: دخلت على الشيخ أبى العباس الدمنهورى فسمعته يقول: يارب هذاك أبو العباس وأنا أبو العباس ويكرر ذلك فقلت: يا سيدى من أبو العباس؟ قال المرسى، يابنى ما بين أسوان إلى الإسكندرية رجل مثله.

ثم قال: مابين أسوان إلى دمياط إلى الاسكندرية رجل مثله.

وأخبرنى سليمان هذا قال: لقيت يومًا الشيخ أبا العباس المرسى، وقد خرج من الحمام فعزمت عليه، فطلع عندى فقدمت له من البطيخ الصالحى، فهو فى أثناء أكله سألته عن رجل كان كثير الشهرة يرحل بالخلق الكثير والرايات ولا يحضر صلاة الجمعة، فلما ذكرته للشيخ تغيّر وقال: والله لو أعلم أنك تذكره لى ما طلعت عندك، تذكرون بين يدى الأبدال والأولياء أهلَ البِدَع.

وسمعته يقول: والله ما كان اثنان من أصحاب هذا العلم فى زمن واحد قط إلاّ واحدًا عن واحد إلى الحسن.

وأخبرنى جماعة من أهل أشموم قالوا: قدم علينا الشيخ أبو العباس البجائى من أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، وكان يتكلم علينا فيعجبنا كلامه فإذا رأى إعجابنا بذلك

---

(٢) البسر: جمع بسرة – أبسر النخل صار ما عليه بسر – أى بعد أن يكون: طلعًا ثم خلالاً ثم بلحًا ثم بسرًا، والحوارى بالضم وتشديد الواو – وفتح الراء – الدقيق الأبيض وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه.

(٣) والشيخ مكين الأسمر كما فى جامع الكرامات العلية هو القطب الربّانى صاحب المكاشفات والمجاهدات، الحائز لأسرار أهل الحقائق والتمكين، شيخ المشايخ الراسخين الفقيه المحدّث سيدى ومولاى أبو عبد الله بن منصور الإسكندرانى الشاذلى المقرى الشهير بمكين الدين الأسمر، كان من أرباب المجاهدات، وله مكاشفات عجيبة وأحوال غريبة، ولد بالإسكندرية وبها نشأ، وحفظ القرآن، وبرع فيه وفى علومه حتى صار أوحد أهل زمانه، وشدّت إليه الرحال، ووفدت عليه أكابر الرجال، كان فى بدايته يخيط الملابس ويتقوّت من ذلك وهو مع ذلك يطلب العلم، قال فيه أبو الحسن الشاذلى: الشيخ مكين الأسمر أحد السبعة الأبدال، وله كرامات ومكاشفات، كان رضى الله عنه فى زمنه شيخ القراء، قرأ عليه ناس كثيرون وجماعة آخرون، توفى نفعنا الله به بإسكندرية سنة ٦٩٢ ومولده بها سنة ٦١٠.

قال: كيف لو رأيتم الشيخ أباالعباس المرسى، لو أطلق الشيخ أبوالعباس لسانى لتكلمت بالعلم الغريب.

وسمعته يقول: كان يتكلم فى هذا العلم ثلاثة شيوخ: أبو الحسن وصاحبه الشيخ أبو الحسن الصقلى وأنا، توفى الشيخ رضى الله عنه، وتوفى أبو الحسن الصقلى ولا أعلم اليوم على وجه الأرض أحدًا يتكلم فى هذا العلم غيرى.

وكنت أنا حين توفى الشيخ أبو العباس بالقاهرة فدخلت يومًا زاوية الشيخ صفى الدين بن أبى المنصور فجلست فيها، فقال واحد من الفقراء[٤] يخاطب آخر: يا أخى قد مات رجل كبير اليوم، فقال له الآخر: من هو؟ قال: الشيخ أبو العباس المرسى، وهما لا يعلمان أننى من أصحاب الشيخ، تدرى ماتفق له من شيخنا صفى الدين؟ قال: لا . قال: سمع الشيخ ليلةً ههنا ذكرًا لا يعهده فقال لى: اذهب فانظر من هذا؟ فذهب فإذا هو الشيخ أبو العباس وأصحابه، فرجعت إلى الشيخ صفى الدين فأخبرته فقال: يأتى هذا الرجل إلى هنا ولا يزورنا؟ ماهذا إلّا أمر عجيب. قال: ثم أصبح الشيخ صفى الدين فقال لأصحابه: رأيت البارحة كأننى فى فلاة من الأرض وأبو العباس فى موضع مرتفع وهو يقول لى: يا أخى يأبى الله أن نجتمع إلّا هكذا.

وقال الشيخ أبو عبد الله بن النعمان، الشيخ أبو العباس المرسى وارث علم الشيخ الشاذلى حقيقة.

وأخبرنى بعض الفقهاء من أهل البهسا قال: قال لى الشيخ أمين الدين جبريل: تريد أن أريك وليًّا من أولياء الله؟ قلت: نعم، قال؛ امض بنا، فأتى بى إلى الشيخ أبى العباس وقال: هو هذا.

وأخبرنى بعض أصحابه قال: عزم على الشيخ إنسان، فقدم له طعامًا يختبره به، فأعرض الشيخ عنه ولم يأكله، ثم التفت إلى صاحب الطعام فقال؛ إن كان الحارث بن أسد المحاسبى كان فى أصبعه عرق إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه، فأنا فى يدى ستّون عرقًا تتحرك على إذا كان مثل ذلك، فاستغفر صاحب الطعام واعتذر إلى الشيخ.

ومن المشهور بين أصحاب الشيخ أبى الحسن وغيرهم أن الشيخ كان يومًا بالقاهرة فى دار الزكى السراج وكتاب المواقف[٥] للنفزى يقرأ عليه، فقال؛ أين أبو العباس؟ فلما جاء قال: يابنى تكلم، يابنى تكلم بارك الله فيك تكلم ولن تسكت بعدها أبدًا، فقال الشيخ أبو العباس: فأعطيت فى ذلك الوقت لسان الشيخ.

ولقد كان علماء الزمان يسلّمون له هذا الشأن، حتى كان شيخنا الإمام العلامة سيف المناظرين، حجة المتكلّمين شمس الدين الأصبهانى، والشيخ العلامة شمس الدين الأيكى يجلسان بين يديه جلوس المستفيد، آخذين عنه ومتلقّين مابيديه حتى سأله أحدهما عن بعض المشايخ الظاهرين فى الوقت: ياسيدى أتعرفه؟ فقال الشيخ: أعرفه هنا – وأشار إلى الأرض – ولا أعرفه هناك – وأشار إلى السماء.

(٤) المقصود: الفقراء إلى الله، وهم الصوفية.

(٥) كتاب «المواقف» من أعمق كتب التصوف بحيث لا يتناوله إلّا خاصة الخاصة وهو مطبوع إلّا أنه من الندرة بمكان.

وسأله أحدهما عن إنسان كان بدمشق الغالب عليه السكر والغيبة، فقال الشيخ رضى الله عنه: كل من لا يكون له فى هذه الطريق شيخ لا يُفرح به.

وكان من مذهبه رضى الله عنه: أنه لا يلزم أن يكون القطب شريفًا حسنيًا، بل قد يكون من غير هذا القبيل.

وتكلم يومًا فى القطب وأوصافه ثم قال: وما القطبانية بعيدة من بعض الأولياء وأشار إلى نفسه.

وأخبرنى بعض أصحابه قال: استلقى الشيخ يومًا على ظهره وأمسك بلحيته وقال: لو علم علماء العراق والشام ما تحت هذه الشعرات لأتوها ولو سعيًا على وجوههم.

وكان يقول: والله ما نطالع كلام أهل الطريق إلّا لنرى فضل الله علينا، وقال فى الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه: إنا لنشهد له بالصديقية العظمى.

وكان الشيخ أبو الحسن يقول: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبى حامد.

وكان يقول عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنه: كتاب الإحياء يورثك العلم، وكتاب القوت[٦] يورثك النور.

وكان يقول عن الشيخ أبى الحسن: عليكم بالقوت فإنه قوت.

وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الإمام الربانى محمد بن على الترمذى[٧]، وكان لكلامه عندهما الحظوة التامة، وكان يقول عنه: إنه أحد الأربعة الأوتاد.

ودخلت عليه يومًا فوجدته مغموسًا فى واردٍ ورد عليه فقال: سمعت البارحة يقال لى: السلام

---

(٦) كتاب «قوت القلوب» لأبى طالب المكى، وهو من الكتب التى تعتبر من عمد التصوف، وقد قرأه الإمام الغزالى واستفاد منه، وكان الإمام الشاذلى يدرسه لمريديه، ويحثهم على قراءته – وهو مطبوع متداول.

(٧) هو صاحب كتاب «ختم الأولياء» الذى أثار ثورة فكرية فى الجو الصوفى وقد طبع له هذا الكتاب أخيرا فى لبنان، وطبع له من قبل كتاب «نوادر الأصول» وكتاب «الصلاة» وله كتب كثيرة تحت الطبع وقد كتب عنه أصحاب الطبقات، فيقول عنه صاحب الرسالة القشيرية:

«من كبار الشيوخ وله تصانيف فى علوم القوم، صحب أبا تراب النخشبى وأحمد بن خضروية، وابن الجلاء وغيرهم.
سئل محمد بن على عن صفة الخلق فقال:
«ضعف ظاهر، ودعوى عريضة».
وقال محمد بن على:
ما صنفت حرفًا عن تدبير، ولا لينسب إلّى شئ منه، ولكن كان إذا اشتدّ على وقتى اتسلى به؟

والترمذى: نسبته إلى (ترمذ): مدينة على طرف نهر بلخ المسمى (بجيحون). قال الحافظ بن النجار فى تاريخه: كان أمامًا من أئمة المسلمين، وله التصانيف الكثيرة فى التصوّف، وأصول الدين، ومعانى الحديث.
وقال الكلاباذى – فى التعرف – هو من أئمة الصوفية، وقال ابن عطاء الله:
كان الشاذلى والمرسى يعظمانه ويقولان: هو أحد الأوتاد الأربعة؟
ومن حكمه: إذا سكنت الأرواح بالسر، نطقت الجوارح بالبر.
وقال: الولىّ أبدًا فى ستر حاله، والكون ناطق بولايته، ومدعى الولاية ناطق بولايته، والكوْن كلّه يكذبه.
وقال؛ ما استصغرت أحدًا من المسلمين إلّا وجدت نقصًا فى معرفتى وإيمانى، وما منع الناس من الوصول إلّا لركضهم فى الطريق بغير دليل؟

عليكم يا عبادى ثم قال: وهذا قد أسمعهُ فى السنة مرةً أو مرتين.

وهذا من الحديث الذى قال فيه أبو العباس بن العريف:

بدا لك سرٌّ طال عنك اكتتامه ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سرِّ وحيه ولولاك لم يطبع عليه ختامه
فإن غبت عنه حلّ فيه وطنبت[٨] على موكب الكشف المصون خيام
وجاء حديث لا يمل سماعه شهىّ إلينا نشره ونظامه

(٨) طنبت: أى شدّت بأطنابها، وهى الحبال الطويلة.

الباب الثالث

في مجرّباته ومنازلاته وما اتفق لأصحابه معه ومكاشفاته

سمعت الشيخ أبا العباس رضى الله عنه يقول: كنت أنا وصبّى عند المؤدّب إذ جاء رجل فوجدنى أكتب فى لوح فقال لى: الصوفى لا يسوِّد بياضًا، قال: فقلت له: ليس الأمر كما زعمت، ولكن لا يسود بياض الصحائف بسواد الذنوب.

وسمعته يقول: عمل إلى جانب دارنا خيال الستارة وأنا إذ ذاك صبى فحضرته، فلما أصبحت وأتيت إلى المؤدّب، وكان من أولياء الله أنشدنى حين رآنى:

يا ناظرًا صور الخيـال تعجبًا وهو الخيـال بعينه لـو أبصـرا

وقال رضى الله عنه: رأيت ليلةً كأنى فى سماء الدنيا وإذا برجل أسمر اللون قصير الطول كبير اللحية، فقال قل:

اللهم اغفر لأمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد.

هذا دعاء الخضر، من قاله كل يوم كتب من الأبدال، فقيل لى: هذا الشيخ ابن أبى شامة، فلما انتهيت أتيت إلى الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فجلست ولم أخبره بشىء، فقال: اللهم اغفر لأمة محمد، واللهم ارحم أمة محمد، واللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد، هذا دعاء الخضر من قاله كل يوم كتب من الأبدال.

وقال رضى الله عنه: كنت أخرج كل يوم من باب البحر إلى نحو المنار، فخرجت يوما إلى المنار، فنمت عند الجانب الشرقى، وكان قد خطر فى نفسى: ما سبب قلة رواية أبى بكر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ مع كثرة ملازمته له؟

فإذا قائل يقول لى: أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وإنما قلت روايته عنه لتحققه به.

وقال رضى الله عنه: طالعت مقام الرحمة فإذا قائل يقول لى: والله ليكونن من رحمة الله يوم القيامة ما ينال منها ابن أبى الطواجن، وكان ابن أبى الطواجن هذا قد قتل الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما.

وقال رضى الله عنه: كنت مع الشيخ فى مدينة الرسول ﷺ فأردت أن أزور حمزة رضى الله عنه، فخرجت من المدينة، فتبعنى رجل فأتينا إلى التربة، فإذا الباب مغلق، فانفتح ببركة رسول الله ﷺ فدخلنا فوجدنا هناك رجلا من الأبدال فقلت للرجل الذى تبعنى: ادع فى هذا الوقت بما تريد، فإنه

يستجاب لك، فدعا ذلك الرجل أن يعطيه الله دينارًا، فلما رجعنا إلى المدينة لقيه رجل فأعطاه دينارا، فلما دخلنا على الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه قال له: يا بطال صادفت وقت إجابة فسألت الله دينارًا! هلا سألت الله كما سأله أبو العباس، سأله أن يكفيه هم الدنيا وعذاب الآخرة وقد استجاب الله له فى ذلك.

وقال رضى الله عنه: كنت يوما جالسا بين يدى الأستاذ فدخل عليه جماعة من الصالحين فلما خرجوا من عنده قال: هؤلاء أبدال، فنظرت ببصيرتى فلم أجدهم أبدالا، فتحيرت بين ما أخبر به الشيخ، وبين ما شهدته بصيرتى، فبعد ذلك بأيام قال الشيخ: من بدلت سيآته حسنات فهو بدل، فعلمت أن الشيخ أراد أول مراتب البدلية.

وأخبرنى الشيخ العارف نجم الدين الأصبهانى، قال: قال لى الشيخ أبو العباس يوما: ما اسم كذا وكذا بالعجمية؟ فخطر لى أن الشيخ يحب أن يقف على لغة العجم، فأتيت إليه بكتاب «الترجمان» قال: فقال الشيخ: ما هذا الكتاب؟ فقلت: كتاب «الترجمان» قال: فضحك الشيخ وقال: سل بالعجمية ما شئت أجبك بالعربية، وسل ما شئت بالعربية أجبك بالعجمية، فسألته بالعجمية فأجابنى بالعربية، وسألته بالعربية فأجابنى بالعجمية، وقال: يا عبد الله ما أردت بقولى ما اسم كذا إلا مباسطتك، وإلا فلا يكون صاحب هذا الشأن، ويخفى عليه شيء من الألسنة.

وأخبرنى أيضا قال: قال الشيخ أبو العباس يوما: كم بين بلدة كذا وبلدة كذا من نهر لبلدتين من بلاد العجم؟ فقلت: أربعة أنهر. فقال: والنهر الذى غرقت فيه؟ فذكرت أنى نسيت نهرا أتيت لأخوضه فكدت أن أغرق فيه.

وأخبرنى الشيخ العارف ياقوت: قال: عزم على إنسان فقدم لى طعاما، فرأيت عليه ظلمة كالمكب فقلت فى نفسى: هذا حرام فامتنعت من أكله، ثم دخلت على الشيخ أبى العباس رضى الله عنه فقال: أول ما جلست: ومن جهلة المريدين من يقدم له طعام فيرى عليه ظلمة فيقول هذا حرام، يا مسكين ما يساوى ورعك سوء ظنك فى أخيك المسلم، هلا قلت هذا طعام لم يردن الله به.

ودخلت أنا عليه يوما، وفى نفسى ترك الأسباب والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلا: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة.

فقال من غير أن أبدى له شيئا: صحبنى بقوص إنسان يقال له: ابن ناشئ وكان مدرسا بها ونائب الحكم، فذاق من هذا الطريق شيئا على أيدينا. فقال: يا سيدى أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟

فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل.

ثم قال: وهذا شأن الصديقين، لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم.

فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى وكأنما كانت ثوبا نزعته، ورضيت عن الله فيما أقامنى فيه.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: رأيت وأنا بالمغرب دائرة من الرجال، ورجلا فى وسطها، وكل من فى تلك الدائرة متوجه إليه، فقلت فى نفسى: هذ هو القطب، وعرفت ذلك الرجل بصفته وبقيت كلما ذكر لى عن رجل آتى إليه وأقول: عسى أن يكون ذلك الرجل الذى رأيته فى وسط الدائرة، حتى قيل لى عن الشيخ أبى العباس، فأتيت إليه فإذا هو ذلك الرجل الذى رأيته فى وسط الدائرة فأخبرته، فقال: نعم أنا القطب، أما الذين يقابلون بطنى لهم المدد من باطن حقيقتى، والذين يقابلون ظهرى لهم المدد من ظاهر علمى، والذين يقابلون جنبى لهم المدد من العلوم التى بين جنبى.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلى ينزل من السماء، والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله، متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبوالعباس ثبت رجليه فى الأرض، وتهيأ لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبوالحسن عليه، ودخل من رأسه، حتى غاب فيه واستيقظت.

وأخبرنى الشيخ محمد السراج رحمه الله قال: كنت ليلة من الليالى نائما وأنا أرى فى المنام قائلا يقول لى: اذهب إلى خارج الإسكندرية من باب السدرة، فأول بستان تلقاه من الجانب الأيسر فادخل فيه فإنك تجد فيه جماعة من الناس، الجالس منهم تحت أطول نخلة هناك رجل من الرجال، ثم قيل: إن فى الجامع حلقة من دخل فيها فهو آمن، فلما أصبحت خرجت إلى ظاهر الإسكندرية ودخلت أول بستان من الجانب الأيسر، فوجدت حلقة هناك، فرفعت بصرى لأنظر إلى أطولها نخلة، فإذا قائل يقول لى: كلها طوال؛ فإذا الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه، فسلمت عليه وجلست وقلت: يا سيدى رأيت البارحة كذا وكذا وقصصت عليه الرؤيا فقال: الجامع أنا، والحلقة هم أصحابى، ومن دخل فيها فهو آمن، أى من دخل فى شروطنا فهو آمن، ثم قال: أنا الليلة آتيك فقلت: يا سيدى أنتظرك على الباب، أو أترك الباب لك مفتوحًا؟ فقال: لا ولكن اغلق بابك، وأنا آتيك.

قال: فلما كان الليل أخذنى شبيه الوهم، وصرت أقول: من أين يأتى؟ من هنا يأتى، لا بل من هنا يأتى، فلم أطق المكث، فخرجت إلى رباط الواسطى، وصعدت المأذنة، ووقفت أصلى، فأنا فى الصلاة، وإذا الشيخ أبو العباس قد أتى فى الهواء وقال: يا محمد، أتظن أنك إذا جئت هنا يخفى علىّ مكانك؟ فقلت: يا سيدى إنما جئت هنا لأنى لم أطق المكث، وهالنى الأمر، وكان المخاطب له منى لسانا آخر غير الذى كنت أقرأ به.

وأخبرنى بعض أصحابه قال: كنا مع الشيخ بمدينة «قوص»؛ وكان من أصحاب الشيخ أبى العباس أبو الحسن المرسى، وكان فى خلقه حدة فنزل ولد الشيخ يوما يلعب كما يلعب الصبيان، فقال له الشيخ أبو الحسن المرسى: اطلع لا أطلعك الله، فسمعه الشيخ أبو العباس فنزل وقال: يا أبا الحسن حسن خلقك مع الناس، بقى لك عام وتموت، فمات إلى تمام العام.

وأخبرنى أبو عبد الله الحكيم المرسى رحمه الله قال: قدم علينا الشيخ بأشموم، فلما جن الليل دعانى الشيخ وقال: ادن منى يا حكيم فدنوت منه فوضع يده خلف ظهرى، وفعلت أنا كذلك،

وضمنى إليه وبكى: فبكيت لبكائه ولم أدر مم بكى؟ فقال: يا حكيم ما جئتكم إلا مودعا، ياحكيم نذهب إلى المقسم نودع أخى ثم نعود إلى الاسكندرية نبيت بها ليلة، وندخل فى اليوم الثانى قبرى، فسافر فأقام عند أخيه مدة يسيرة، ثم انحدر إلى الاسكندرية فأقام بها ليلة، ودخل فى اليوم الثانى قبره كما قال، رحمه الله.

وأخبرنى سيدى جمال الدين ولد الشيخ رضى الله عنهما: قال: ورد رسول الإفرنج إلى الإسكندرية فذهبت لأنظره، ولم أعلم الشيخ، فلما جئت قال: أين كنت؟ قلت: هٰهنا.

قال: بل ذهبت تنظر رسول الإفرنج، أتظن أن شيئا من أحوالك يخفى على؟ كان الرسول لابسا كذا وكذا، راكبا على كذا عن يمينه فلان، وعن يساره فلان فوصف الحال على ما كانت عليه؟

وأخبرنى عبد العزيز المدبولى قال: قال لى الشيخ: يا عبد العزيز سقيت الفرس؟ فقلت: نعم، فكرر ذلك مرارًا وأنا أقول نعم، ففى المرة الأخيرة قال يالله. وطار فى الهواء حتى غاب عن بصرى، فلما كان فى اليوم الثانى؛ قال: يا عبد العزيز ما الذى يحوج الإنسان منكم أن يقول غير الحق، كنت تقول ما سقيتها، وماذا كنت أصنع بك إذا لم تسقها؟

وكنت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا يجىء منه فى العلم الظاهر شىء، فشق على أن يفوتنى العلم، وشق على أن تفوتنى صحبة الشيخ رضى الله عنه.

فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحما بِخَلٍّ فقلت فى نفسى: ليت الشيخ يطعمنى لقمة من يده فما استتممت الخاطر إلا وقد دفع فى فمى لقمة فى يده ثم قال:

نحن إذا صحبنا تاجرا ما نقول له اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له اترك طلبك وتعال، ولٰكن نقر كل أحد فيما أقامه الله فيه، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه.

وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ فما قال لتاجر اترك تجارتك ولا لذى صنعه اترك صنعتك بل أقرهم على أسبابهم وأمرهم بتقوى الله فيها.

وسمعته يقول: سافرت إلى «قوص» ومعى خمس أنفس: الحاج سليمان، وأحمد بن الزين، وأبو الربيع، وأبو الحسن المرسى، وفلان، فقال لى إنسان: ما الذى تقصد بسفرك يا سيدى؟ فقلت له: أدفن هؤلاء بقوص وأجىء؛ فدفنت الخمسة بها، أما الحاج سليمان فما مات حتى شرب من حوض الكوثر، وأخبرنى بعض أصحابه قال: نزل عنده بعض الأعيان فقال فى نفسه: أشتهى من ينبهنى قبل الفجر بمنزلة ويأتى بإبريق ماء سخن ويأتينى بسراج ويرينى محل الطهارة قال: فما كان قبل الفجر إلّا وطارق يطرق الباب؛ فخرجت فإذا هو الشيخ فقال: الوقت قبل الفجر بمنزلة وهذا إبريق فيه ماء سخن وهذه شمعة تعال حتى أريك محل الطهارة.

وكنت قلت لبعض أصحاب الشيخ: أريد لو نظر إلى الشيخ بعناية وجعلنى فى خاطره؛ فقال ذلك للشيخ؛ فلما دخلت على الشيخ رضى الله عنه فقال: لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده.

ثم قال: أى شىء تريد أن تكون، والله ليكونن لك شأن، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله «ليكونن لك شأن عظيم»، فكان من فضل الله سبحانه ما لا ننكره.

وأخبرنى سيدى جمال الدين ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ، هم يريدون يصدرون ابن عطاء الله فى الفقه. فقال الشيخ:

هم يصدرونه فى الفقه، وأنا أصدره فى التصوف.

ودخلت أنا عليه فقال لى: إذا عوفى الفقيه ناصر الدين يجلسك فى موضع جدك؛ ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية؛ وتتكلم إن شاء الله فى العلمين فكان ما أخبر به رضى الله عنه.

سمعته يقول: أريد أن أستنسخ كتاب التهذيب لولدى جمال الدين، فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أعلم الشيخ، وأتيته بالجزء الأول فقال: ما هذا؟ قلت: كتاب التهذيب استنسخته لكم، فأخذه فلما نهض ليقوم قال: اجعل بالك؛ الولى لا يتفضل عليه أحد تجد هذا إن شاء الله فى ميزانك، فلما أتيته بالجزء الثانى لقينى بعض أصحابه بعد نزولى من عنده؛ وقال: قال الشيخ عنك: والله لأجعلنه عينا من عيون الله يقتدى به فى العلم الظاهر والباطن، فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من عنده لقينى بعض أصحابى وقال: طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء، فقال: هذا كتاب استنسخه لى ابن عطاء الله، فوالله ما أرضى له بجلسة جده، ولكن بزيادة التصوف.

وأخبرنى بعض أصحابه قال: قال الشيخ يومًا: إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية، فأعلمونى به. فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك. فقال: تقدّم فتقدمت بين يديه، ثم قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذّبته قريش، فقال له جبريل عليه السلام:هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك فى قريش. فسلم عليه مَلَك الجبال وقال: يامحمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين فعلت. فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحّد الله ولا يشرك به شيئًا، فصبر عليهم رسول الله ﷺ رجاء من يخرج من أصلابهم[1]، كذلك صبرنا على جدّ هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه.

وخرجت يومًا من عند الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه وخرج معى أبو الحسن الجزيرى - وكان من أصحاب الشيخ أبى الحسن - فسلمت عليه فسلّم علىّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفنى؟ فقال: وكيف لا أعرفك! كنتُ يومًا جالسًا عند الشيخ أبى العباس

---

(١) عندما لقى رسول الله ﷺ من أهل الطائف الكثير من الأذى ودعا دعاءه المشهور: «اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوّتى وقلّة حيلتى وهوانى على الناس. عند ذلك نزل عليه جبريل ومعه مَلك الجبال وكما روى البخارى بسنده عن عائشة قالت للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من أحد؟ فقال:

لقد لقيت من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم بعد يوم العقبة إذ عرضت نفسى على عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت على وجهى وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وماردّوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فنادانى ملك الجبال فسلّم على فقال: يا محمد ذلك لك: إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبى ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا» وانظر الروض الأنف ٤/٥٦ - ٥٧.

وكنتَ أنت عنده فلما نزلت قلتُ له: يا سيدى إنه ليعجبنى هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة، وهذا الشاب ملازم قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيًا يدعو إلى الله. فكان كما قال الشيخ ولله الحمد.

وأخبرنى أبو الحسن هذا قال: كنت ليلةً عند الشيخ أبى الحسن، وكان يقرأ عليه كتاب «ختم الأولياء» للترمذى الحكيم، فرأيت واحدًا جالسًا لم يطلع معنا. ولم يكن عند الشيخ وقت طلوعنا، فقلت لإنسان إلى جانبى: من هذا الرجل الجالس إلى جانب فلان؟

فقال: ما ههنا أحد غير الجماعة الذين تعرفهم، فسكتُّ وعلِمْتُ أنه لم يرَه فلما انصرف الجمع سألت الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه فقلت: يا سيدى رأيت هنا رجلًا لم يطلع معنا ولم يكن عندك قبل طلوعنا، فقال الشيخ: ذاك أبو العباس المرسى يأتى كل ليلة من المقسم حتى يسمع الميعاد ثم يعود من ليلته إلى مكانه والشيخ أبو الحسن إذ ذاك بالإسكندرية.

وكنت كثيرًا ما يطرأ علىّ الوسواس فى الطهارة فبلغ ذلك الشيخ أبا الحسن فقال: بلغنى أن بك وسواسًا فى الوضوء.

قلت: نعم.

فقال رضى الله عنه: هذه الطائفة تلعب بالشيطان، لا الشيطان يلعب بها، ثم مكثت أيامًا ودخلت عليه فقال: ما حال هذا الوسواس؟ فقلت: على حاله.

فقال: إن كنت لا تترك هذه الوسوسة لا تعد تأتينا، فشقّ ذلك علىّ وقطع الله الوسواس عنى.

وكان رضى الله عنه يلقّن للوسواس: «سبحان الملك الخلاق، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز».

وعملت فيه قصيدة أمدحه بها سيأتى ذكرها إن شاء الله آخر الكتاب فقال – حين أنشدتُ –: أيدك الله بروح القدس. ثم عملت قصيدة أخرى بإشارته – جوابًا لقصيدة مدحه بها إنسان من بلاد أخميم وسيأتى ذكرها أيضًا آخر الكتاب إن شاء الله تعالى – فلما قرئت عليه قال: هذا الفقيه صحبنى وبه مرضان، وقد عافاه الله منهما، ولابدّ أن يجلس، ويتحدّث فى العِلْمين.

يشير الشيخ إلى مرض الوسوسة فقد انقطع عنى ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدّة التوسعة التى أجدها قد تساهلت فى بعض الأمور.

والمرض الآخر: كان بى ألم برأسى فشكوت ذلك إليه فدعا لى، فعافانى الله وشفانى.

وبتُّ ليلةً من الليالى مهمومًا، فرأيت الشيخ فى المنام فشكوت إليه ما أنا فيه، فقال: اسكت والله لأعلمنك علمًا عظيمًا، فلما استيقظت أتيت إلى الشيخ رضى الله عنه، فقصصت عليه الرؤيا فقال: هكذا تكون إن شاء الله.

وقدم يومًا من السفر فخرجنا للقائه فلما سلّمت عليه قال: يا أحمد كان الله لك، ولطف بك، وسلك بك سبيل أوليائه، وَبَهَّاك بين خلقه. فلقد وجدتُ بركة هذا الدعاء، وعلمت أنه لا يمكننى الانقطاع عن الخلق، وأنى مراد بهم، لقوله: «وبهّاك بين خلقه».

وكنت أنا لأمره من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صحّ نقله عنه، حتى جرت بينى وبين بعض أصحابه مقاولة، وذلك قبل صحبتى إياه، وقلت لذلك الرجل:

ليس إلّا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدّعون أمورًا عظامًا وظاهر الشرع يأباها. فقال ذلك الرجل: بعد أن صحبت الشيخ، تدرى ما قال لى الشيخ يوم تخاصمنا؟ قلت: لا.

قال: دخلت عليه فأوّل ما قال لى: هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك، فعلمت أن الشيخ كوشف بأمرنا، ولعمرى لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عامًا فما سمعت منه شيئًا ينكره ظاهر العلم، من الذى كان ينقله عنه مَن يقصده بالأذى.

وكان سبب اجتماعى به أن قلت فى نفسى بعد أن جرت المخاصمة بينى وبين ذلك الرجل: دعنى أذهبُ أرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه. فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها فقال:

الأول: إسلام.

والثانى: إيمان.

والثالث: إحسان.

وإن شئت قلت: الأوّل عبادة.

والثانى: عبودية.

والثالث: عبودة.

وإن شئت قلت: الأوّل شريعة.

والثانى: حقيقة.

والثالث: تحقق، أو نحو هذا.

فمازال يقول: «وإن شئت قلت» «وإن شئت قلت» إلى أن بهر عقلى وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهى، ومدد ربّانى، فأذهب الله ما كان عندى، ثم أتيت تلك الليلة، إلى المنزل فلم أجد فىّ شيئًا يقبل الاجتماع بالأهل على عادتى، ووجدت معنى غريبًا لا أدرى ما هو، فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء، وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملنى ذلك على العودة إليه مرةً أخرى، فأتيت إليه فاستؤذن علىّ فلما دخلت عليه، قام قائمًا وتلقّانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلًا واستصغرت نفسى أن أكون أهلًا لذلك، فكان أوّل ما قلت له: ياسيدى أنا والله أحبّك.

فقال: أحبّك الله كما أحببتنى، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان فقال رضى الله عنه:

أحوال العبد أربعة لا خامس لها:

النعمة والبليّة، والطاعة، والمعصية.

فإن كنتَ بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر.

وإن كنت بالبليّة فمقتضى الحق منك الصبر.

وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منّته عليك.

وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.

فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوبًا نزعته ثم سألنى بعد ذلك بمدّة كيف حالك؟

فقلت: أفتّش على الهم فلا أجده، فقال رضى الله عنه:

ليلى بوجهك مقمر وظلامه فى الناس سار
والناس فى سدف الظلا م ونحن فى ضوء النهار

الزم. فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيًا فى المذهبين، يريد
مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر
ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن.

البـاب الرابـع

فى علمه وزهده وورعه ورفع همته وحلمه وصبره وسداد طريقته

كان رضى الله عنه لا تتحدث معه فى علم من العلوم إلّا تحدث معك فيه، حتى يقول السامع: إنه لا يحسن غير هذا العلم - لاسيّما علم الحديث والتفسير.

وكان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه.

وكان كتابه فى أصول الدين «الإرشاد»، وفى الحديث كتاب «المصابيح»، وفى الفقه «التهذيب والرسالة» وفى التفسير كتاب ابن عطية[1].

ولقد كان يقرأ عليه بعض المغرقين فى العربية فيردّ عليه اللحن.

وأما علوم المعارف والأسرار فقطب رحاها وشمس ضحاها، تقول إذا سمعت كلامه: هذا كلام من ليس وطنه إلّا غيب الله، هو بأخبار أهل السماء أعلم منه بأخبار أهل الأرض.

وسمعت أن الشيخ أبا الحسن قال عنه: أبو العباس بطرق السماء أعرف منه بطرق الأرض.

كنت لا تسمعه يتحدث إلّا فى العقل الأكبر، والاسم الأعظم، وشعبه الأربع، والأسماء، والحروف، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملاك المقربين عند العرش، وعلوم الأسرار، وأمداد الأذكار، ويوم المقادير، وشأن التدبير، وعلم البدء، وعلم المشيئة، وشأن القبضة، ورجال القبضة، وعلوم الأفراد وما سيكون يوم القيامة من أفعال الله مع عباده من حلمه وإنعامه، ووجود انتقامه، حتى لقد سمعته يقول:

والله لولا ضعف العقول لأخبرت بما يكون غدًا من رحمة الله.

وإن تنزل إلى علوم المعاملة ففى الزمن اليسير لحاجة الخلق إلى ذلك؛ ولذلك قلّ أتباع من هذه علومه، وقد يكثر المشترى للمرجان، وقل أن يجتمع على شراء الياقوت اثنان؛ ولذلك كان يقول رضى الله عنه:

أتباع أهل الحق قليلون وقد قال الحق سبحانه:

﴿وقليل ما هم﴾.

وقال سبحانه: ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾.

---

(١) كتاب ابن عطية: هو كتاب المحرر الوجيز، وله من اسمه نصيب، فهو محرر، وهو فى عرف ابن عطية وجيز، وإن كان متوسط الحجم، وما زال الكتاب مخطوطًا، ولكن عدّة جهات تعمل على نشره، ونرجو الله له التوفيق.

وقال سبحانه: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وقال فى أهل الكهف: ﴿ما يعلمهم إلّا قليل﴾.

فأولياء الله أهل كهف الإيواء فقليل من يعرفهم.

وسمعته رضى الله عنه يقول: معرفة الولىّ أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله. ومتى حتى تعرف مخلوقًا مثلك، يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب.

وأما زهده فى الدنيا فيستدلّ على الزهد فى الدنيا بالزهد فى الرئاسة، ويستدلّ على الزهد فى الرئاسة بالزهد فى الاجتماع بأهلها، ولقد مكث رضى الله عنه بالإسكندرية ستًا وثلاثين سنة ما رأى وجه متولّيها ولا أرسل إليه، وطلب ذلك المتولّى بالإسكندرية فأبى الشيخ من ذلك.

وقال له الزكى الأسوانى: يا سيدى متولى الإسكندرية قال: إنه يريد الاجتماع بك، ويأخذ بيدك فتكون شيخه.

فقال له الشيخ: يا زكى، لست ممن يُلعب به، والله إنى ألقى الله، ولا يرانى (المتولّى) ولا أراه فكان كذلك.

وكان إذا نزل بلدةً وقيل له: متولّى البلد يريد أن يأتيك غدًا، سافر هو ليلًا.

ولقد كان يأتى إليه متولّى الثغر وناظره ومشدّ الدواوين به، قليلة إتيانهم، يغلب القبض عليه، ولا ينبسط للكلام كحاله فى عدم حضورهم، حتى كنّا نقول: ليت ذلك الكلام الذى كان فى غيبتهم كان ليلة حضورهم.

ولقد أتى إليه الشجاعى فى بحبوحة عزّه، وتمكّنه من السلطنة، فما ألوى إليه عنان همّته، ولا فوّق إليه سهام عزيمته، حتى لقد بلغنى أن الزكى الأسوانى لما استعرض للشجاعى حوائجه قال للشيخ: يا سيدى اطلب منه أرضًا يزرعها أصحابك.

فقال: يا زكى هذا ما لا يكون أبدًا.

ومن زهده رضى الله عنه أنه خرج من الدنيا وما وضع حجرًا على حجر، ولا اتخذ بستانًا؛ ولا افتتح سببًا من أسباب الدنيا؛ ولا خلف وراءه ورقة مع أن الزهد وصف من أوصاف القلوب يصف الله به قلب من أحبّه، ولكن له علامات تدل عليه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: رأيت الصِّدّيق فى المنام؛ فقال لى: أتدرى ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قلت: لا أدرى؛ قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد، ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المنام؛ فقلت: يا أمير المؤمنين ما علامة حبّ الدنيا؟ قال: خوف المذمّة وحبّ الثناء.

فإذا كان علامة حبّها خوف المذمّة؛ وحبّ الثناء، فعلامة الزهد فيها وبغضها أن لا يخاف المذمّة ولا يحب الثناء.

وأما ورعه فلقد أخبرنى بعض أصحابه أنه دخل يومًا بيت واحد من الجماعة فى البرج الذى هو فيه فوجده يضرب فيه وتدًا؛ قال: فاتفق للشيخ من الحرج الأمر الكبير، وقال كيف يحلّ لك أن تتصرف فى الحبس[٢] بأمر لم يؤذن لك فيه.

وكان يقول: والله ما دخل بطنى حرام قط.

وكان يقول: الورع من ورَّعه الله.

وقال رضى الله عنه: عزم علينا بعض صلحاء الإسكندرية فى بستان له بالرمل، فخرجت أنا وجماعة من صلحاء الثغر، ولم يخرج معنا صاحب البستان ذلك الوقت، بل وصف لنا المكان فتجارينا ونحن خارجون الكلام فى الورع، فكلٌ قال شيئًا، فقلت لهم: إنما الورع من ورعَّه الله، فلما أتينا البستان، وكان زمن ثمرة التوت كلهم أسرع إلى الأكل وأكل، وكنت كلما جئت لآكل أجد وجعًا فى بطنى، فأرجع فينقطع الوجع عنى، فعلت ذلك مرارًا فجلست ولم آكل شيئًا، فهم يأكلون، وإذا بإنسان يصيح: كيف يحلّ لكم أن تأكلوا من ثمرة بستانى بغير إذنى، فإذا هم قد غلطوا بالبستان، فقلت لهم: ألم أقل لكم إن الورع من ورعه الله سبحانه؟

واعلم رحمك الله أن ورَع الخصوص لا يفهمه إلاّ قليل فإن من جملة ورَعهم تورّعهم عن أن يسكنوا لغيره أو أن يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم بالطمع فى غير فضله وخيره.

ومن ورعِهم ورعُهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب، وخلع الأنداد والأرباب.

ومن ورعِهم ورعُهم عن الوقوف مع العادات، والاعتماد على الطاعات، والسكون إلى أنوار التجليّات.

ومن ورعِهم ورعُهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة، تورّعوا عن الدنيا وفاءً وعن الوقوف مع الآخرة صفاءً.

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء: خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت علىّ: بعزّها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها، فأعرضت عنها، فعرضت على الجنة: بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها.

فقيل لى: يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية، ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنّا، فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك.

وقال الشيخ عبد الرحمن المغربى - وكان مقيمًا بشرقى الإسكندرية - حججت سنةً من السنين، فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الإسكندرية، فإذا قائل يقول لى: إنك العام القابل عندنا، فقلت فى نفسى: إذا كنت العام القابل ههنا فلا أعود إلى الإسكندرية، فخطر لى الذهاب إلى اليمن، فأتيت إلى «عدن» فأنا يومًا على ساحلها أمشى، وإذا أنا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم، ثم نظرت فإذا رجل قد فرش سجادةً على البحر، ومشى على الماء فقلت فى نفسى: لم أصلح للدنيا ولا للآخرة، فإذا قائل يقول لى: من لا يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

(٢) الحبس: هو الوقف - والمراد أنه يدق وتدًا فى بناء الوقف.

وقال الشيخ أبو الحسن:

الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثُه وأجل ثوابُه.

فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله، وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله، على البيّنة الواضحة والبصيرة الفائقة.

فهم فى عموم أوقاتهم، وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكّرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلّا بالله ولله من حيث يعلمون، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون فى عين الجمع لا يتفرّقون فيما هو أعلا، ولا فيما هو أدنى، وأما أدنى الأدنى: فالله يُورِّعهم عنه ثوابًا لورعهم، مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى، وميراثه التعزز لخلقه، والاستكبار على مثله، والدلالة على الله بعلمه، فهذا هو الخسران المبين، والعياذ بالله العظيم من ذلك.

والأكياس يتورّعون عن هذا الورع، ويستعيذون بالله منه، ومن لم يزدد بعلمه وعمله افتقارًا لربّه، وتواضعًا لخلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيرًا من الصالحين بصلاحهم عن مصلحتهم كما قطع كثيرًا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم.

فانظر فهّمك الله سبيل أوليائه، ومنَّ عليك بمتابعة أحبّائه هذا الورع الذى ذكر الشيخ رضى الله عنه: هل كان فهمك يصل إلى مثل هذا النوع من الورع؟ ألا ترى قوله: «فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البيّنة الواضحة والبصيرة الفائقة».

فهذا هو ورع الأبدال والصدّيقين لا ورع المتنطّعين الذى ينشأ عنه سوء الظنّ وغلبة الوهم.

وأما رفع همته فكان آتيًا من ذلك بالعجب العجاب، وقد تقدم من رفع همته عن ولاة الأمر مع استعراضهم لحوائجهم وتطارحهم عليه.

وقال رضى الله عنه يومًا لأصحابه: جاءنى اليوم الطواشىُّ بهاء الدين وهو مشدّ الدواوين إذ ذاك والفقيه شمسُ الدين الخطيب – وهو يومئذ ناظر الأحباس[٣] – فقالا لى: إن هذه القلعة تحتاج إلى حصر وزيت، وقناديل، ويحتاج الفقراء فيها ما يأكلون ونحن حكّام الوقت نطلق لها شيئًا فى كل شهر.

قال: فقلت لهم: حتى أشاور أصحابى، وأنتم أصحابى فماذا تشيرون؟

فلم يرجع إليه أحد جوابًا، فأعاد الأمر مرارًا فلم يجبه أحد.

فقال: اللهم اغننا عنهم، ولا تغننا بهم إنك على كل شىء قدير، ولم يجبهم إلى ما ذكروا، ومات الشيخ رضى الله عنه، وليس للمكان مرتّب ولا معلوم.

وسمعته رضى الله عنه يقول: والله ما رأيت العزّ إلّا فى رفع الهمة عن الخلق.

وسمعته يقول: رأيت كلبًا فى المحجة، ومعى شىء من الخبز فوضعته بين يديه، فلم يلتفت إليه،

---

(٣) الأحباس: الأوقاف.

فقربته من فيه فلم يلتفت إليه، فإذا قائل يقول لى: أفّ لمن يكون الكلب أزهد منه.

وسمعته يقول: خرجت يومًا أشترى حاجة من بعض من يعرفنى بنصف درهم، فقلت فى نفسى: ولعلّه لا يأخذه منى، فإذا قائل يقول لى: السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين.

قال: فأتيت إلى الموضع الذى كنت مقيمًا به، ودخلت وأغلقت الباب، فأنا جالس، وإنسان قد فتح الباب بمرّة[٤]، وقال: بماذا تكون السلامة فى الدين؟

قال: فقلت: بترك الطمع فى المخلوقين، فأخذها كأنما كانت ضالّةً وجدها، فتبين من حاله أن الشيخ أبا الحسن كان قد قال له: اذهب إلى موضع الغلة، فاكتل لك ثلاث ويبات، فذهب فاكتال لنفسه إردبًّا، فبلغ ذلك الشيخ فقال: دعوا ما اكتاله فى موضعه، وأعطوه ثلاث ويبات التى كنّا أعطيناه إياها.

وقال رضى الله عنه: الطمع ثلاثة أحرف، كلها مجوفة فهو بطن كله؛ فلذلك صاحبه لا يشبع أبدًا.

وكان يقول رحمه الله: للناس أسباب، وسببنا نحن الإيمان والتقوى قال الله سبحانه: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوْا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[٥]. تنبيه وإعلام:

اعلم أن رفع الهمّة عن الخلق شأن أهل الطريق، وصفة أهل التحقيق، ولقد سئل الجنيد: أيزنى العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، ولعمرى لو سئل: أيطمع العارف فى غير الله؟ لقال: لا، وإنما مراد الحق سبحانه أن يعبده العباد فى كل شىء حُبًّا وثقةً، وتوكلًا وخوفًا ورجاءً، وذلك الذى تستحقه فرديته.

وكان بعض العارفين ينشد:

حرام على من وحّد الله ربّه ... وأفرده أن يجتدى[٦] أحدًا رفدا
ويا صاحبى قف لى مع الحق وقفة ... أموت بها وجدًا وأحيى بها وجدا
وقل لملوك الأرض تجهد جهدها ... فذا المُلْكُ مُلك لا يباع ولا يُهدى

ورفع الهمة إنما ينشأ عن صدق الثقة بالله.

وصدق الثقة بالله إنما ينشأ عن الإيمان بالله على سبيل المعاينة والمواجهة، فيوجب لهم إيمانهم الإعزازَ بالله، قال الله سبحانه:

﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾[٧].

والنصر من عند الله، قال سبحانه:

﴿وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين﴾[٨].

(٤) مرّة بكسر الميم أى قوّة.
(٥) الأعراف: ٩٦.
(٦) يجتدى: يطلب العطاء.
(٧) المنافقون: ٨.
(٨) الروم: ٤٧.

والنجاة من العوارض الصادّة عن الله قال سبحانه:

﴿كذلك حقًّا علينا ننْجِ المؤمنين﴾[٩].

فعزّ المؤمن بالله ثقته بمولاه، ونصرته على نفسه وهواه، ونجاته من العوارض أن تقطعه عن سبيل هداه.

وشعار أهل الإرادة ودثارهم الاكتفاء بالله، ورفع الهمّة عمّا سواه، وصيانة ملابس الإيمان من أن تدنس بالميل إلى الأكوان، والطمع فى غير الملك المنّان.

ولنا فى هذا المعنى:

بكرت تلوم على زمان أجحفا	فصدفت[١٠] عنها علّها أن تصدفا
لا تكثرى عتبا لدهرك إنه	ما أن يطالب بالوفاء ولا الصفا
ما ضرنى أن كنت فيه خاملاً	فالبدر بدر إن تبدّى أو خفى
الله يعلم أننى ذو همّة	تأبى الدنايا عفّةً وتطرّفا
لم لا أصون على الورى ديباجتى	وأريهم عزّ الملوك وأشرفا
أأريهم أنى الفقير إليهم	وجميعهم لا يستطيع تصرّفا
أم كيف أسأل رزقه من خلقه	هذا- لعمرى إن فعلت- هو الجفا
شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله	عجزٌ أقام بحامليه على شفا
فاسترزق الله الذى إحسانه	عمّ البريّة منّةً وتعطُّفا
والجأ إليه تجده فيما ترتجى	لا تعد عن أبوابه متحرِّفا

والذى يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله: علمك بأنه لم يخرجك إلى مملكته إلّا وقد كفاك، ومنحك وأعطاك، ولم يبق لك حاجة عند غيره، وإذا كان قد اقتضى لهم الفهم عن الله أن يكتفوا بعلمه عن مسألته، فكيف لا يوجب لهم الفهم عن الله الاكتفاء بعلمه عن سؤال خلقه؟

ومن فاتحه الحق سبحانه بشىء مما فاتح به أحبّاءه فقد اقتضى منه رفع همته إليه كما اقتضاه من غيره وأولى.

ألم تسمع قوله سبحانه:

﴿ولقد آتيناك سبْعا من المثانى والقرآن العظيم. لا تمدَّنَّ عينيك﴾[١١] الآية. وكيف لا تكون منّته فيك ومواهبه وفواتح عنايته وخصائص ولايته، ناهية لك عن التعلق بغيره؟

وكان بعض العارفين ينشد:

أبعد نفوذى فى علوم الحقائق	وبعد انبساطى فى مواهب خالقى
وفى حين إشراقى على ملكوته	أُرَى باسطًا كفًّا إلى غير رازقى؟

---

(٩) يونس: ١٠٣.　　(١٠) صدفت: أى أعرضت.

(١١) الحجر: ٨٧، ٨٨ – وتمام الآيتين: ﴿لا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجًا منهم، ولا تحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

فإن كل ذى رتبة من المخلوقين لا يرضى منك أن تنسب له رتبة تضيف المنع والعطاء والولاية والعزل فيها لغيره؟

فاحذر أن تكون من الذين قال الله سبحانه فيهم:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾[١٢].

وقبيح أن تكون فى دار ضيافته وتوجِّه وجه طمعك لغيره.

ولنا فى هذا المعنى:

أيحسن بى أنى نزيل ذراكم[١٣] أُوجِه يومًا للعباد رجائيا
بلى إننى ألوى إليك أخلف فيها ما سواك ورائيا

ولا تطلب ممن هو بعيد عنك، وتترك الطلب من مولى هو أقرب إليك من حبل الوريد.

ألم تسمع قول الله تعالى:

﴿وإذا سألك عبادى عنّى فإنى قريب﴾[١٤] الآية.

وقال سبحانه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾[١٥] الآية.

وقال سبحانه: ﴿ادعونى أستجب لكم﴾[١٦].

وقال سبحانه: ﴿واسألوا الله من فضله﴾[١٧].

وقال سبحانه: ﴿وإن من شىء إلّا عندنا خزائنه﴾[١٨].

كل ذلك ليجمع هم عباده عليه، وكيْلا يرفعوا حوائجهم إلّا إليه.

وأما حلمه رضى الله عنه فكان من شأنه أنه لا ينتقم لنفسه ولا ينتصر لها.

ولقد دخلت عليه يومًا فقال لى: ما تقول فى فلان - رجل كان قد آذى الشيخ الأذى البالغ، أتى إلى أصحاب فلان بعض من كان له الأمر فى ذلك الزمن، وكان يتردّد إلى الشيخ وقالوا: يا سيدى هذا الرجل الذى آذاك نسعى فى ضربه وإشهاره فى البلدتين مصر والقاهرة فماذا تقول أنت؟ قلت: مصلحة.

فقال كالمنكر: لأى شىء؟ قلتُ ذاك حتى يُتشفى منه. قال: أنا ما أتشفّى من أحد. قلت: إنما أردت الأتباع، قال: ولا نحمل أتباعى على التشفّى. فأطرقت خجلًا فما توجّه أحد لنا بالأذى بعد ذلك، فنزلت به نازلة، فهمّت النفس بالتشفّى منه إلّا وذكرت كلام الشيخ: «أنا ما أتشفى من أحد» حتى كأنى قد سمعته ذلك الوقت، فتخمد النفس عن التشفى بذلك، واتفق بعد مدة نحو

(١٢) يوسف: ١٠٦.

(١٣) الذرى: الكنف والضيافة والستر والدفء.

(١٤) البقرة: ١٨٦ وتمامها: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾.

(١٥) ق: ١٦.

(١٦) غافر: ٦٠.

(١٧) النساء: ٣٢.

(١٨) الحجر: ٢١.

خمسة عشر عامًا أن الذى كان قد سعى فى أذيّة الشيخ سعى فى إذايتنا فاتفقت له نازلة، فصاننى الله من التشفّى منه وسلّم.

وكان الشيخ يقول: هذا الذى استشرتك فيه سيتّفق لك معه مثل ما اتفق لى، فافعل معه كما فعلت معه، وهذا هو كلام الأكابر يطوى فى صحائف قلوب المريدين، حتى إذا جاء وقته أظهره الحق سبحانه، كأنك قد سمعته فى ذلك الوقت.

وربما أحضر الله بفكرك شيخك الذى خاطبك به بهيئته وزيّه، وربما تمثّل ذلك فى الخيال المنفصل.

وربما حضر بوجوده الحسّى عند وجود النوازل مثبّتًا للمريد ومعلمًا.

وسمعته رضى الله عنه يقول: ما سمعتموه منى ففهمتموه فاستودعوه الله يردّه عليكم وقت الحاجة، وما لم تفهموه فكلوه إلى الله يتولّى الله بيانه.

فكلام الأكابر مردود على المريدين وقت حاجاتهم فيظّن المريد أنه ما أخذ ولقد أخذ، ولكن للحكمة بذر ونبات، ووقت البذر غير وقت النبات، وقد يبذر فيك بذر الحكمة ويبقى النبات موقوفًا على مجىء سحابة ماطرة، فإذا جاءت أظهرت من الأرض ما كان فيها كامنًا، فتبقى الودائع مطوية فى العباد حتى تجىء أوقاتها.

وبلغنى عن الشيخ أبى الحسن أنه كان يقول: لا حجاب إلّا الوقت.

وسمعته يومًا يقول: كان إذا آذانى إنسان يهلك للوقت وأنا الآن لست كذلك. فرآنى رضى الله عنه مستشرفًا لسبب ذلك، فقال: اتسعت المعرفة. وسمعته يقول: لحوم الأولياء مسمومة!

واعلم علّمك الله من العلم الذى يدلّ عليه، وجعلك من الدائمين بين يديه. أن انتصار الحق لأوليائه ليس ذلك لهم لأنهم طلبوه من الله، ولكن لما صدقوا التوكل عليه، وأرجعوا الأمر إليه انتصر الحق لهم، ألم تسمع قوله تعالى:

﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾.

وقوله عز وجل:

﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسْبه﴾.

ولا تقولن هم ممن ينتصر لنفسه منك، بل عدهم ممن ينتصر الله له، فإنه الغالب الذى لا يغلب، والقادر الذى لا يعجز، والقاهر الذى لا قبل لأهل السموات والأرض بذرّة من بلائه، ولو وضع ذرّات قهره على الجبال لأذابتها.

ومعنى قول الشيخ: «اتسعت المعرفة» أن المريد فى مبدأ إرادته بهمّته، وفى نهايته بوجود معرفته، فإذا كان فى مبدأ إرادته توجّه بصدق الهمّة إلى الله لاجئًا إليه فى الانتقام ممن آذاه فينتصر الحق له لتوجهه بصدق الهمة فى طلب النصرة، ولضيق عطنه عن الصبر على تأخر الانتقام له، والعارف اتسع عليه بحر المعرفة، فانطوت همته وإشاءته وتدبيره فى إشاعة الحق له، وتدبيره إياه. ومن غلب عليه شهود المشيئة فأىّ همّة تبقى له!

وأيضًا: إنه إذا أخرت عقوبة من آذاه شهد حسن اختيار مولاه، فلم يعجل له الانتصار؛ لأنه لا يخشى عليه ما يخشى على المريد من عدم الصبر إذا أخر الانتقام له.

وأيضًا: إن العارف لما توجّه لطلب الانتقام ممن ظلمه قامت الرأفة والرحمة القائمتان به لتخلُّقه بخلُق معروفة[١٩] فمنعاه من الانتصار وإن كان على ذلك قادرًا، وكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعّالًا فيهم؟!

ثم أولياء الله إذا ظُلموا على طبقات:

داع يدعو على من ظلمه، استثار الأذى منه القرح، واستخرج منه الاضطرار، فهذا الذى لا يردّ دعاؤه ومنه قوله ﷺ:

«واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٢٠].

القسم الثانى: وهم الذين إذا ظُلموا لجئوا إلى الله سبحانه فى طلب النصرة وتعجيل الإجابة، غير أنهم علموا أن الله يعلم السر وأخفى فرفعوا أمرهم إلى الله سرّاً بسرّ وهؤلاء أَوْلى بانتصار الحق لهم لتوكلهم عليه، ولإرجاعهم الأمر إليه، وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسْبُه﴾[٢١].

ولقد ذكر أن امرأةً كان لها دجاجة، ليس عندها غيرها، وكانت تتقوّت من بيضها فجاء سارق فسرقها، فلم تدع عليه، وأرجعت الأمر إلى الله سبحانه، فأخذ السارق الدجاجة فذبحها ونتف ريشها فنبت جميعه بوجهه، فسعى فى إزالة ذلك فلم يستطع، وسأل الناس فلم يقدر أحد على إزالة مانزل به، إلى أن أتى حبرًا من أحبار بنى إسرائيل، فقال: لا أجد لك دواءً إلاّ أن تدعو عليك المرأة التى سرقت دجاجتها، فإن فعلت ذلك شفيت.

فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك التى كانت عندك؟

قالت: سُرقت.

قالوا: لقد آذاك من سرقها.

قالت: قد فعل.

قالوا: وقد فجعك فى بيضها.

قالت: هو كذلك.

فما زالوا بها حتى أثاروا الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه.

فقيل لذلك الحبر: من أين علمت هذا؟

قال: إنها لما سرقت دجاجتها لم تدع عليه، ورجعت إلى الله فى أمره، فانتصر الله لها، فلما دعت

---

(١٩) أى لتخلقه بخلق الله سبحانه من الرحمة والرأفة.

(٢٠) رواه أحمد والبخارى فى الزكاة والجهاد والمظالم والمغازى، ومسلم فى الإيمان، وأبو داود فى الزكاة، والترمذى فى الزكاة، والنسائى فى الزكاة، وابن ماجه فى الزكاة، والدارمى فى الزكاة.

(٢١) الطلاق: ٣.

انتصرت لنفسها، فسقط الريش من وجه السارق.

القسم الثالث: عباد لما ظلموا لم يدعوا ولم يلجئوا إلى الله فى طلب الانتقام ممن ظلمهم، ولكن فوضوا الأمر إلى الله، فكان هو المختار لهم.

القسم الرابع: وهم الطبقة العليا وهم الذين إذا ظلموا رحموا من ظلمهم.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه.

وإذا آذاك ظالم فعليك بالصبر والاحتمال، واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان، ظلم غيرك لك، وظلمك لنفسك؟

فإذا فعلت ما ألزمت به من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تعفو وتصفح، وربما أثابك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعو له، فتجاب فيه دعوتك.

وما أحسن حالك إذا رُحم بك من ظلمك، فتلك درجة الصديقين الرحماء: ﴿فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾(٢٢).

ومن هذا القبيل الذى ذكره الشيخ أبو الحسن: ما اتفق لإبراهيم بن أدهم - رضى الله عنه - أنه قال له جندى: أين العمران؟ فأشار إلى المقابر، فظن أنه يهزأ به، فضربه فشجه، فطأطأ رأسه، وقال: اضرب رأسا طال ما عصت الله تعالى.

فقيل للجندى: هذا إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان، فانكب على رجليه يقبلهما، ويعتذر إليه، فقال له ابراهيم بن أدهم: والله مارفعت يدك من ضربى إلا وأنا أسأل الله لك المغفرة لأنى علمت أن الله يثيبنى على مافعلت بى، ويؤاخذك على مافعلت: فاستحييت أن يكون حظى منك الخير وحظك منى الشر.

فقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: ليس هذا عين الكمال، مافعله الصحابى سعد أحد العشرة وهو عين الكمال، ادعت عليه امرأة أنه احتاز شيئًا من بستانها، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعمها وأمتها فى مكانها. فعميت وجاءت يوما تمشى فى بستانها، فوقعت فى بئر فماتت، فلو كان مافعله إبراهيم عين الكمال لكان الصحابى أولى به ولكنه كان سعد أمينا من أمناء الله، نفسه ونفس غيره عنده سواء، فما دعا عليها لأنها آذته، ولكن دعا عليها لأنها آذت صاحب رسول الله ﷺ، وإبراهيم لم يصل إلى هذه المرتبة، فترك الدعاء على الجندى لئلا يكون ذلك انتصارا لنفسه، وسعد رضى الله عنه قد خلصه الله من نفسه وأبرزه إلى الخلق، يخلص به من يشاء من عباده، والصوفى لا يستقضى الحق لنفسه ولكن يستقضى الحق لربه.

فـائدة:

إعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم فى بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتتكمل فيها المزايا، وكيلا يساكنوا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: جُبلت

---

(٢٢) آل عمران: ١٥٩.

القلوب على حب من أحسن إليها.

وقال ﷺ: من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا[٢٣] له. كل ذلك ليتَخلص القلب من إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك فى قلبك، وشرهم يصيبك فى بدنك، ولأن تصاب فى بدنك خير لك من أن تصاب فى قلبك، ولعدو تصل به إلى الله، خير لك من حبيب يقطعك عن الله، وعد إقبالهم عليك ليلًا وإعراضهم عنك نهارًا ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا؟

وتسليط الخلق على أولياء الله فى مبدأ طريقهم سنة الله فى أحبائه وأصفيائه، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقد تصحبه أنوار محبتك.

ومما يدلك على أن هذه سنة الله فى أحبائه وأصفيائه قول الله سبحانه: ﴿وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾[٢٤]، وقال عز وجل:

﴿حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾[٢٥].

وقوله عز وجل:

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض﴾[٢٦]، وقوله عز وجل:

﴿أُذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلَّا أن يقولوا ربنا الله﴾[٢٧].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

فمن حالهم فى بداياتهم طأطأ إبراهيم بن أدهم رأسه حين ضربه الجندى وقال: اضرب رأسا طال ماعصت الله تعالى.

وقوله: فرحت من عمرى مرتين.

مرة كنت فى مسجد فأصابنى البطن فكنت أقوم وأقعد، فجاء صاحب المسجد وأمرنى أن أخرج فلم أستطيع لقوة الضعف، فأخذ برجلى يجرنى حتى أخرجنى؟؟

والمرة الثانية: ركبنا فى سفينة وكان هناك مضحاك، فكان يقول: كنا نأخذ العلج فى بلاد الروم

---

(٢٣) رواه أبو داود والنسائى بإسناد صحيح بنحوه.

(٢٤) البقرة: ٢١٤.

(٢٥) يوسف: ١١٠.

(٢٦) القصص: ٥

(٢٧) الحج: ٣٩، ٤٠.

هكذا ويمد يده إلى لحيتى فيهزها فأعجبنى ذلك إذ لم ير فى السفينة من هو أحقر منى.

وهذا شأنهم فى بداياتهم علما منهم بوجود البقايا فيهم فخافوا أن ينتصروا فينتصروا لأنفسهم، فيسقطون من عين الله تعالى، فرجعوا إلى وجود الحلم كافين أيديهم عن الانتصار؛ لعلمهم بآفات الانتصار للنفس، وشرعة الحق سبحانه وعادته فى أصفيائه كثرة الأعداء والنصرة منه لهم عليهم.

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

آذانى إنسان مرة فضقت ذرعا بذلك فنمت فرأيت قائلا يقول لى: «من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالى بهم».

ويجب أن تعلم أن النفوس شأنها استحلاء الإقامة فى مواطن العز والرفعة، فلو تركها الحق سبحانه وما تريد لهلكت، فأزعجها عن ذلك بما يسلط عليهم من أذى المؤذين ومعارضة الحاسدين.

وقال بعض العارفين: الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب، إذا ساكنت غيره، لولا ذلك لرقد القلب فى ظل العز والجساه، وهو حجاب عن الله عظيم.

وصدق رضى الله عنه.

وهذا الصنع من حسن نظر الله تعالى لأوليائه وأحبائه، وإظهار لآثار ولايته فيهم لقوله عز وجل: ﴿الله ولى الذين آمنوا﴾.

فإنما تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم حكمهم فى العباد، فحينئذ يكون العبد المجتبى سيفا من سيوف الله تعالى ينتصر الله به لنفسه.

من هذا الباب دعا سعد على المرأة التى ادعت عليه كذبا وقال: اللهم أعم بصرها وأمتها فى مكانها، فاستجيب له، ولما دُخل على عثمان بن عفان رضى الله عنه الدار لطم إنسان وجه زوجته، فقال له عثمان رضى الله عنه: قطع الله يديك ورجليك وأدخلك فى النار.

فرئى ذلك الرجل بالشام وقد قطعت يداه ورجلاه، وهو يقول: دعوة عثمان استجيبت فى اثنتين وبقيت الثالثة، ولذلك قد تلتبس أحوال الرجال على عموم العباد فلا تُفضِّل وليا ظُلم فصفح على ولى ظلم فانتصر أو دعا، فقد يكون صفْح من صفَح لعلمه بالبقايا فى نفسه، ودعاء الداعى لعلمه بتطهيره من البقايا فدعا انتصارا لربه.

وأما صبره، فكان رضى الله عنه من الثابتين فى مركز الصبر، وكان به أمراض عديدة لو وضع بعضها على الجبال لذابت: كان به برد الكلى، وكان به الحصى، وكان به اثنا عشر باسورا وهو يجلس للناس، ولا يقطع الجلوس لهم ولا يتأوه فى حين جلوسه، ولا يعلم الجالس عنده أن به شيئا من الأمراض، ولم تكن الأمراض أورثته صفرة فى الوجه، ولا تغيرا فى البدن حتى كان يقول: لا تنظروا إلى حمرة وجهى فحمرة وجهى من قلبى.

ودخل عليه إنسان فوجد ألما به، فقال ذلك الرجل: عافاك الله يا سيدى. فسكت الشيخ رضى الله عنه ولم يجاوبه، ثم مكث ذلك الرجل ساعة، وقال: الله يعافيك يا سيدى. فقال الشيخ: وأنا سألت الله العافية، أنا قد سألته العافية والذى أنا فيه هو عين العافية.

رسول الله ﷺ قد سأل العافية، وقد قال رسول الله ﷺ: ما زالت أكلة خيبر تعتادنى فالآن قد قطعت أبهرى(٢٨).

عمر رضى الله عنه قد سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مطعونا.

عثمان رضى الله عنه قد سأل الله العافية وبعد ذلك مات مذبوحا.

على رضى الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مقتولا.

فإذا سألت الله العافية فاسألة العافية من حيث يعلمها لك إنها عافية.

وكان رضى الله عنه يقول: الصبر مشتق من الأصبار، وهو الغرض الذى يرمى عليه بالسهام، فالصابر من نصب نفسه غرضا لسهام القضاء.

وكان هجيراه يسأل الله اللطف قل أن يفتر عن ذكر ذلك.

ودخلت عليه يوما فوجدت ألما به فقلت: يا سيدى أظنك ضعيفا فقال رضى الله عنه: الضعيف من لا إيمان له ولا تقوى.

واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام:

صبر على الواجبات، وصبر على المحرمات، وصبر فى البليات.

وصبر الأكبار على كتم الأسرار، وفقد الركون إلى الآثار، وعدم الوقوف مع الأنوار.

صبرهم، على حمل الأذى، والثبوت تحت مجارى القضاء.

صبرهم على حمل أثقال العباد، والصبر مع الله فيما أراد.

صبرهم على القيام بأحكام العبودية، والثبوت لمجارى أحكام الربوبية.

صبرهم على مكارم الأخلاق؛ والقيام مع الله بشرط الوفاق.

صبرهم على جمع الهمم عليه، والرجوع فى كل أمرهم إليه.

صبرهم على الجلوس للخلق، والدلالة على الملك الحق.

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: والله ما جلست للخلق حتى هُدِّدت بالسلب. وقيل لى: لئن لم تجلس للناس لنسلبنك ما وهبناك.

وأما سداد طريقته، فكان رضى الله عنه شديد التحرز من حقوق العباد، مسرعا للوفاء بها حتى أنه يوفى الشىء قبل استحقاقه، ويحمل أصحابه على التخلص من حقوق العباد.

إذا كان عليه دين أحسن القضاء، وإذا كان له حق أحسن الاقتضاء، منقطعا عن أبناء الدنيا والتردد إليهم، لا يرفع قدمه لأحد منهم، ولا يبعث إليهم، ولا يكاتبهم إذا طلب منه أن يكتب إليهم، قال لطالب ذلك: أنا أطلب لك ذلك من الله، فإن رضى الطالب بذلك نجح مسعاه، ولطف به

---

(٢٨) الأبهر: عرق فى الظهر، يقال هو الوريد فى العنق، وقال أبو عبيد: «الأبهر: عرق مستبطن فى الصلب، والقلب متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة» اهـ.

مولاه متبتلا إلى الجلوس للخلق، لا تأتيه ليلا ولا نهارا إلا وجدته.

ولقد أتيته يومًا واستأذنت عليه، فقيل لى: اصبر قليلا، فتشوّشت من ذلك، وقلت: قد يكون بلغ الشيخ عنى ما أوجب تغيره.

فبعد ساعة أذن لى فدخلت، فقال الشيخ رضى الله عنه: اعذرنى، كانت ابنة الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه عندى فكرهت أن أقطع كلامها، والله ما أعد نفسى إلّا خادمًا من خدامهم!

وكان ينهى أن يُعوقَ المريد إذا جاءه ويقول: المريد يأتى بشعلة همّته، فإذا قيل له: قف ساعة؛ طَفيْتَ ما جاء به.

وكان لا يدلّ المريد على المتاعب والمشقات ولا يلزمه ذلك.

وكان يقول عن شيخه أبى الحسن: ليس الرجل من دلّك على تعبك، إنما الرجل من دلّكَ على راحتك.

ومبنى طريقته رضى الله عنه على الجمع على الله، وعدم التفرقة؛ وملازمة الخلوة والذكر.

ولكل مريد معه سبيل يحمل كلًّ واحد على السبيل التى تصلح له.

وكان لا يحب المريد الذى لا سبب له.

وكان يدلّ المريدين على الانجماع فى حبّه، ولا يُلزِم المريد أن لا يرى غيره.

وكان يقول عن شيخه رضى الله عنه: أصحبونى ولا أمنعكم أن تصحبوا غيرى، فإن وجدتم منهلًا أعذب من هذا المنهل فردوا.

وكان إذا دخل المريد فى أوراد بنفسه وهواه أخرجه عنها.

وكان إذا مُدِح بقصيدة أو أبيات يجيز المادح بإقباله، وربما واجهه بنواله. وكان مكرِمًا للفقهاء، ولأهل العلم وطلبته، إذا جاءُوه!

وكان يقول لأصحابه إذا جاء رئيس أو ذو وجاهة: عَرِّفُونى به.

وكان أزهد الناس فى ولاة الأمور، فإذا جاءُوه أكرمهم وربما مشى لهم خطوات.

وكان شديد التعظيم لشيخه أبى الحسن رضى الله عنه، حتى إنك كنت تشهد منه أنه لا ثبات منه لنفسه معه.

وكان ينشد إذا ذكر الشيخ رضى الله عنه هذه الأبيات:

لى سادة من عزّهم ... أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلى ... فى حبّهم عزّ وجاه

وكان من شأنه أن ما عُنِىَ به لا يأكله.

وكان يكره أن يعلم بطعام أو هدية قبل إتيانها.

وكان لا يدعو للمحسن بحضرته، بل إذا غاب دعا له بظهر الغيب.

وكان إذا أهدى له شيء يسير تلقّاه ببشاشة وقبول، وإذا أهدى إليه شيء كثير تلقّاه بالعزّ.

وكان لايمن على مريد ولا يرفع له علمًا بين إخوانه خشيةً عليه أن يُحسد.

وكانت صلاته موجزة فى تمام، وكان يقول: صلاة الأبدال خفيفة.

وكان إذا تلا تقول الكون كله مستمع له، وصلّى قيام رمضان سنةً، فقال: قرأت القرآن فى هذه السنة، كأنما أقرؤه على رسول الله ﷺ، ثم جاء رمضان الثانى، فقال: قرأته فى هذه السنة: كأنما أقرؤه على جبريل عليه السلام، ثم جاءت السنة الثالثة فقال: قرأته فى هذه السنة كأنما أقرؤه على الله عز وجل.

وكان إذا كانت ليلة القدر أخبر بها أصحابه، ودعا فيها بمقدار ما يدعو كل ليلة ثلاث مرات.

وكان يقول: أوقاتنا كلها والحمد لله ليلة قدر[٢٩].

وأنشدنا بعض إخواننا لبعض أهل الطريق فى المعنى:

لـولا شهـود جمـالكم فى ذاتى ... مـا كنت أرضى ساعـة بحياتى
مـا ليلة القـدر المعـظم شـأنها ... إلّا إذا عَمَـرَت بكم أوقـاتى
إن المحبَّ إذا تمكّن فى الهوى ... والحب لم يحتـج إلى ميقـات

وجاء الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه سنةً، فقال له: يا سيدى رأيت ليلة القدر، ولكن ليس كما أراها كلَّ سنة، رأيتها هذه السنة لا نور لها. فقال له الشيخ رضى الله عنه: نورك طمس نورَها يا مكين الدين.

---

(٢٩) كانت هناك محاولات طريفة من بعض العلماء والصالحين لتحديد ليلة القدر: فمثلا قال بعضهم؛ إن عدد كلمات سورة القدر ثلاثون كلمة كعدد أيام رمضان، وكلمة «هى» التى تشير إلى ليلة القدر فى قوله تعالى فى السورة نفسها «سلام هى» هذه الكلمة تمام سبعة وعشرين. هذه محاولة.

ومحاولة أخرى هى:

إن حروف ليلة القدر تسعة حروف، وقد ذكرت ليلة القدر فى السورة ثلاث مرات، وثلاث فى تسع بسبع وعشرين.

أما الشيخ أحمد زروق رضى الله تعالى عنه فإنه يقول فيها:

إنها لا تفارق جمعة من أوتار آخر الشهر، وقد روى هذا أيضا عن ابن العربى. هذه محاولات أما الثابت اليقين فهو: أن القرآن لم يعيّنها تعينًا واضحًا، وأن الرسول ﷺ لم يحدّدها تحديدًا تامًّا.

ولقد قال أسلافنا رضى الله عنهم:

أخفى الرب أمورًا فى أمور لحكم:

ليلة القدر فى الليالى لتحيى جميعها – وساعة الإجابة فى الجمعة ليدعو فى جميعها، والصلاة الوسطى فى الصلوات ليحافظ على الكل – والاسم الأعظم فى أسمائه ليدعى بالجميع، ورضاه فى طاعته ليحرص العبد على جميع الطاعات، وغضبه فى معاصيه، لينزجر عن الكل، والولىّ فى المؤمنين ليحسن الظن بكل منهم، ومجىء الساعة فى الأوقات للخوف منها دائمًا، وأجل الإنسان عنه ليكون دائمًا على أهبة.

ويعقب الشيخ أحمد الصاوى على ذلك فى حاشيته على الجلالين فيقول:

«فعلى هذا يحصل ثوابها لمن قامها، ولو لم يعلمها، نعم: العالم بها أكمل. هذا الأظهر».

ولقد رأينا فى عصرنا الحاضر عن تجربة أكثر من واحد يعلمون بليلة القدر، بعضهم يعلمها قبل إتيانها، وبعضهم يعلمها فى ليلتها، وفضل الله أوسع من ذلك وأعظم.

ولقد كنت مع الشيخ مكين الدين هذا بالجامع الغربى من الإسكندرية فى العشر الأواخر من رمضان ليلة ست وعشرين، فقال الشيخ مكين الدين: أنا الساعة أرى ملائكة صاعدة وهابطة فى تهيئة وتعبية، أرأيت تأهب أهل العرس بليلة قبله؟ كذلك رأيتهم فلما كانت الليلة الثانية، وهى ليلة سبع وعشرين، وكانت ليلة جمعة، قال: أنا الساعة أرى ملائكةً معها أطباق من نور، الطبق يوازى مئذنة الجامع، وفوق ذلك ودون ذاك، وهذه هى ليلة القدر، فلما كانت الليلة الثالثة، وهى ليلة ثامن وعشرين، قال: رأيت هذه الليلة كالمتغيّظة وهى تقول: هب أن لليلة القدر حقًّا يُرعى، أما لى حق يرعى؟!

وكان الشيخ مكين الدين – رضى الله عنه – من أرباب البصائر ومن النافذين إلى الله عزّ وجل، كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول عنه: بينكم رجل يقال له عبد الله بن منصور، أسمر اللون، أبيض القلب، والله إنه ليكاشفنى، وأنا مع أهلى، وعلى فراشى!

ومرةً أخرى قال الشيخ أبو الحسن أيضًا فيهَ: ما سلكت غيبًا من غيوب الله إلّا وعمامته تحت قدمى.

ولقد أخبرنى الشيخ مكين الدين هذا، قال: دخلت مسجد النبى ﷺ بالإسكندرية[٣٠] «بالديماس» فوجدت النبى المدفون هناك قائمًا يصلّى، عليه عباءة مخططة، فقال لى: تقدّم فصلّ.

فقلت له: تقدم أنت وصلّ. قال: تقدّم أنت وصلّ، فإنكم من أمّة نبىٍّ لا ينبغى لنا التقدم عليه!

قال: فقلت له: بحقّ هذا النبى إلّا ما تقدّمت فصلّيتَ.

قال: فأنا أقول: بحق هذا النب إلّا وهو قد وضع فمه على فمى إجلالا للفظة النبى كيلا يبرز فى الهواء!

قال: فتقدمت فصلّيت.

وأخبرنى الشيخ مكين الأسمر أيضًا؛ قال: بتُّ بالقرافة ليلة الجمعة، فلما قام الزوّار قمت معهم، وهم يتلون إلى أن انتهوا فى التلاوة إلى سورة يوسف عليه السلام، ومنها إلى قوله عزّ وجل: ﴿وجاء إخوة يوسف﴾ وانتهوا فى الزيارة إلى قبور إخوة يوسف، فرأيت القبر قد انشق وطلع منه إنسان طويل، خفيف شعر اللحية صغير الرأس آدم اللون، وهو يقول: من أخبركم بقصتنا؟ هكذا كانت قصتنا.

ولقد كنت يومًا مضطجعًا وأنا ساكن مطمئن وأجد فى قلبى انزعاجًا على بغته وباعثًا يبعثنى على الاجتماع بالشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه، فقمت مسرعًا فدققت الباب فخرج، فلما وقع بصره علىّ قال: أنت ما تجىء حتى تسير الناس خلفك. وتبسّم قلت: يا سيدى قد جئت. فدخل وأخرج لى وعاءً، وقال: هذا الوعاء اذهب به إلى الشيخ أبى العباس وقل له: قد كتبت فيه آيات من القرآن ومحوتها بماء زمزم وشىء من العسل، فذهبت بذلك للشيخ أبى العباس رضى الله عنه فقال: ما هذا؟ قلت أرسله إليكم الفقيه مكين الدين الأسمر، فأدلى فيه إصبعًا واحدًا وقال: هذا

---

(٣٠) هو نبى الله «دانيال» من أنبياء بنى إسرائيل.

بحسب البركة وفرغ الوعاء وملأه عسلًا، وقال اذهب به إلى الفقيه. فذهبت بذلك إليه ثم عدت إليه بعد ذلك فقال لى: رأيت البارحة ملائكة أتونى بأوعية من زجاج مملوءة شرابًا وهم يقولون خذ هذا عوض ما أهديت للشيخ أبى العباس رضى الله عنهم أجمعين.

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة.

وكان رضى الله عنه يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله حتى إنه ربما دخل عليه مطيعٌ فلا يهتبل[٣١] به وربما دخل عليه عاصٍ فأكرمه، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكثّر بعمله ناظر لفعله، وذلك العاصى دخل عليه بكسر معصيته وذلّة مخالفته[٣٢].

وكان شديد الكراهة للوسواس فى الطهارة والصلاة، ويثقل عليه شهود من كان ذلك وصفه، سئل يومًا وأنا حاضر فقيل له: يا سيدى فلان صاحب علم وصلاح كثير الوسوسة فقال: وأين العلم والصلاح يا فلان؟ العلم هو الذى ينطبع فى القلب كالبياض فى الأبيض والسواد فى الأسود.

---

(٣١) أى: لا يهتم به.

(٣٢) ولابن عطاء الله فى ذلك حكمة جليلة يقولها فيها:

«معصية أورثت ذلًّا وافتقارًا، خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا»!

الباب الخامس

فى آيات من كتاب الله تعالى
تكلم على تبيين معناها وإظهار فحواها

قال الله سبحانه:

﴿الحمد لله رب العالمين﴾[1].

قال الشيخ رضى الله عنه: علم الله عجز خلقه من حمده، فحمد نفسه بنفسه فى أزله، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده، فقال: الحمد لله رب العالمين، أى قولوا الحمد لله رب العالمين، أى الحمد الذى حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغى أن يكون لغيره، فعلى هذا تكون الألف واللام عهديّتين.

وسمعته يقول فى قوله عزّ وجل:

﴿إياك نعبد وإيّاك نستعين﴾[2].

إياك نعبد شريعةً، وإياك نستعين حقيقةً.

إياك نعبد إسلامٍ، وإياك نستعين إحسان.

إياك نعبد عبادةً، وإياك نستعين عبودية.

إياك نعبد فرق، وإياك نستعين جمع.

واعلم رحمك الله بإقباله عليك بودّه، وجعلك من الراعين لعهده، أن الله سبحانه طلب من العباد أن يعبدوه، واقتضى منهم أن يسجّلوا بذلك على أنفسهم نطقًا كما قاموا به علمًا.

واقتضى منهم أن يفردوه.

واقتضى منهم أن تنتظم العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وحقائق وجوداتهم الباطنة.

واقتضى منهم الرجعَى إليه من دعوى القيومية فى العبادة التبرّى من الحول والقوّة.

فلما قام العبد لله بالعبادة عملاً، اقتضى الحق أن يعترف بها نطقًا: ليكون ذلك معاهدة بينه وبين الحق عزّ وجلّ، حتى إذا انفلتت نفسه عن القيام بالعبادة وثقلت عليها ملامة التكليف، قامت الحجّة على العبد بما أعطى الله سبحانه من الاعتراف بالعبادة له وأنه لا يعبد غيره لقوله: ﴿إياك نعبد﴾، واقتضى من العباد أن تستوعب العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وعوالمهم الباطنة بإتيانه بالصيغة هكذا: ﴿نعبد﴾ وإعراضه عن التعبير بالهمزة المفردة بالمتكلم لأن النون إنما تكون للواحد المعظم نفسه، أو العظيم فى نفسه، وليس هذا موضع هذين المعنيين؛ إذ العبد لا يبتدئ بين يدى الله بوصف

---

(١) الفاتحة: ٢.   (٢) الفاتحة: ٥.

عظمة، فلم يبق إلا أن يكون للواحد ومعه غيره، وذلك ما أشرنا إليه من الجوارح الظاهرة والحقائق الباطنة.

وإما أنه اقتضى منهم الرجعَى إليه من دعوى القيومية فى العبادة لأنه لما قال: ﴿إياك نعبد﴾ فأضاف العبادة إليهم، واقتضى منهم أن يعترفوا بذلك قيامًا بدائرة الفرق التى عليها يترتب التكليف، أردف ذلك بقوله: ﴿وإياك نستعين﴾ كيلا يدّعى العباد معه أنهم قاموا بالعبادة بأنفسهم فأراد منه أن يوفوا الحقيقة حقّها والشريعة حقّها؛ فلذلك جمع بين الأمرين: القيام بالعبادة لربوبيته، والتبرّى من الحوْل والقوّة مع إلهيته.

ثم قال سبحانه وتعالى:

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾(٣).

فقال الشيخ رضى الله عنه: بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل.

وهذا الجواب ذكره ابن عطية فى تفسيره وبسطه الشيخ رضى الله عنه فقال:

عموم المؤمنين يقولون: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أى: بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين.

والصالحون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم. معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء.

والشهداء يقولون: اهدنا الصراط المستقيم أى بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل فإنهم حصل لهم درجات الشهداء وفاتهم درجات الصدّيقية.

والصدّيقون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم أى بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الصدّيقية وفاتهم درجات القطبية.

والقطب يقول: اهدنا الصراط المستقيم، أى بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد بما ليس بحاصل، فإنه قد حصل رتبة القطبانية وفاته علم إذا شاء الله أن يطلعه عليه أطلعه.

وقال فى قوله عزّ وجلّ:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾(٤).

كل موضع ذكر فيه المصلّون فى معرض المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إمّا بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال الله سبحانه:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾.

---

(٣) الفاتحة: ٦.

(٤) البقرة: ٣.

﴿ربِّ اجعلنى مقيم الصلاة﴾[٥].

﴿أقم الصلاة﴾[٦].

﴿وأقامَ الصلاة﴾[٧].

﴿وأقاموا الصلاة﴾[٨].

﴿والمقيمى الصلاة﴾[٩].

ولما ذكر المصلّين بالغفلة قال:

﴿فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾[١٠].

ولم يقل فويل للمقيمين الصلاة.

والإقامة هو أنه إذا صلّى المؤمن صلاةً فتقبلت منه خلق الله من صلاته صورةً فى ملكوته راكعةً ساجدةً إلى يوم القيامة وثواب ذلك لصاحب الصلاة[١١].

وقال فى قوله سبحانه:

﴿إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً﴾[١٢].

«بقرة كل إنسان نفسه، والله أمرك بذبحها»[١٣].

وقال فى قوله عزّ وجل:

﴿ما أصابك من حسنةٍ فمن الله، وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك﴾[١٤].

قيل: إنما وقع التفصيل فى العبارة تأديبًا من الله لنا فأضاف المحاسن إليه وأضاف المساوئ إلينا وإن كان فعل العبد كله خلق الله تعالى: حسنه وسيئه، كما قال:

﴿فأراد ربُّك أن يبلغا أشدَّهما﴾[١٥].

فأضاف ذلك إلى الله، وقال فى السفينة:

﴿فأردت أن أعيبها﴾[١٦].

ولم يقل: فأراد ربك أن يعيبها أدبًا فى التعبير، كما قال إبراهيم عليه السلام:

---

(٥) إبراهيم: ٤٠.
(٦) الإسراء: ٧٨.
(٧) التوبة: ١٨.
(٨) فاطر: ٢٩.
(٩) الحج: ٣٥.
(١٠) الماعون: ٤، ٥.
(١١) إقامة الصلاة: أداؤها، كما يحبّ الله ورسوله، وهو أن يتجرّد فيها الله سبحانه وتعالى تجردًا كاملًا واقفًا بين يديه مستشعرًا عظمته وجلاله وجماله. وهذا النوع من الصلاة هو المأمور به، وهو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر، وهو الذى يفزع إليه الإنسان إذا حزبه أمر أو حزنه كما كان يفعل الرسول ﷺ، فييسّر الله الأمر ويقضى الحاجة.
(١٢) البقرة: ٦٧.
(١٣) إن أبا العباس رضى الله عنه يقول بالمعنى الأصلى للآية الكريمة، وباب الإشارات فيه متسع، ولا ضير ما دام المعنى الأصلى يقرّه المفسر، وسيشير المؤلف إلى ذلك بعد.
(١٤) النساء: ٧٩.
(١٥) الكهف: ٨٢.
(١٦) الكهف: ٧٩.

﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾[١٧].

فأضاف المرض لنفسه، والشفاء لله تعالى.

ومنهم من قال: إن ذلك داخل فى مضمونِ القول، وإن هذا التفصيل حكاه الله عنهم، والتقدير: فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً فى قولهم:

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

ورد عليهم بقوله:

﴿قل كل من عند الله﴾.

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل﴾[١٨].

يولج المعصية فى الطاعة ويولج الطاعة فى المعصية[١٩]، يطيع العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يفعلها ويطلب من الله العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات، ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله فيه ويعتذر منه ويستصغر نفسه ويعظم من لم يفعله، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فأيها الطاعة وأيها المعصية؟!

وقال رضى الله عنه: الفَتَى من كسر الأصنام، قال الله تعالى:

﴿قالوا سمعنا فتًى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾[٢٠].

وقال رضى الله عنه فى قوله عزّ وجلّ:

﴿أمّن يُجيب المضطرَّ إذا دعاه﴾[٢١].

الولىّ لا يزال مضطرا.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب، فإذا زالت زال اضطرارهم، وذلك لغلبة دائرة الحسّ على مشهدهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله دائم؛ لأن الاضطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن، وكلٍ ممكن مضطر إلى ممد يمده، ومَدِد يمدّه به، وكما أن الحق سبحانه هو الغنىّ أبدًا، فالعبد مضطر إليه أبداً، ولا يزايل العبد هذا الاضطرار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولو دخل الجنة، فهو محتاج إلى الله فيها، غير أنه غمس اضطراره فى

---

(١٧) الشعراء: ٨٠.

(١٨) الحج: ٦١ - لقمان: ٢٩ - فاطر: ١٣ - الحديد: ٦.

(١٩) نعود فنقول: إن المعنى اللغوى العادى للآية الكريمة، يقرّ به أبو العباس رضى الله عنه، ويعتمده، وهناك إشارات تفيض بها الآية الكريمة لا تتعارض مع المعنى العادى، ولا تنقضه، وفضل الله فى هذه الإشارات واسع، وهذا الذى يقوله يصدق على كل ما يأتى من باب الإشارة فى الآية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة وهو الذى سينبّه عليه ابن عطاء الله بعد قليل.

(٢٠) الأنبياء: ٦٠.

(٢١) النمل: ٦٢.

المنّة التى أفرغت عليه ملابسها، وهذا هو حكم الحقائق: أن لا يختلف حكمها لافى الغيب ولا فى الشهادة ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

فالعلم صفته الكشف أى علم كان وفى أى وقت كان، والإرادة صفتها التخصيص أى إرادة كانت، وفى أى وقت كانت، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره.

وقد عاتب الله قومًا اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار، فلما زالت زال اضطرارهم، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وإذا مسّكم الضرُّ فى البحر ضلَّ مَن تدعون إلا إياه فلما نجّاكم إلى البر أعرضتم﴾(٢٢) الآية.

وقال سبحانه:

﴿وإذا مسَّ الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا فلما كشفنا عنه ضُرَّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسَّه كذلك زيّن للمسرفين ما كانوا يعملون﴾(٢٣).

وقال تعالى:

﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعًا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾.

﴿قل الله ينجّيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾(٢٤).

إلى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا المعنى.

ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم، سلّط الحق عليهم الأسباب المثيرة للاضطرار، ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمة إلهيّته وكبريائه.

ومن الدليل على فخامة رتبة الاضطرار أن الحق سبحانه أوقف الإجابة عليه فقال: ﴿أمّن يجيب المضطرَّ إذا دعاه﴾(٢٥).

وإذا أراد الله سبحانه أن يعطى عبدًا شيئًا وهبه الاضطرار إليه فيه، فيطلب باضطرار، فيعطى، وإذا أراد الله أن يمنع عبدًا أمراً منعه الاضطرار إليه فيه، ثم منعه إياه وقامت حجة الله على العبد: لو اضطررت إلينا لأعطيناك، فلا يخاف عليك أن تضطر وتطلب فلا تعطى، بل يخاف عليك أن تحرم الاضطرار، فتحرم الطلب، أو تطلب بغير اضطرار فتحرم العطاء.

وقال فى قوله عز وجل: ﴿كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أنَّى لك هذا قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾(٢٦).

ثم قال بعد ذلك:

﴿وهزّى إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطبًا جنيًّا﴾(٢٧).

---

(٢٢) الإسراء: ٦٧، وتمامها: ﴿وكان الإنسان كفورا﴾.
(٢٣) يونس: ١٢.
(٢٤) الأنعام: ٦٣، ٦٤.
(٢٥) النمل: ٦٢.
(٢٦) آل عمران: ٣٧.
(٢٧) مريم: ٢٥.

فذكر بعض الناس فى هذا تأويلًا لا يرضى، ولا ينبغى أن يلتفت إليه، وهو أنه كان حبّها لله وحده، فلما ولدت انقسم حبها، وليس الأمر كما قال هذا القائل، لأنها صدّيقة كما أخبر الله عنها: ﴿وأمه صدّيقة﴾(٢٨).

والصِّدّيق والصِّدّيقة لا يتنقلان من حالة إلّا إلى أكمل منها، ولكنها كانت فى بدايتها متعرفًا إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب فلما تكمل يقينها أرجعت إلى الأسباب فالحالة الثانية أتمّ من الحالة الأولى.

وقال رضى الله عنه: الفتوّة: الإيمان والهداية قال الله تعالى:

﴿إنهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم وزدناهم هدى﴾(٢٩).

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه حاكيًا عن الشيطان:

﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾(٣٠).

ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم، لأن فوق: التوحيد، وتحت: الإسلام، والشيطان لايمكنه أن يأتى المؤمن من توحيد ولا من إسلام.

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿واتّخذ الله إبراهيمَ خليلًا﴾(٣١).

قال سمّى خليلًا لأنه خالل سرّه محبّة الله تعالى قال الشاعر:

قد تخلّلتَ مسلك الروح منّى ... ولذا سمّى الخليل خليلًا
فإذا ما نطقت كنتَ كلامى ... وإذا ما صمتُّ كنتَ العليلا

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿وإبراهيم الذى وفّى﴾(٣٢).

قال: «وفّى» بمقتضى قوله:

﴿حسبى الله﴾.

وقال رضى الله عنه فى قوله عزّ وجل:

﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾(٣٣).

قال: من طاعاتهم ومن أعمالهم التى قاموا لله تعالى بها فى ليلهم أن يشهدوها من أنفسهم.

ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه: أن الله عزّ وجلّ وصفهم قبل ذلك بقوله:

﴿كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون﴾(٣٤).

---

(٢٨) المائدة: ٧٥.
(٢٩) الكهف: ١٣.
(٣٠) الأعراف: ١٧.
(٣١) النساء: ١٢٥.
(٣٢) النجم: ٣٧.
(٣٣) الذاريات: ١٨.
(٣٤) الذاريات: ١٧.

ثم قال:

﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾.

فلم يتقدم منهم فى ليلهم ذنوب يكون استغفارهم منها.

وقد جاء فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ كان إذا سلَّمَ من صلاته استغفر الله ثلاثًا.

وقال الواسطى:

العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعواض عليها.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلْيفرحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون﴾[٣٥].

أى من طاعتهم وأعمالهم، ومثل ذلك:

﴿ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون﴾[٣٦].

وقال رضى الله عنه فى قوله عزّ وجلّ:

﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا﴾:

ولم يقل بنبيّه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله.

وإنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السريان للأتباع فأعلمنا بأن الإسراء من بساط العبودية، فالنبى ﷺ كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسراء، أسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه.

والأولياء لهم قسط من العبودية فلهم قسط من الإسراء، يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم.

وسمعته رضى الله عنه يقول فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿إن المتقين فى جنات ونهر، فى مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر﴾[٣٧].

﴿إنّ المتقين فى جنات ونهر﴾ فى هذه الدار وفى تلك الدار، فى الدنيا، فى جنات العلوم وأنهار المعارف، وفى الآخرة، فى الجنة التى وعدوا بها، فى مقعد صدق، فى هذه الدار وفى تلك الدار، عند مليك مقتدر فى هذه الدار وفى تلك الدار.

وبسط كلام الشيخ رضى الله عنه هو:

أن نعيم الجنة الكائن فيها يكون رقائقه معجّلة للمتقين فى هذه الدار، فما كان لهم فى الجنة حسًّا يكون لهم فى هذه الدار معنى.

ومثل هذه الآية قوله سبحانه:

﴿إن الأبرار لفى نعيم﴾[٣٨].

---

(٣٥) يونس: ٥٨.

(٣٦) الزخرف: ٣٢.

(٣٧) القمر: ٥٤، ٥٥.

(٣٨) الانفطار: ١٣، والمطففين: ٢٢.

أى فى هذه الدار وفى تلك الدار فى الدنيا، فى نعيم الشهود وفى الآخرة فى نعيم الرؤية.
وكذلك قوله:

﴿وإن الفجّار لفى جحيم﴾.

أى فى هذه الدار، وفى تلك الدار، فى هذه الدار فى جحيم القطيعة وفى تلك الدار فى جحيم العقوبة، وقوله:

﴿فى مقعد صدق﴾.

أى فى هذه الدار، وفى تلك الدار، فى هذه الدار فى مقعد صدق العبودية وفى تلك الدار فى مقعد صدق الخصوصية.

﴿عند مليك مقتدر﴾.

فى هذه الدار وفى تلك الدار، فى هذه الدار لهم عنديّة الإمداد وفى تلك الدار لهم عنديّة الإشهاد.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿ما خلق الله ذلك إلّا بالحق﴾(٣٩):

الحق الذى خلق الله به كل شىء كلمة:

كن.

قال الله سبحانه:

﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾(٤٠).

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿أن اشكر لى ولوالديك﴾(٤١):

إنما قرن شكرهما بشكره لأنهما أصلٌ فى وجودك.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿وما تلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهشُّ بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى، قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حيةٌ تسعى، قال: خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾(٤٢).

يقال للولى: وما تلك بيمينك أيها الولى؟

قال: هى دنياى، أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمى. وغنمه أعضاؤه، ولى فيها مآرب أخرى.

فيقال له: ألقها فناءً عنها.

فألقاها.

فيكشف له عن حقيقتها فإذا هى حيّة تسعى.

---

(٣٩) يونس: ٥.
(٤٠) الأنعام: ٧٣.
(٤١) لقمان: ١٤.
(٤٢) طه: ١٧ - ٢١.

ثم يقال له:

﴿خذها ولا تخف﴾.

فلا يضره أخذها؛ لأنه أخذها بإذن الله كما ألقاها بإذن الله، فأخذها من الوجه الذى به ألقاها، فأطاع الله فى أخذها كما أطاعه فى إلقائها.

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿ويوم تَشقَّق السماءُ بالغمام، ونزِّل الملائكة تنزيلا، المُلْكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن﴾(٤٣).

إنما قال للرحمن ولم يقل للقهار ولا للعزيز؛ لأن تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة مظهران من مظاهر القهر والسطوة، فلو قال للقهار أو للعزيز لم يطق ذلك العباد وتفطّرت قلوبهم، فرفق بهم أن قال:

﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾.

وهكذا قوله:

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدًا﴾(٤٤).

ولم يقل إلى القهار ولا إلى العزيز؛ لأن الحشر وهو المطلع شديد فلاطفهم برحمانيته فى ظهور سلطان قهره.

وقال رضى الله عنه وقد سئل عن قوله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاتِهِ ولا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾(٤٥).

فقال له القائل: من أين للعبد أن يتقى الله حق تقاته، ومن أين له أن لا يموت إلاّ وهو مسلم؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

فكانوا قد خوطبوا أوّلا أن يتقوا الله حق تقاته، وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ثم خفّف عنهم بقوله:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

قال الشيخ رضى الله عنه: ويمكن الجمع بين الآيتين:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

أى فى جانب الأعمال وقوله:

﴿اتقوا الله حق تقاته﴾.

أى فى جانب التوحيد، وقوله:

﴿ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون﴾:

---

(٤٣) الفرقان: ٢٥، ٢٦.

(٤٤) مريم: ٨٥.

(٤٥) آل عمران: ١٠٢.

أى لا تتعاطوا من الأعمال إلّا أعمالاً إذا متّم عليها متّم مسلمين.

وقال رضى الله عنه: صلّيت خلف الشيخ صلاة الصبح فقرأ بحم عسق حتى انتهى إلى قوله تعالى:

﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾.

فخطر لى أنها الحسنات.

﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾.

فخطر لى أنها العلوم.

﴿أو يزوّجهم ذكرانًا وإناثًا﴾.

علومًا وحسنات.

﴿ويجعل من يشاء عقيمًا﴾.

لا علم ولا حسنة.

فلما سلّم الشيخ من الصلاة استدعانى وقال: لقد وجدت فهمكَ فى الصلاة يهب لمن يشاء إناثًا الحسنات، ويهب لمن يشاء الذكور العلوم، أو يزوّجهم ذكرانًا وإناثًا علومًا وحسنات ويجعل من يشاء عقيمًا لا علم ولا حسنة.

فعجبت من اطلاع الشيخ على ذلك.

فقال: أتعجب من اطلاعى على فهمك فى الصلاة، قد فهم فلان كذا، وفهم فلان كذا، حتى عدّ أفهام الجماعة الذين خلفه.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوًّا﴾(٤٦).

فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان، فشغلهم ذلك عن محبّة الحبيب، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدوّ أى وأنا لكم حبيب فاشتغلُوا بمحبته فكفاهم مَنْ دونه.

قيل لبعضهم: كيف صنْعك مع الشيطان؟ فقال: وما الشيطان، نحن قوم صرفنا همنا إلى الله، فكفانا مَنْ دونه.

وقال رضى الله عنه: قرأت مرة ﴿والتين والزيتون﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى:

﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾.

ففكرت فى معنى هذه الآية، فكشف لى عن اللوح المحفوظ، فإذا مكتوب فيه: لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم روحًا وعقلاً، ثم رددناه أسفل سافلين نفسًا وهوى.

وقال فى قوله سبحانه:

---

(٤٦) فاطر: ٦.

﴿ولقد همت به وهم بها لوْلا أن رأى برهان ربّه﴾(٤٧):
همّت به همَّ إرادة وهمَّ بها همَّ ميلٍ لا همَّ إرادة.
وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يَزيغُ قلوبُ فريق منهم ثم تاب عليهم﴾(٤٨):

فقال عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنه: ذكر توبة من لا يذنب لئلّا يستوحش من أذنب لأنه ذكر النبى ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا، ثم قال:
وعن الثلاثة الذين خلِّفوا.

فذكر من لم يذنب ليؤنس من قد أذنب، فلو قال أوّلاً لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلّفوا لتفطّرت أكبادهم.
وقال رضى الله عنه:
التقوى فى كتاب الله على أقسام: تقوى النار، قال الله سبحانه:
﴿واتّقوا النار﴾(٤٩).
وتقوى اليوم:
﴿واتقّوا يومًا ترجعون فيه إلى الله﴾(٥٠).
وتقوى الربوبية:
﴿يأيها الناس اتقوا ربّكم﴾(٥١).
وتقوى الألوهية:
﴿واتّقوا الله﴾(٥٢).
وتقوى الأنية:
﴿واتّقونِ يا أولى الألباب﴾(٥٣).
وقال رضى الله عنه فى قوله عزّ وجل:
﴿سماعون للكذب أكّالون للسحت﴾(٥٤):
نزلت فى اليهود.
ومن كان من فقراء هذا الزمان مؤثرًا للسماع بهواه، آكلاً مما حرّمه مولاه، فهى نزغة يهودية؛

(٤٧) يوسف آية: ٢٤ – ويفسر بعضهم الآية الكريمة فيقول: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، وهو تفسير تسيغه اللغة. ونتيجته: أنه لم يهم بها لأنه رأى برهان ربه.
(٤٨) التوبة: ١١٧.
(٤٩) آل عمران: ١٣١.
(٥٠) البقرة: ٢٨١.
(٥١) النساء: ١.
(٥٢) النساء: ١.
(٥٣) البقرة: ١٩٧.
(٥٤) المائدة: ٤٢.

لأن القوّال يذكر العشق وما هو بعاشق، والمحبّة وماهو محب، والوجد وما هو متواجد، فالقوّال يقول الكذب والمستمع سمّاع له، ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع فهو يصدق عليه قول الله تعالى:

﴿سمّاعون للكذب أكالون للسحت﴾.

وقال رضى الله عنه:

عبر بعض الصحابة على بعض اليهود فسمعهم يقرءون التوراة، فتخشعوا، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: اقرأ.

قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ:

﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم﴾(٥٥).

فعوتبوا إذ تخشعوا من غيره، وهم إنما تخشعوا من التوراة وهى كلام الله، فما ظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهى والغناء؟

وقال رضى الله عنه وقد سأله سائل: ياسيدى لم قال عيسى عليه السلام:

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادُك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾(٥٦).

ولم يقل: الغفور الرحيم؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: إنما عدل عن قوله إنك أنت الغفور الرحيم إلى قوله:

﴿فإنك أنت العزيز الحكيم﴾.

لأنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم لكان شفاعة من عيسى عليه السلام لهم فى المغفرة ولا شفاعة فى كافر، ولأنه عُبِدَ من دون الله فاستحى من الشفاعة عنده وقد عُبِدَ معه.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾(٥٧).

فى هذه الآية مدح لسيد المرسلين ﷺ، أى أن هذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليها وأنت يا محمد ثبت لنزوله بالقوة الربانية التى أودعناها فيك، وفيها ذم للكافرين أى أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لخشع وتصدع وأنتم ما خشعتم ولا تصدعتم.

فائدة:

اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله تعالى ولكلام رسوله ﷺ بالمعانى الغريبة كما مضى من فهم الشيخ رضى الله عنه: يهب لمن يشاء إناثا الحسنات، ويهب لمن يشاء الذكور العلوم، أو يزوّجهم

---

(٥٥) العنكبوت: ٥١.
(٥٦) المائدة: ١١٨.
(٥٧) الحشر: ٢١.

ذكرانا وإناثا علومًا وحسنات، ويجعل من يشاء عقيمًا لا علم ولا حسنة، وكما مضى أيضًا من قوله عز وجل:

﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾.

فقال الشيخ: بقرة كل إنسان نفسه، والله أمركم بذبحها، وكما سيأتى إن شاء الله فى تفسير الأحاديث، فذلك ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت له الآية ودلت عليه فى عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث، لمن فتح الله على قلبه، وقد جاء أنه عليه الصلاة والسلام قال:

«لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع».

فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم أن يقول لك ذو جدل أو معارضة: هذا إحالة لكلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ.

فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم، وربما فهموا من اللفظ ضد ما قصده واضعه، كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتى الأنام تقى الدين محمد بن على القشيرى رحمه الله قال: كان ببغداد فقيه يقال له الجوزى، يقرئ اثنى عشر علما فخرج يوما قاصدا لمدرسته، فسمع منشدا ينشد:

إذا العشرون من شعبان ولّت فواصل شراب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فقد ضاق الزمان على الصغار

فخرج هائما على وجهه حتى أتى مكة، ولم يزل مجاورا بها حتى مات.

وقرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه قول القائل:

لو كان لى مسعد بالراح يسعدنى لما انتظرت لشرب الراح إفطارا
الراح شيء عجيب أنت شاربه فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا
يامن يلوم على صهباء صافية خذ الجنان ودعنى أسكن النارا

فقال إنسان هناك: لا تجوز قراءة هذه الأبيات. فقال الشيخ مكين الدين الأسمر للقارئ: اقرأ، هذا رجل محجوب!

ويكفيك فى هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا يقول: «يا سعتر برى» ففهم كل منهم عن الله مخاطبة خوطب بها فى سره.

سمع الواحد: اسْعَ تَرَ برِّى.

وسمع الآخر: الساعة تَرى برِّى.

وسمع الآخر: ما أوسع برِّى.

فالمسموع واحد، واختلفت أفهام السامعين، كما قال سبحانه:

﴿تُسقَى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل﴾.

وقال سبحانه:

﴿قد علم كلُّ أناسٍ مشربَهم﴾[٥٨].

فأما الذى سمع: اسع تربرى، فمُريد دُلَّ على النهوض إلى الله بالأعمال ليستقبل الطريق بالجد، فقيل له: اسع إلينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصلة.

وأما الثانى فكان سالكا إلى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته الوصلة فقيل له، ترويحا على قلبه لما أحرقته نار الشغف: الساعة ترى برى.

وأما الآخر، فعارف كشف له عن وُسع الكرم فخوطب من حيث أشهد فسمع: ما أوسع برى.

وقال الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه.

دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر، فاجتمع بها جماعة من المشايخ، فقدم الطعام، وعجزت الأوعية[٥٩]، وهناك وعاء زجاج جديد قد اتخذ للبول ولم يستعمل بعد، فغرف فيه رب المنزل الطعام، فالجماعة يأكلون، وإذا الوعاء يقول: منذ أكرمنى الله بأكل هؤلاء السادة منى لا أرضى لنفسى أن أكون بعد ذلك محلا للأذى، ثم انكسر نصفين.

قال الشيخ محيى الدين: فقلت للجمع، سمعتم ما قال الوعاء؟

قالوا : نعم.

قلت: ما سمعتم؟

فأعادوا القول الذى تقدم.

قال: فقلت: قال قولا غير ذلك.

قالوا: وما هو؟

قلت: قال: كذلك قلوبكم، قد أكرمها الله بالإيمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلاً لنجاسة المعصية وحب الدنيا، جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه والتلقى منه بمنه وكرمه.

---

(٥٨) البقرة: ٦٠.

(٥٩) أى لم تكن الأوعية كافية.

الباب السادس

فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية

قال رضى الله عنه فى قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إنى أخاف الله. ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[١].

فقال الشيخ رضى الله عنه:

الإمام العادل هو القلب.

ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه، أى ورجل قلبه معلق بالعرش، فإن العرش مسجد قلوب المؤمنين.

ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه أى خاليا من النفس والهوى.

ورجل تصدق بصدقة أى فأخفاها عن نفسه وهواه.

وكذلك قال فى قوله عز وجل: ﴿إذ نادى ربه نداء خفيا﴾[٢] أى من النفس والهوى.

فاعلم أن هؤلاء السبعة جازاهم الحق سبحانه من حيث معاملتهم إياه.

أما الإمام العادل فإنه عدل فى عباد الله فآوى المظلوم إلى ظل عدله فآواه الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الشاب الذى نشأ فى عبادة الله فإنه آوى إلى الله معرضا عن هواه آويا إلى كنف مولاه فصنع الحق معه ذلك فى الآخرة جزاء كما صنع هو ذلك مع الله فى الدنيا معاملة.

وأما الرجل الذى قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه فإنه آثر طاعة الله وغلب عليه حب الله فلذلك صار قلبه متعلقا بالمسجد لا يحب البراح عنه؛ لأنه يجد فيه روح القربة وحلاوة الخدمة، فآوى إلى الله مؤثرا لربوبيته، فآواه الله وأظله بظله يوم لا ظل إلا ظله جزاء لما سبق من معاملته.

وأما الرجلان اللذان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، فإنهما تواصلا بروح الله وتآلفا بمحبة الله وكان ذلك منهما انحياشا[٣] إلى الله فآواهما الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

---

(١) رواه مالك والترمذى وأحمد والشيخان والنسائى ومسلم.
(٢) مريم: ٣.
(٣) أى: ميلا ولجوءا إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما الرجل الذى دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إنى أخاف الله فإنه صلى نار مخالفة الهوى مخافة من المولى وخالف بواعث الطبع المعارضة للتقوى، فلما خاف من الله هرب إليه، ولما هرب إليه ههنا معاملة، آواه الله إليه فى الآخرة مواصلة، فأظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الرجل الذى ذكر الله خاليا ففاضت عيناه فإنه لم تفض عيناه إلا من القروح التى أحرقت قلبه إما حياء من الله أو شوقا إليه أو خوفا من ربوبيته أو لشهود التقصير معه، فلما فعل ذلك حيث لا يراه أحد إلا الله الواحد الأحد كان ذلك منه معاملة لله وانحياشا إليه بالاعتذار إليه أو بالشوق إليه فآوى إلى الله فأظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الرجل الذى تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه فإنه قد آثر على نفسه ببذل الدنيا إيثارا لحب الله على ما تحبه نفسه؛ لأن شأن النفس حب الدنيا وعدم البذل لها فلا يبذلها إلا من آثر الله عليها؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ.

«والصدقة برهان»[٤].

أى برهان يدل على أن العبد آثر مولاه على نفسه وهواه، فلما مال هذا العبد إلى الله بالمعاملة من الله عليه بأن أظله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وتشترك الأقسام السبعة فى معنى واحد؛ فلذلك جوزوا جزاء واحدا.

اشتركت فى أن كلا من هؤلاء السبعة صلى حر مخالفة الهوى فى الدنيا، فلم يذقه الله حر الآخرة، وقد قال ﷺ حاكيا عن الله تعالى:

«لا أجمع على عبدى خوفين ولا أمنين: إن أمنته فى الدنيا أخفته فى الآخرة وإن أخفته فى الدنيا أمنته فى الآخرة».

وقال رضى الله عنه فى قوله ﷺ:

«يسِّروا ولا تعسِّروا».

أى دلّوهم على الله ولا تدلّوهم على غيره، فإن من دلّك على الدنيا فقد غرّك، ومن دلّك على الأعمال فقد أتعبك، ومن دلّك على الله فقد نصحك.

وقال فى قوله ﷺ:

«رأيت الجنة فتناولت منها عنقودًا لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»: فقال رضى الله عنه: الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء، والأولياء يطالعون مُثُلَها؛ فلذلك قال الرسول ﷺ: «رأيت الجنة».

ولم يقل كأنى رأيت الجنة.

وقال حارثة لما قال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟

قال أصبحت مؤمنًا حقًا.

---

(٤) رواه مسلم.

فقال ﷺ: لكل حقٍّ حقيقة فما حقيقة إيمانك؟

قال عَزَبَت[٥] نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها، وكأنّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون، وكأنى أنظر إلى أهل النار فى النار يعذّبون، وكأنى أرى عرش ربّى بارزًا، من أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهارى.

فقال له الرسول ﷺ: يا حارثة عرفت فالزم.

ثم قال ﷺ: «عبدٌ نوّر الله قلبه[٦] بنور الإيمان».

فقال حارثة: كأنى أنظر ولم يقل رأيت؛ لأن ذلك للأنبياء دونه، وكذلك قول حنظلة الأسدى لرسول الله ﷺ: تُذَكِّرنا بالجنة والنار حتى كأنّا نراها رأى عين[٧]. ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدمناه.

وفى حديث حارثة فوائد عشرة:

الأولى: أنه لما سأل النبى ﷺ حارثة فقال له:

كيف أصبحت يا حارثة؟

لم يقل حارثة: غنيًّا ولا صحيحًا ولا شيئًا من الأحوال البدنية أو الأمور الدنيوية؛ لأن حارثة علم أن رسول الله ﷺ أجلّ من أن يسأل عن دنيا، بل فهم عنه أنه إنما سأله كيف حاله مع الله فلذلك قال الصحابى:

أصبحت مؤمنًا حقًّا.

أما أبناء الدنيا إذا سئلوا فلا يخبرونك إلّا عن دنياهم، وربما أخبروك إذا سألتهم عن الضجر بأحكام مولاهم، فالسائل لمن هذا وصفه مشارك له فيما استثاره بسؤاله لجريان سببه منه.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لرجل أتى من الحجّ: كيف كان حجّكم؟ فقال ذلك الرجل: كثير الرخاء كثير الماء، فسعر كذا كذا وسعر كذا كذا، فأعرض الشيخ عنه وقال:

تسألونهم عن حجّهم وما وجدوا فيه من الله من علم ونور وفتح فيجيبون برخاء الأسعار وكثرة المياه حتى كأنهم لم يسألوا إلّا عن ذلك.

الفائدة الثانية: أنه ينبغى للمشايخ أن يتفقدوا أحوال المريدين، ويجوز للمريدين إخبار الأستاذين وإن لزم من ذلك كشف حال المريدين؛ لأن الأستاذ كالطبيب وحال المريد كالعورة والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى.

الفائدة الثالثة: انظر إلى قوّة نور حارثة فى قوله: أصبحت مؤمنًا حقًّا، فلولا أنه منور بنور البصيرة الموجبة لمحض اليقين والتحقق بالسنة ما أخبر بذلك وأبداه أثبت لنفسه حقيقة الإيمان بين

---

(٥) أى: عزفت وأعرضت كارهة.

(٦) رواه البزار بسند ضعيف عن أنس، والطبرانى فى الكبير من حديث الحارث بن مالك. وسنده ضعيف أيضًا وكلٌّ منهما يقوّى الآخر. والمعنى فى الجوّ الإسلامى صحيح.

(٧) رواه مسلم وسيأتى به ابن عطاء الله بعد ذلك.

يدى صاحب المحو والإثبات، وإنما أبدى ذلك حارثة لأنه علم أن طواعية رسول الله ﷺ واجبة، والرسول قد استخبره عن حاله فلم يسعه الكتم وأبدى ما علم أن الله تفضل به عليه ببركات متابعة رسول الله ﷺ ليفرح له رسول الله ﷺ بمنة الله فيشكر الله عنه ويسأله تثبيت ما أعطاه.

مثل هذا ما ذكره بعض العلماء العارفين قال:

وقعت زلزلة بالمدينة زمن خلافة عمر رضى الله عنه، قال عمر: ما هذا، ما أسرع ما أحدثتم، والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم؟

فانظر رحمك الله هذه البصيرة التامة كيف أشهدته أن الزلزلة إنما هى من حدث كان، وأن الحدث منهم، وأنه برىء منه، فهل هذا إلّا من نور البصيرة الكاملة التى وُهبها عمر رضى الله عنه.

وكذلك ضربه لأبى هريرة رضى الله عنهما فى صدره حين وجد معه نعلى رسول الله ﷺ وقد أمره أن من لقيه من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلّا الله أن يبشره بالجنة ورجوعهما إلى رسول الله ﷺ، وقول عمر رضى الله عنه: يا رسول الله، أنت أمرت أبا هريرة أن يأخذ نعليك ويبشّر من لقى من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلّا الله؟

قال: نعم.

قال: لا تفعل يا رسول الله خلّهم يعملوا.

فقال رسول الله ﷺ: خلّهم يعملوا.

وهاتان الواقعتان تعرفانك بعظيم قدر عمر رضى الله عنه، ووفور أخذه من رسول الله ﷺ، واختطافه من نوره. وهذا الحديث. مروى فى صحيح مسلم وإنما ذكرناه ههنا مختصرًا(٨).

القائدة الرابعة: يفهم من هذا الحديث انقسام الإيمان إلى قسمين: إيمان حقيقى وإيمان رسمى؛ فلذلك أخبر الصحابى بقوله: أصبحت مؤمنًا حقًا، والحديث يشهد له أيضًا.

وروى البخارى يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(٨) ونصّه كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال:

كنا قعودًا حول رسول ﷺ معنا أبو بكر وعمر فى نفر، فقام رسول الله من بين أظهرنا، فأبطأ علينا وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا فقمنا، فكنت أوّل من فزع، فخرجت أبتغى رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطًا للأنصار لبنى النجار، فدرت به هل أجد له بابًا، فلم أجد فإذا ربيع يدخل فى جوف حائط من بئر خارجه - والربيع الجدول - فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: أبو هريرة؟.. فقلت: نعم يا رسول الله. قال: ما شأنك؟.. قلت: كنت بين أظهرنا فقمت فأبطأتَ علينا فخشينا أن تقتطع دوننا ففزعنا، فكنت أوّل من فزع، فأتيت هذا الحائط فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائى. فقال: يا أبا هريرة، وأعطانى نعليه، قال: اذهب بنعلىّ هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة، فكان أوّل من لقيت عمر، فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة فقلت: هاتان نعلا رسول الله ﷺ بعثنى بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقنًا بها قلبه بشرته بالجنة. فضرب عمر بيده بين ثديى، فخررت لإستى، فقال: ارجع يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأجهشت بكاءً، وركبنى عمر فإذا هو على أثرى، فقال لى رسول الله ﷺ: مالك يا أبا هريرة، قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذى بعثتنى به، فضرب بين ثديى ضربةً خررت لإستى. قال: ارجع. فقال له رسول ﷺ: يا عمر، ما حملك على ما فعلت؟.. قال: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى. أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقى يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقنًا بها قلبه بشّره بالجنة؟ قال: نعم. قال: فلا تفعل فإنّى أخشى أن يتّكل الناس عليها، فخلّهم يعملون. قال رسول الله ﷺ: فخلّهم.

«ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً».

وروى أيضًا: قال ﷺ:

«ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلّا الله، وأن توقد نار عظيمة فكان أن يقع فيها خيرٌ له من أن يشرك بالله».

وقد جاء فى الحديث أيضًا قال ﷺ:

«المؤمن القوى خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍّ خيرٌ»(٩).

وقد قال الله سبحانه:

﴿أولئك هم المؤمنون حقًّا﴾(١٠).

وهما صنفان: عباد آمنوا بالله على التصديق والإذعان، وعباد آمنوا بالله على الشهود والعيان.

وهذا الإيمان الثانى تارةً يسمّى إيمانًا، وتارةً يسمّى يقينًا؛ لأنه إيمان انبسطت أنواره، وظهرت آثاره، واستمكن فى القلب عموده، وداوم السرّ شهوده، وعنه يكون خالص الولاية، كما أن على القسم الآخر يكون ظاهر الولاية.

وليس يستوى إيمان مؤمن يَغْلب الهوى، وإيمان مؤمن يغلبه الهوى، ولا إيمان مؤمنٍ تَعرِض له العوارض فيدافعها بإيمانه كإيمان مؤمنٍ غسَل قلبه من العوارض فلا ترد عليه لشهوده وعيانه، ولأجل هذا اختلف أهل الطريق فى عَبديْن: أحدهما يردُ عليه خاطر الذنب فيجاهد نفسه حتى يذهب ذلك عنه، والآخر لا يخطر له هذا الخاطر أصلاً أيهما أتم؟

والذى لاشكّ فيه تفضيل هذا القسم الثانى فإنه أقرب لأحوال أهل المعرفة. والأوّل هو حال أهل المجاهدة.

ولأنه لا يكون القلب على هذه الصفة إلّا والنور قد ملأ زواياه فلأ جل ذلك لم يجد خاطر الذنب مساغًا.

الفائدة الخامسة: مطالبة رسول الله ﷺ لحارثة بإقامة البرهان على ما أثبته لنفسه، فيدلّ ذلك أنه ليس كل من ادّعى دعوى سُلِّمت له، وقد قال الله سبحانه:

﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾(١١).

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾(١٢).

فموازين الحقائق شاهدة للعباد أو عليهم، وقد قال سبحانه:

﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾(١٣).

فمن ادّعى حالاً مع الله أقيم عليه ميزانها فإن شهد له سلّمناها له وإلّا فلا، وإذا كانت الدنيا

---

(٩) رواه مسلم، وتمامه: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(١٠) الأنفال: ٤.

(١١) البقرة: ٩٤.

(١٢) النمل: ٦٤.

(١٣) الرحمن: ٩.

على خساسة قدرها عند الله لا تسلم لك إلاَّ ببيّنة تقيمها، فمن الأحرى أن لا تسلم لك مراتب الموقنين حتى يثبتها لك برهان أو تسلمها لك حقيقة.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: لو كان المسئول أبا بكر رضى الله عنه لم يطالبه الرسول ﷺ بإقامة برهان على ما ادّعى؛ لأن عظم رتبة أبى بكر رضى الله عنه شاهدة له من غير إظهار برهان، فأراد الرسول ﷺ أن يعرفنا الفرق بين رتبة أصحابه، فمنهم من هو كحارثة لما ادّعى حقيقة الإيمان طولب ببرهانها، ومنهم من هو كأبى بكر وعمر رضى الله عنهما يثبتُ لهما الرسول ﷺ الرتب وإن لم يثبتاها لأنفسهما ألا ترى الحديث الوارد عن الرسول الله ﷺ: أن بقرة فى بنى إسرائيل ركبها رجل وأجهدها فقالت: سبحان الله، لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث.

فقال الصحابة: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ فقال الرسول ﷺ: آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر[١٤]، وهما غائبان.

فانظر هذه المرتبة ما أفخمها، وهذه المنزلة ما أعظمها.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: معنى قوله ﷺ: «آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر».

أى من غير عجب، وأنتم آمنتم متعجبين، لأجل ذلك قالوا: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟

وكان أبو العباس يقول: إن الملائكة لما بشّرت زوجة إبراهيم عليه السلام بالولد قالت:

﴿أأَلد وأنا عجوزٌ وهذا بعلى شيخًا إنّ هذا لشىءٌ عجيب﴾[١٥].

فقالت الملائكة لها:

﴿أتعجبين من أمر الله﴾.

أى أمر الله لا يتعجب منه، فلم يسمّها الحق صدّيقة، ومريم لما بشرت بالولد من غير أب فلم تتعجب من ذلك سمّاها الله صدّيقة فقال سبحانه:

﴿وأمّه صِدّيقة﴾[١٦].

الفائدة السابعة: استدلال الصحابى على حقيقة إيمانه بزهده فى الدنيا، وكذلك هو الإيمان إذا تحقق به من قام به أورثه الزهد فى الدنيا؛ لأن الإيمان بالله يوجب لك التصديق بلقائه، وعلّمك بأن كل آت قريب يوجب لك شهود قرب ذلك فيورثك ذلك الزهد فى الدنيا؛ ولأن نور الإيمان يكشف لك عن إعزاز الحق لك فتأنف همتك من الإقبال على الدنيا والتطلع إليها مع أن الحقيقة تقتضى أن الزاهد فى الدنيا مثبت لها، فإنه شهد لها بالوجود إذ أثبتها مزهودًا فيها، وإذا شهد لها بالوجود فقد عظمها وهو معنى قول الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه: والله لقد عظمتها إذ زهدت فيها،

---

(١٤) رواه البخارى بنحوه فى أحاديث الأنبياء.

(١٥) هود: ٧٢.

(١٦) جزء من آية ٧٥ من سورة المائدة وتمامها ﴿كانا يأكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾.

ومثل هذا الزاهد فيما زهد فيه فناء الفانى عما فنى عنه، فإثبات أنك فانٍ عن الشىء إثبات لذلك الشىء فما لا وجود له لا يتعلق به فناء ولا زهد ولا ترك.

ولنا فى هذا المعنى أبيات كتبتها لبعض الأصحاب يسمّى حسنًا:

حسنٌ بأن تدع الوجود بأسره	حسنٌ فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن فهمتَ لتعلمنّ بأنه	لا ترْك إلّا للذى هو حاصل
ومتى شهدت سواه فاعلم أنه	من وهمك الأدنى وقلبك ذاهل
حسب الإله شهوده لوجوده	والله يعلم ما يقول القائل
ولقد أشرت إلى الصرح من الهدى	دلت عليه إن فهمت دلائل
وحديث كان وليس شىء غيره	يقضى به الآن اللبيب العاقل(١٧)
لا غير إلّا نسبة مثبوتة	ليذّم ذو ترك ويحمد فاعل

الفائدة الثامنة: قول الصحابى رضى الله عنه: عزبت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها.

العزوب هو ترك الشىء بالتعزز له والإعراض عنه؛ إذ لو قال: تركت الدنيا لم يلزم من الترك عدم التطلع فرب تارك للشىء وهو له متطلع، فالعزوب إعراض مع كراهة وتحقّر، ومن كشف الله له عن حقيقة الدنيا فهذا شأنه فيها، وقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا جيفة قذرة».

وقال ﷺ للضحاك: ما طعامك؟ قال: اللحم واللبن.

قال: ثم يعود إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله.

قال: فإن الله قد جعل ما يخرُج من بنى آدم مثلًا للدنيا(١٨).

فمن كشف له عن حقيقة الدنيا فشهدها جيفةً قذرةً فحرىّ أن يصرف همّته عنها.

فإن قلت : فقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة»(١٩).

فاعلم أن الدنيا جيفة قذرة فى مرائى البصائر، وحلوة فى مرائى الأبصار.

فإن قلت: فما فائدة الإخبار بأنها حلوة خضرة؟ فاعلم أن قوله ﷺ أن الدنيا جيفة قذرة للتنفير، وقوله: الدنيا حلوة خضرة للتحذير؛ أى فلا تغرّنكم بحلاوتها وخضرتها فإن حلاوتها فى التحقيق مرارة وخضرتها يبس، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله قال:

«هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها».

الفائدة التاسعة: وقوف الصحابى رضى الله عنه على مستحق رتبته بقوله: وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون ولم يقل نظرت، وقد تقدم ذلك من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء

---

(١٧) المراد: الحديث الذى رواه البخارى بسنده عن عمران بن حصين ونصه:
«كان الله ولم يكن شىء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب فى الذكر كل شىء وخلق السموات والأرض».

(١٨) رواه أحمد والطبرانى وفيه: على بن زيد بن جدعان مختلف فيه ورواه ابن حيان.

(١٩) رواه الترمذى فى الفتن والزهد، وابن ماجه فى الفتن، والدارمى فى الرقاق، وأحمد فى مسنده.

والأولياء يطالعون مُثُلها.

الفائدة العاشرة: قوله: فمن أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهارى؛ فحارثة عبد وصل بكرامة الله إلى طاعة الله، ألا تراه كيف قال فى الأوّل: عزبت نفسى عن الدنيا، ثم قال بعد ذلك: فمن أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهارى. فسبق عزوب نفسه عن الدنيا معاملته لربه.

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، قال الله سبحانه:

﴿الله يجتبى إليه من يشاءُ ويهدى إليه من ينيب﴾[٢٠].

ونور الله يرد على القلب فيوجب له الاتّصاف بصفة الزهد فى الدنيا والإعراض عنها ثم ينبث منه إلى الجوارح، فما وصل منه إلى العين أوجب الاعتبار، وإلى الأذن أوجب حسن الاستماع، وإلى اللسان أورث الذكر، وإلى الأركان أورث الخدمة.

والدليل على أن النور يوجب عزوب الهمّة عن الدنيا والنأى عنها قول رسول الله ﷺ: «إنّ النور إذا دخل الصدر انشرح وانفسح».

فقيل: يا رسول الله فهل لذلك من علامة؟

قال: «التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود»[٢١].

وأما حديث حنظلة الأسدى فقد رواه مسلم فى صحيحه، قال: لقى حنظلة أبا بكر رضى الله عنه فقال: نافق حنظلة.

فقال أبو بكر رضى الله عنه وما شأن حنظلة؟

قال: نكون عند رسول الله ﷺ فيذكرنا الجنة والنار حتى كانا رأى عين، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الضيعات والزوجات[٢٢] نسينا كثيرًا.

فقال أبو بكر رضى الله عنه: إنّا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة. ثم أتيا رسول الله ﷺ فقال حنظلة: يا رسول الله نافق حنظلة.

فقال رسول الله ﷺ: وما شأن حنظلة؟

فقال: نكون عندك يا رسول الله فتذكرنا الجنة والنار حتى كأنهما رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات نسينا كثيرًا.

فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده يا حنظلة لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم، ولكن ساعة وساعة».

ففى هذا الحديث ثمانى فوائد:

---

(٢٠) الشورى: ١٣.

(٢١) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير بنحوه، وعبد الرزاق.

(٢٢) أى اجتهدنا فى شئون حياتنا ومع أهلينا فخالطناهم ولاعبناهم وعالجنا أمورهم.

الأولى: قول حنظلة: نافق حنظلة.

النفاق: مأخوذ من نافقاء اليربوع[٢٣] وهو أن يجعل لبيته بابين متى طولب من أحدهما خرج من الآخر، كذلك المنافق يظهر بظاهر الإيمان وله مسرب من الكفر باطن إذا عاتبه أهل الكفر على ما أظهر ما الإيمان فتح مسربًا من باطن كفره ليسلم من عتبهم، وإذا ظهرت عليه ريبة أهل النفاق فعوتب عليها تصوّن من ذلك بظاهر الإيمان الذى أظهره؛ ولذلك أخبر الله عنهم بقوله:

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا، وإذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزِئون﴾[٢٤].

فلما رأى حنظلة أنه يكون عند رسول الله ﷺ على حالة فإذا خرج وحاول أسباب الدنيا تغير حاله فلم يبق على نحو ما كان عليه عند رسول الله ﷺ خاف أن يكون ذلك نفاقًا لاختلاف حالتيه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ وحمله الإيمان على أن أظهر ذلك ليتطلب الشفاء منه، ويشكو داءه لمن يجد الشفاء عنده، فلما شكا ذلك لأبى بكر رضى الله عنه، قال له أبو بكر: إنا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة. ولم يجبه أبو بكر رضى الله عنه؛ لأن رسول الله ﷺ كان بين أظهرهم، فلم ير أبو بكر أن يجيب حنظلة، ولو أن حنظلة أتى أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لأجابه.

الفائدة الثانية: يستفاد من حديث حنظلة أن من حمله الصدق على إظهار ما به حصل له الشفاء إما بأن يقال إن ما ظننته داء ليس بداء، وإما أن يدل من الدواء على ما يزيل الداء فحنظلة قيل له إن ما ظننته داء ليس بداء.

الفائدة الثالثة: قول حنظلة لرسول الله ﷺ تذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا رأى عين، ولم يقل حتى نراهما رأى عين لما قدمناه من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مُثُلها فلذلك قال حنظلة حتى كأنا رأى عين، ولم يقل حتى نراهما رأى عين، كما قال حارثة، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة ولم يقل نظرت إلى أهل الجنة وقد تقدم هذا من قبل.

الفائدة الرابعة: ينبغى أن يقلل الدخول فى أسباب الدنيا ما أمكن، فهذا الصحابى يقول: فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيرًا وقد قال رسول الله ﷺ.

«إن قليلاً من الدنيا يلهى عن كثير من الآخرة».

وقال ﷺ: «ما طلعت شمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان: يأيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

الفائدة الخامسة: قوله ﷺ: «لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم».

فيه إشارة إلى أن الدوام على تلك الحالة عزيز، وأن عدم دوام العبد على تلك الحالة لا يوجب معتبة، لما طبع عليه البشر من الغفلة، فكان الدوام على تلك الحالة كالمعسور.

---

(٢٣) اليربوع أو الجربوع أو الدرص أو ذو الرميح: حيوان صغير على هيئة الجرذ الصغير وفى حجمه تقريبا.
(٢٤) البقرة: ١٤.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه، يقول: لم يقل رسول الله ﷺ إن ذلك محال أن يكون أعنى ما رتب على تقدير الدوام وهو قوله: «لصافحتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم» فقد يكون من أولياء الله من يهبه الله ذلك.

الفائدة السابعة: إنما خصّ الرسول ﷺ الفرش والطريق لأن الفرش محل الشهوات والطرق محل الغفلات، فإذا صافحتهم الملائكة فى طرقهم وفرشهم فمن الأحرى أن تصافحهم فى محل طاعاتهم ومواطن أذكارهم.

الفائدة الثامنة: اقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يستوى وقت كينونتهم عنده ووقت ذكرهم بما سواهما حتى يعرف عظيم قدر رتبة محاضرته ﷺ وعزازة الذكر وجلالة منصبها.

وقال رضى الله عنه: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر يقرأ ويخفى صوته، وسمع عمر يقرأ ويرفع صوته، فقال لأبى بكر: لم أخفضت صوتك؟ فقال: قد أسمعتُ من ناجيت.

وقال لعمر: لم رفعت صوتك؟ فقال لأوقظ الوسنان وأطرد الشيطان. فقال لأبى بكر: ارفع قليلاً، وقال لعمر اخفض قليلاً.

قال الشيخ رضى الله عنه: أراد أن يخرج كلا منهما عن إرادته لنفسه لمراد رسول الله ﷺ له.

وقال رضى الله عنه فى قول رسول الله ﷺ:

«أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»:

أى ولا أفتخر بالسيادة، وإنما أفتخر بالعبودية لله سبحانه.

وكان كثيرًا ما ينشد:

يا عمرو نادى عبد زهراء ... يعرفه السامع والرائى
لا تدْعنى إلا بياعبدها ... فإنه أشرف أسمائى

وقال: كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول:

المؤمن فى الدنيا أسير ولا فكاك للأسير إلاّ بإحدى ثلاث: إمّا بالحيلة، وإما بالفدية، وإما بالعناية.

وما ذكره الشيخ مأخوذ من قول رسول الله ﷺ:

«الدنيا سجن المؤمن»(٢٥)

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى تفسير هذا الحديث: وشأن المسجون التحديق بعينيه والإصغاء بأذنيه متى يدعى فيجيب.

وقال رضى الله عنه: الأنبياء إلى أممهم عطيّة ونبينا ﷺ هديّة، وفرق بين العطية والهدية؛ لأن العطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين، قال رسول الله ﷺ:

---

(٢٥) رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه.

«إنما أنا رحمة مهداة»[٢٦].

وقال فى قوله ﷺ: «السلطان ظلّ الله فى الأرض»[٢٧]: هذا إذا كان عادلاً، فأمّا إذا كان جائرًا فهو ظلّ النفس والهوى.

وقال رضى الله عنه: مات رجل من أهل الصفة فوجد فى شملته ديناران فقال ﷺ: «كيَّتان من نار».

قال الشيخ: وقد مات على عهد رسول الله ﷺ كثير من الصحابة وتركوا أموالاً فما قال رسول الله ﷺ فيهم مثل ما قال فى هذا؛ لأنهم لم يبطنوا خلاف ما أظهروا، وهذا الذى كان من أهل الصفة أظهر الفاقة، وكان عنده هذان الديناران، فلما أظهر خلاف ما أبطن قال الرسول ﷺ: «كيتان من نار».

وقال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[٢٨].

فقال رضى الله عنه: بأى طريق يحشر مع النبيين؟ وبأى طريق يحشر مع الصديقين، وبأى طريق يحشر مع الشهداء، وبأى طريق يحشر مع الصالحين؟

يحشر مع الأنبياء، فإن الأنبياء، شأنهم أداءُ الأمانة، بذل النصيحة. فيحشر مع الأنبياء بهذا الوصف، وهذا التاجر أدّى الأمانة وبذل النصيحة.

ويحشر مع الصديقين؛ لأن الصدّيق شأنه الصفاءُ فى الظاهر والباطن، قد استوى ظاهره وباطنه، والتاجر الصدوق كذلك، فيحشر مع الصديقين بهذا الوصف.

ويحشر مع الشهداء؛ فإن الشهيد شأنه الجهاد، والتاجر الصدوق يجاهد نفسه وشيطانه وهواه، فيحشر مع الشهداء بهذا الوصف.

ويحشر مع الصالحين؛ فإن الصالح شأنه أخذ الحلال وترك الحرام فيحشر مع الصالحين بهذا الوصف[٢٩].

---

(٢٦) ابن سعد والحكيم عن أبى صالح مرسلاً، والحاكم عن أبى هريرة وصححه.

(٢٧) رواه الطبرانى والبيهقى فى الشعب.

(٢٨) رواه ابن ماجه والحاكم والترمذى.

(٢٩) الدنيا المذمومة فى العرف الدينى هى الشهوات، يقول الله سبحانه:

﴿زين للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث﴾ ثم قال سبحانه عن كل ذلك: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

أما إذا استخدمت الدنيا من أجل الآخرة، فإنها لا تصبح شهوات، إنما تصبح معبرًا يعبر به الإنسان – فى رضا من الله – إلى الآخرة، ومن أجل ذلك يقول سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ فإذا ما صير الإنسان حياته تجارة وعبادة وغير ذلك. وإذا ما صير حياته عبادةً بالنية الصادقة فى الاتجاه إلى الله فقد استجاب إلى الغاية التى أحبّها الله سبحانه وتعالى من الخلق،

وما ذكرناه هو نوع من الشرح لكلام الإمام الكبير أبى العباس المرسى رضى الله عنه.

الباب السابع

فى تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله ذلك على أجمل الطرائق

قال رضى الله عنه: قال سهل بن عبد الله:

لا تكونوا من أبناء الدهور ولا من أبناء العدّ والإحصاء، وكونوا من أبناء الأزل أشقىٌّ أم سعيد؟

ثم قال رضى الله عنه: يقول أحدهم: صلّيت كذا وكذا ركعة، صُمت كذا وكذا شهرًا، ختمت كذا وكذا ختمة، حججت كذا وكذا حجّة، فهؤلاء من أبناء العدّ والإحصاء فهم إلى عدّ سيّئاتهم أحوج منهم إلى عدّ حسناتهم.

وأما أبناءُ الدهور فيقول أحدهم: لى فى طريق الله سبعون سنةً، لى فى طريق الله ستّون سنةً.

وكونوا من أبناء الأزل أشقىٌّ أم سعيد يعنى: لاحظوا ما سبق فى علم الله ولا تتّكلوا على مالكم من العلم والعمل، ولكن ارجعوا إلى وجود الأزل.

وقال رضى الله عنه: قال بشر الحافى رضى الله عنه:

منذ أربعين سنة أشتهى الشواء فما صفا لى ثمنه.

فقال الشيخ رضى الله عنه من ظنّ أن هذا الشيخ مكث أربعين سنةً ما وجد درهمًا حلالاً يشترى به شواءً فقد أخطأ؛ من أين له فى الأربعين سنة ما يأكل وما يلبس، وإنما المعنى فى ذلك أن هؤلاء قوم أصحاب مراتب لا يأكلون ولا يشربون ولا يدخلون فى شىء ولا يخرجون من شىءٍ إلّا بإذن من الله وإشارة، فلو أذن له فى أكل الشواءِ لصفا له ثمنه.

وقال رضى الله عنه: قوت القوم على أربعة أوجه: مباحٌ، وحلالٌ، وطيّب، وصاف.

فالمباح ما كان مستوى الطرفين ما على آخذه عقاب ولا فى تركه ثواب.

والحلال هو ما لم يخطر لك ببال ولا سألت فيه أحدًا من النساء والرجال.

والطيّب هو ما أخذه العبد بوصف الفناء إذ لا وصف له مع مولاه.

والصافى هو ما عاينه العبد من المنبع، يعنى من عين قدرة الله سبحانه وتعالى.

وقال رضى الله عنه: قال الجنيد: أدركت سبعين عارفًا كلّهم يعبدون الله على ظنٍّ ووهمٍ حتى أخى أبى يزيد لو أدرك صبيا من صبياننا لأسلم على يديه.

فقال الشيخ: معنى قوله: يعبدون الله على ظنٍّ ووهم لا يريد بذلك ظنًّا فى المعرفة ووهمًا فيها؛

وكيف تجتمع المعرفة والظن والوهم! وإنما المراد أنهم وصلوا إلى مقامات توهّموا أن ليس وراءها للموقنين مقام؛ فقال الجنيد: لو أدرك صبيًّا من صبياننا لأسلم على يديه، أى لبيّن له أن فوق ذلك المقام مقام وفوق ذلك مقام إلى مالا آخر له، ومعنى لأسلم على يديه أى لانقاد له فالإسلام هو الانقياد.

وقال رضى الله عنه فى قول أبى يزيد: خضتُ بحرًا وقفت الأنبياء بساحله.

إنما يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام.

ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى الخوض، أى فلو كنت كاملًا لوقفت حيث وقفوا وهذا الذى فسر الشيخ به كلام أبى يزيد هو اللائق بمقام أبى يزيد، وقد قدّمنا عنه أنه قال: جميع ما أخذ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزق مملوء عسلًا ثم رشحت منه رشاحة فما فى باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة هى للأولياء.

والمشهور عن أبى يزيد التعظيم التام لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب حتى أنه حكى عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته فقعد فى المسجد ينتظره فخرج ذلك الرجل وتنخّم فى حائط المسجد، فخرج أبو يزيد ولم يجتمع به وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة، فكيف يؤمن على أسرار الله وما جاء عن الأكابر أولى الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يشكل ظاهرها؛ أوّلناها لهم لما علمناه من استقامتهم وحسن طريقتهم، فقد قال ﷺ:

«ولا تظنّن بكلمة برزت من امرئٍ مسلم سوءًا وأنت تجد لها فى الخير محملًا».

وقال رضى الله عنه: كان الحارث بن أسد المحاسبى إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه إصبعه، فسأل الشيخ سائل فقال: يا سيدى قد جاء أن الصدّيق قدِّم إليه لبن فأكل منه فوجد كدرته فى قلبه.

فقال: من أين لكم هذا اللبن؟

فقال له غلام: كنت تكهّنت لقوم فى الجاهلية فأعطونى ثمن كهانتى.

فتقيأه أبو بكر رضى الله عنه ثم قال:

«والله لو لم يخرج إلّا بمصارينى لأخرجته»(١).

فلم يكن على يد الصديق عرق يتحرك عليه إذا قدِّم له طعام فيه شبهة والصدّيق أوْلى بكل مزية من سائر الأمة وقد وُزن بالأمة فرجحها!

فقال الشيخ رضى الله عنه: الصدّيق رضى الله عنه كالوكيل المفوض إليه، مطهّر من البقايا فلا يحتاج إلى إشارة، والحارث بن أسد بقيت عليه البقايا فلذلك ألزم الإشارة حتى لا يدخل فى شىء بنفسه وهواه، وأبو بكر رضى الله عنه طهر من النفس والهوى فلا يحتاج إلى إشارة.

واعلم أن من حسن اختيار الله لأبى بكر أن تناول من ذلك اللبن حتى تكلّف طرحه بعد شربه

---

(١) رواه البخارى.

فيثيبه الله على ذلك، وأيضًا ليجعله قدوةً للعباد فيقتدى به من أكل طعامًا فيه شبهة ولم يعلم أن الأولى له قيئه.

وليس لقائل أن يقول: قد ضمنه بأكله وقد تناوله وهو غير آثم إذ هو غير عالم، فإن أبا بكر ما سأل عن اللبن إلّا حتى وجد له كدرة فى قلبه، دلّ ذلك على أن الحرام أو الشبهة قد يؤثر فى القلب كدرةً أو قسوةً وإن لم يعلم به متناوله وقت تناوله.

وهكذا هم أهل التخصيص إن وقع منهم أمر مثل هذا ونحوه فهو ممّن حسن اختيار الله لهم حتى يفتح بهم السبيل للعباد، كما كان من حسن اختيار الله لآدم أكله من الشجرة بعد أن نهى عنها حتى يتوب من الفعل فيكون قدوةً للتائبين، وحتى يتعرّف إليه بحلمه فيعلم أنه أكرم الأكرمين، ويوقفه على وجود ستره ولطفه، فيعلمه أنه اللطيف بعباده المؤمنين، وليكون أكل الشجرة سببًا فى النزول، والنزول سببًا فى الخلافة؛ فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: أكرم بها معصية أورثت الخلافة.

وقال: والله لقد أنزل الله آدم إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله ﴿إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفة﴾. وقد بسطنا القول فى هذا الموضع فى كتاب التنوير(٢) فلا نعيده.

وقال رضى الله عنه: إنما بدأ القشيرى فى رسالته بالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم لأنهما كانا قد تقدّم لهما زمن قطيعة ثم أقبلا فأقبل الله عليهما فبدأ بذكرهما بسطًا لرجاء المريدين الذين كانت تقدّمت منهم الزلّات وسبقت منهم المخالفات ثم رجعوا إلى استقراع أبواب العنايات؛ إذ لو بدأ بالجنيد وسهل بن عبدالله التسترى وعتبة الغلام وأمثالهم ممن نشأ فى طريق الله لقال القائل: ومن يدرك هؤلاء، هؤلاء لم تسبق منهم زلات ولم تتقدم منهم مخالفات.

وقال رضى الله عنه فى الحكاية المشهورة عن سمنون المحب أنه كان ينشد:

وليس لى فى سواك حظ ... فكيفما ما شئت فاختبرنى

فابتلى بعلّة الأسر وهو احتباس البول، فتجلّد يومًا فزاد الألم، فتجلّد الثانى فزاد الألم، فتجلد ثالثًا ورابعًا فزاد الألم فهو فى صبيحة اليوم الرابع وإذا بإنسان من أصحابه قد أتاه وقال: يا سيدى

---

(٢) قال ابن عطاء الله فى كتابه التنوير:

فائدة جليلة: اعلم أن أكله عليه السلام للشجرة لم يكن عنادًا ولا خلافًا، فإما أن يكون:

نسى الأمر، فتعاطى الأكل وهو له غير ذاكر، وهو قول بعضهم، ويحمل عليه قوله تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما﴾ أو إن كان تناوله ذاكرًا للأمر فهو إنما تناوله لأنه قيل له:

﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا ملَكين أو تكونا من الخالدين﴾.

فلحبه فى الله، وشغفه به أحبّ ما ؤديه إلى الخلود فى جواره، والبقاء عنده، أو ما يؤدّيه إلى الملكية؛ لأن آدم - ﷺ - عاين قرب الملكية من الله فأحبّ أن يأكل من الشجرة لينال رتبة الملكية التى هى أفضل، أو التى هى فى ظنّه كذلك على اختلاف أهل العلم وأهل المعرفة أيضًا أيهما أفضل؟ الملكية أم النبوة؟ لاسيما وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾.

قال آدم عليه السلام: ما ظننت أن أحدًا يحلف بالله كاذبًا، فكان كما قال الله تعالى: ﴿فدلّاهما بغرور﴾.. إلخ. - التنوير ص ٧٤ - ٧٥.

سمعت البارحة صوتك عند دجلة وأنت تستغيث إلى الله وتسأله رفع ما نزل بك فجاءه ثان وثالث ورابع لم يكن هو سأل، فعلم أنها إشارة له من الله بالسؤال فصار يدور على صبيان المكاتب ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب.

فقال الشيخ رضى الله عنه : رحم الله سمنونًا عوض ما قال : «فكيفما ما شئت فاختبرنى». كان يقول : فكيفما شئت فأعف عنى فطلب العفو أوْلى من طلب الاختبار.

وقال رضى الله عنه فى الحكاية المشهورة التى ذكرها الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى رسالته : قال الجنيد: دخلت على السرى فوجدته متغيرًا فقلت: ما بالك يا أستاذ متغيرا ؟ قال: دخل على شاب آنفا فقال لى: ما التوبة؟

فقلت له: أن لا تنسى ذنبك. فقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك. فماذا تقول أنت يا أبا القاسم؟

قال: فقلت: القول عندى ما قال الشاب؛ لأنى إذا كنت فى حال الجفاء ثم نقلنى إلى حال الصفاء، فذكر الجفاء وقت الصفاء جفاء.

قال الشيخ رضى الله عنه: كلام السرى أتم من كلاميهما؛ لأن كلام السرى يدل على مبادئ المقامات، وكذلك القدوة يلزم بالكلام على مقامات العباد بداياتها ونهاياتها، وإنما تأتى النهايات من البدايات.

والجنيد لم يكن فى ذلك الوقت بمقام أن يكون قدوة، وكذلك الشاب، فتكلما على أحوال أهل الارتقاء فى نهاياتهم، فكلامهما يخص حالهما وكلام السرى مهيع[٣] مورد للسالكين هذا معنى كلام الشيخ رضى الله عنه.

وقال رضى الله عنه فى قول بعضهم: لا يكون الصوفى صوفيا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا عشرين سنة.

ليس معنى ذلك أن لا يقع منه ذنب عشرين سنة، ولكن معناه أنه إذا أذنب الذنب استغفر الله منه، والملك الموكل بكتب السيئات لا يكتب السيئة حتى ينتظر العبد لعل أن يرجع أو يتوب، وكلما أراد أن يكتبها قال له ملك اليمين: امكث فعسى أن يتوب. إلى أن يبلغ عددا إما السبع وإما العشر - الشك منى - فحينئذ يكتبها سيئة، فلذلك جاء صاحب اليمين أميرا على صاحب الشمال.

(٣) المهيع: الطريق الواسع المنبسط.

الباب الثامن

فى كلامه فى الحقائق والمقامات وكشفه فيها عن الأمور المعضلات

قال رضى الله عنه: الشوق على قسمين: شوق على الغيبة لا يسكن إلّا بلقاء الحبيب وهو شوق النفوس.

وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة.

فإذا رفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلل فذاك مقام التعريف إيمانا حقيقيا وذاك ميدان تنزل أسرار الأزل.

وإذا أنزلك إلى محل المثابرة والجهاد فذاك مقام التكليف المقيد بالعلل، وهو الإسلام الحقيقى، وذلك ميدان تجلى حقائق الأبدية.

والمحقق من لا يبالى بأى صفة يكون؛ لأن صفتك تميل لا أنت، والصفة من العين للعين وهو ظهورك، والاسم للسان وهو نطقك، والاسم حقيقة الصفة، والصفة حقيقة الوجود، والأسرار متنزلة عن الوجودية للصدّيقية، والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة عن الاسم بالدليل لأهل السعاية، وإليه الإشارة بقوله ﷺ لأبى جحيفة:

يا أبا جحيفة، سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء فالعالم يدلك بالعلم من الأسماء ونهايته الجنة، والحكيم المقرب يحملك باليقين وبالحقائق من الصفات ونهايته منازل القربة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ والكبير يدلك بالأسرار من الوجود على طريق الصفاء والنزاهة ونهايته إلى الله.

وتجتمع المراتب الثلاثة فى الكبير فجمل قوما بالعلم وقوما بالحقائق وقوما بالأسرار وهم خلفاء الأنبياء وأبدال الرسل وهم البصراء.

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾.

أى على معاينة، يعاين لكل صنف طريقهم فيحملهم عليها وهى النيابة، وأما هو فقد انفرد بحالة لا تعرف لعظيم قربه.

وكان ينشد رضى الله عنه:

وغنّى لى منى قلبى ... فغنيت كما غنّى
وكنا حيثما كانوا ... وكانوا حيثما كنا

وقال رضى الله عنه:

أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية.

ولله عليك فى كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية.

فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله تعالى إذ هداه لها ووفقه للقيام بها.

ومن كان وقته المعصية فسبيله الاستغفار والتوبة.

ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله.

ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا رضُّ النفس عن الشهوات، والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهام، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر.

والصبر ثبات القلب بين يدى الرب، قال رسول الله ﷺ:

«من أعطى فشكر، وابتلى فصبر؛ وظُلم فغفر؛ وظلم فاستغفر».

ثم سكت فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟

قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»(٤).

أى لهم الأمن فى الآخرة وهم مهتدون فى الدنيا.

وقال رضى الله عنه: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله؛ قال الله سبحانه:

﴿الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من يُنيب﴾(٥).

ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه فسار يطوى مهامه(٦) نفسه وبيداء(٧) طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصدق على هذا قوله سبحانه:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾(٨).

ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى:

﴿يختصُّ برحمته من يشاء﴾(٩).

فالأول حال السالكين.

والثانى حال المجذوبين.

فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة.

---

(٤) رواه ابن مردويه.

(٥) الشورى: ١٣.

(٦) مهامه جمع مهمه وهو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس.

(٧) البيداء: الصحراء الواسعة سميت بذلك لأنها تبيد من يحلها.

(٨) العنكبوت: ٦٩.

(٩) آل عمران: ٧٤.

ومن كان مبدؤه المواصلة رد إلى وجود المعاملة.

ولا تظنن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله له، فسلكها مسرعًا إلى الله عجلا.

وكثيرا ما تسمع عند مراجعات المنتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب؛ لأن السالك عرف الطريق وما توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء منهم على أن المجذوب لا طريق له.

وليس الأمر كما زعموا فإن المجذوب طويت الطريق له، ولم تطو عنه، ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعبها وطول أمدها، والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا.

وقال رضى الله عنه: العارف لا دنيا له لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه.

وقال رضى الله عنه: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا.

وقال رضى الله عنه: الزاهد غريب فى الدنيا لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب فى الآخرة فإنه عند الله.

فإن قلت: ما معنى الغربة فى كلام الشيخ هنا وما معناها فى الحديث الوارد: «بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء»؟[١٠].

فاعلم أن الغربة المذكورة فى الحديث معناها قلة من يعين على القيام بالحق، فيكون القائم به غريبا لفقدان المساعد وعدم المعاضد، فلا ينهض القائم حينئذ إلا قوة إيمانه، ووفور إيقانه، فلذلك قال ﷺ:

«بدأ الدين غريبًا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء».

يريد ﷺ أنهم قاموا بأمر الله فى بلاده وعباده حيث تقاعدت هم الناس عن القيام به.

وأما الغربة فى كلام الشيخ رضى الله عنه فمعناها أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة، فتبقى الآخرة موطن قلبه ومعشش روحه فيكون غريبا فى الدنيا إذ ليست وطنا لقلبه عاين الدار الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها، وفيما شاهد من عقوبتها ونكالها، فاستغرب فى هذه الدار.

وأما العارف فإنه غريب فى الآخرة فإنه كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هنالك فصار غريبا فى الآخرة لأن سره مع الله بلا أين، فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم إليها يأوون وفيها يسكنون، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين، فلم ينزلوا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة ولا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، بل كانوا فى ذلك كله بآداب الله وآداب رسله وأنبيائه متأدبين، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين.

وقال رضى الله عنه:

---

(١٠) رواه مسلم وابن ماجه والترمذى والطبرانى بنحوه.

الخوف على قسمين: خوف العامة، وخوف الخاصة.

فخوف العامة على أجسادهم من النار.

وخوف الخاصة على خلعهم التى كساهم مولاهم أن تدنس بالمخالفة.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة لم تنفذ بصائرهم إلى شهود خلع الحق عليهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة، وعلموا أن الله تعالى قد توعد أهل المعصية بعقوبته فخافوا الوقوع فى المعصية لئلا يكون ذلك سبب وقوع العقوبة بهم فكان خوفهم إشفاقا على نفوسهم من عقوبة الله.

وأما أهل الخصوصية فأعطاهم الحق من نوره ما أشهدهم به ما كساهم من خلع منته فعملوا على صيانتها ليقدموا عليها بها لم تدنس ولم تتغير طاهرة نقية، مشرقة بهية؛ وفهموا معنى قوله تعالى: ﴿وثيابك فطهر﴾[١١].

فطهروا ملابس إيمانهم وإيقانهم من دنس غفلتهم وعصيانهم، وفهموا أيضا قوله تعالى: ﴿يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوْءاتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير﴾[١٢].

فعبروا الدنيا وقد رفعوا ملابس المنن خشية أن تدنس بأوساخها كى يقدموا عليه بخلعه التى أنعم بها عليهم، ونهضوا له بالوفاء فيما اقتضى منهم، وبالأمانة والصيانة فيما استأمنهم.

وكان بعض العارفين ينشد:

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه	فقلت خلعه ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوباى تحتهما	قلب يرى ألفة الأعياد والجمعا
العيد لى مأتم إن غبت يا أملى	والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب بها	يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا

وقال رضى الله عنه:

العامة إذا خوِّفوا خافوا، وإذا رجوا رجوا.

والخاصة متى خوفوا رجوا، ومتى رجوا خافوا.

ومعنى كلام الشيخ أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر، فإذا خوفوا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله.

وأهل الله إذا خافوا رجوا: عالمين أن من وراء خوفهم وما به خوفوا أوصاف المرجو الذى لا ينبغى أن يقنط من رحمته، ولا أن ييئس من مننه، فاحتالوا على أوصاف كرمه، علما منهم أنه ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه، وليردهم بذلك إليه.

وإذا رجوا خافوا، يخافون غيب مشيئته التى هى من وراء رجائهم، وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختبارًا لعقولهم، هل نقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى خوف ما بطن فى مشيئته؛ فلذلك

---

(١١) المدثر: ٤.

(١٢) الأعراف: ٢٦.

استثار الرجاء خوفهم، وحكمهم فى القبض والبسط كما قال الشيخ فى الخوف والرجاء غير أن البسط مزلة إقدام الرجال، فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم.

قال بعضهم: فتح لى باب من البسط فانبسطت، فحجبت عن مقامى ثلاثين سنة.

وكان الشيخ رضى الله عنه ينشد:

واقطع السير إليه السير إليه زميلا[١٣] فـإذا مـا نلـت منـه وصـولا

فاقرع الباب قليلاً قليلا.

غيره:

واحـذر البسط ونـادى بالحـبيب من على بعد تُنـادَى منَ قريب

فقوله: واحذر البسط لما قدمناه، فإن من رزق من الأنوار البسط فإنه يخشى على العبد أن يبغيه وجوده، قال الله سبحانه:

﴿ولو بسَط الله الرزقَ لعباده لبغوْا فى الأرض﴾[١٤].

والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأنه وطن العبد، إذ هو فى أسر قبضة الله وإحاطة الحق محيطة به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه؟ والبسط خروج عن حكم وقته، والقبض هو الأليق بهذه الدار إذ هى وطن التكليف وإبهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى[١٥].

وأخبرنى بعض الصوفية قال: رأى شيخنا شيخه فى المنام بعد موته مقبوضًا، فقال له: يا أستاذ مالك مقبوضا؟ فقال له: يا بنى القبض والبسط مقامات من لم يوفّها فى الدنيا وفّى بها فى الآخرة.

وكان هذا الشيخ الغالب عليه فى حياته البسط.

وقوله: ونادى بالحبيب من على بعد، أى من شهود استحقاق الإجابة أو من على بعد من دعواك لأوصاف الربوبية، أو من على بعد لوجود شهود الإساءة.

وقال الشيخ أبوالحسن رضى الله عنه: ماطلبت من الله حاجةً إلّاوقدمت إساءتى أمامى.

فإن قلت: فحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار فانحطّت عليهم صخرة فسدّت باب الغار فقالوا:

---

(١٣) من زمل يزمل: عدا وأسرع معتمدا فى أحد شقّيه رافعًا جنبه الآخر.

(١٤) الشورى: ٢٧.

(١٥) قال القشيرى فى «الرسالة القشيرية» عن القبض والبسط.

وهما حالتان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف: بمنزلة الرجاء للمستأنف.

ومن الفصل بين القبض والخوف، والبسط والرجاء: أن الخوف إنما يكون من شىء فى المستقبل: إمّا أن يخاف فوْت محبوب؛ أو هجوم محذور - وكذلك الرجاء: إمّا أن يكون بتأميل محبوب فى المستقبل، أو بتطلّع زوال محذور وكفاية مكروه فى المستأنف. وأما القبض: فلمعنى حاصل فى الوقت، وكذلك البسط، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه فى حالتيه بآجله، وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بوارد غلب عليه فى عاجله.

ثم قال: وقد عد أهل التحقيق حالتى القبض والبسط من جملة ما استعاذوا منه، لأنهما بالإضافة إلى ما فوقهما من استهلال العبد واندراجه فى الحقيقة: فقر وضر!.

ليذكر كلُّ واحد منكم أرجى عمل عمله لله، فذكر أحدهم برّه بوالديه، والآخر عفافه عن ابنة عمه مع حبّه إياها والتمكن منها، وذكر الآخر تثميره لأجرة أجير استأجره فلما وجده دفع ذلك كلّه إليه، فكشف الله عنهم ما نزل بهم وزالت الصخرة عن فم الغار فخرجوا، هذا معنى الحديث مختصرًا رواه مسلم فى صحيحه(١٦):

فاعلم أن هؤلاء الثلاثة لم يذكروا طاعاتهم إلّا وقد شهدوها فضلًا من الله عليهم فتوسّلوا بنعمة إلى نعمة كما أخبر الله عن زكرياءَ.

﴿ولم أكن بدعائك ربِّ شقيّا﴾.

فتوسّل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه.

وسألت امرأة بعض الملوك فقالت: إنك قد أحسنت إلينا عام أوّل ونحن محتاجون لإحسانك إلينا هذا العام. فقال: أهلًا بمن توسّل لإحساننا بإحساننا وأعطاها وأجزل لها العطاء.

ومن فتح له هذا الباب جاز له الإخبار بطاعته ووجود معاملته؛ لأنه حينئذ متحدّث بنعم الله سبحانه.

وقد كان بعض السلف يصبح فيقول: صلّيتُ البارحة كذا كذا ركعةً، تلوت البارحة كذا كذا سورةً، فيقال له؛ أما تخشى من الرياء؟ فيقول: ويحكم وهل رأيتم من يرائى بفعل غيره؟

وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له: لم لا تكتم ذلك؟ فيقول: ألم يقل الله سبحانه:

﴿وأمّا بنعمة ربِّك فحدِّث﴾(١٧). وأنتم تقولون: لا تحدث.

وقال رضى الله عنه: كان الإنسان بعد أن لم يكن، وسيفنى بعد أن كان، ومَنْ كلا طرفيه عدم فهو عدم.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن الكائنات لا تثبت لها رتبة الوجود المطلق؛ لأن الوجود المطلق إنما هو لله، وله الأحديّة فيه، وإنما للعوالم الوجود من حيث ما أثبت لها.

واعلم أن مَن الوجود له من غيره فالعدم وصفه فى نفسه، وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: الصوفى من يرى الخلق فى طىّ سرّه كالهباء فى الهواء لا موجودين ولا معدومَين حسبما هم فى علم رب العالمين.

وقال أيضًا رضى الله عنه – وقد تقدم: وإنّا لا نرى أحدًا من الخلق، هل فى الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولابد فكالهباء فى الهواء إن فتشته لم تجده شيئًا.

وفى كتاب الحكم(١٨) من كلامنا: العوالم ثابتة بإثباته ممحوّة لأحدية ذاته.

وقال الشيخ أبوالحسن رضى الله اه: كان لى صاحب كثيرًا ما يأتينى بالتوحيد فقلت له: إن

---

(١٦) ورواه البخارى فى صحيحه.

(١٧) الضحى: ١١.

(١٨) كتاب «الحكم» من أشهر كتب ابن عطاء الله السكندرى وهو – كما يدل سباق العبارة – أسبق فى التأليف من «لطائف المنن» الذى هو موضوع التحقيق.

أردت التى لا لوم فيها فليكن الفرق على لسانك موجودًا، والجمع فى باطنك مشهودًا.

وأشبه شىء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال والظلّ، لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ولامعدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا أثبتَّ ظلّيه الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر؛ إذ الشىء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله، كذلك أيضًا من شهد ظلّيه الآثار لم تعقه عن الله، فإن ظلال الأشجار فى الأنهار لايعوق السفن عن التسيار، ومن هـٰهنا يتبين لك أيضًا أن الحجاب ليس أمرًا وجوديًا بينك وبين الله، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودى للزم أن يكون أقرب إليك منه ولاشىء أقرب إليك من الله فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهّم الحجاب، فما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لا موجود معه، وإنما حجبك عنه توهّم موجود معه، وذلك كرجل بات فى مكان وأراد البروز فسمع صوت الرياح من كوّة هناك فظنّه زئير أسد فمنعه ذلك عن البروز، فلما أصبح لم يجد هناك أسدًا وإنما هو الريح انضغط فى تلك الكوة فما حجبه وجود أسد، وإنما حجبه توهم الأسد.

وسمعته يقول: لو عذّب الله الخلائق أجمع لم ينلك من عذابهم من شىء، ولو نعمهم أجمع لم ينلك من نعيمهم شىء، فكأنك فى الوجود وحدك ثم أنشد:

أنت المخاطب أيها الإنسان فأصخ إلىّ يلح لك البرهان

وسمعته يقول: دخلت على الشيخ أبى الحسن وفى نفسى أن آكل الخشن وألبس الخشن.

فقال لى الشيخ: يا أبا العباس أعرف الله وكن كيف شئت.

ودخل على الشيخ أبى الحسن فقير وعليه لباس من شعر، فما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ وأمسك بملبسه، وقال:

ياسيدى ما عبدالله بمثل هذا اللباس الذى عليك.

فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال:

ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك، ولباسى يقول: أنا غنى عنكم فلا تعطونى، ولباسك يقول: أنا فقير إليكم فأعطونى.

وهكذا طريق الشيخ أبى العباس وشيخه أبى الحسن رضى الله عنهما وطريقة أصحابها الإعراض عن لبس زىٍّ ينادى على سرِّ اللابس بالإفشاء، ويفصح عن طريقه بالإبداء. ومن لبس الزىّ فقد ادّعى.

ولا تفهم رحمك الله أنا نعيب بهذا القول على من لبس زى الفقراء، بل قصدنا أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للقوم أن يلبس ملابس الفقراء، فلا حرج على اللابس، ولا على غير اللابس، إذ كانا من المحسنين.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾(١٩).

وأما لبس اللباس اللّين وأكل الطعام الشهىّ وشرب الماء البارد فليس القصد إليه بالذى يوجب

(١٩) التوبة: ٩١.

العتب من الله إذا كان معه الشكر لله.

وقد قال الشيخ أبو الحسن: يابنى برِّد الماءَ فإنك إذا شربت الماء السخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله.

والأصل فى هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام.

﴿فسقَى لهما ثم تولَّى إلى الظلِّ فقال ربِّ إنى لما أنزلتَ إلىَّ من خيْرٍ فقير﴾[٢٠].

ألا ترى كيف تولّى إلى الظلّ قصدًا لشكر الله تعالى على ما ناله مّن النعمة؟

وسمعته يقول: اختلف الناس فى اشتقاق الصوفى: فمنهم من قال: إنه منسوب إلى الصوف لأنه لباس الصالحين.

وقيل: هو منسوب إلى الصفّة، يعنى صفّة مسجد رسول الله ﷺ التى ينسب إليها أهل الصفّة وهو نسب على غير قياس.

ثم قال: وأحسن ما قيل فيه: إنه منسوب لفعل الله به، أى صافاه الله فصوفى؛ فسمّى صوفيًّا، ثم أنشد رضى الله عنه:

تخالف الناس فى الصوفى واختلفوا ... وكلهم قال قولاً غير معروف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتًى ... صافَى فصوفى حتى سمّى الصوفى

وسمعته يقول: الصوفى مركب من حروف أربعة: الصاد والواو والفاء والياء.

فالصاد صبره وصدقه وصفاؤه.

والواو وجده وودّه ووفاؤه.

والفاء فقده وفقره وفناؤه.

والياء ياء النسبة.

إذا تكمل فيه ذلك أضيف إلى حضرة مولاه.

وسئل رضى الله عنه عن قول عيسى عليه السلام؛ يا بنى إسرائيل بحق أقول لكم: لا يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين.

فقال رضى الله عنه: أنا والله ممن ولد مرتين، الإيلاد الأوّل: إيلاد الطبيعة، والإيلاد الثانى: إيلاد الروح فى سماء المعارف.

وسمعته رضى الله عنه يقول: ولن يصل الولىّ إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لن يصل الولىّ إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته.

ومعنى كلام الشيخ رضى الله عنه: لن يصل الولىّ إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى

(٢٠) القصص: ٢٤.

الله، أى انقطاع أدب لا انقطاع ملل، يغلب عليه التفويض إلى الله وشهود حسن الاختيار منه، فيُلقى القياد إليه ويترك نفسه سلمًا بين يديه فلا يختار مع مولاه شيئًا لعلمه بما فى الاختيار مع الله من الآفات. ولنا فى هذا المعنى من قصيدة ذكرناها فى كتاب التنوير.

وكن عبده وألق القياد لحكمه — وإيّاك تدبيرًا فما هو نافع
أتحكم تدبيرًا وغيرك حاكم — أأنت لأحكام الإله تنازع
فمحو إرادات وكل مشيئة — هو الغرض الأقصى فهل أنت سامع
كذلك سار الأوّلون فأدركوا — على إثرهم فليمش من هو تابع

وقال رضى الله عنه:

اعلم أن الله خلق هذا الآدمى وقسمه على ثلاثة أجزاء:

فلسانه جزء.

وجوارحه جزء.

وقلبه جزء.

وجعل على كل جزء حفيظًا فقال سبحانه وتعالى:

﴿ما يلفظ من قولٍ إلّا لديه رقيبٌ عتيد﴾[٢١].

وقال سبحانه:

﴿ولا تعملون من عمل إلَّا كنّا عليكم شهودًا إذ تُفيضون فيه﴾[٢٢].

وتولّى حفظ القلب بنفسه فقال عزّ وجل:

﴿واعلموا أنّ الله يعلَم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾[٢٣].

وسلّط على الجوارح الشيطان.

واقتضى من كل جزء وفاء ما ألزم به.

فوفاءُ القلب أن لا يشتغل بهمّ دنيا ولا بمكر ولا حسد.

---

(٢١) ق: ١٨.

(٢٢) يونس: ٦١.

(٢٣) البقرة: ٢٣٥.

المراد بالتدبير المنهى عنه: هو اعتقاد الإنسان أن له دخلًا فى النتيجة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لله عاقبة الأمور﴾ والإنسان المؤمن يحكم الأمر إحكامًا تامًّا كما كان يفعل رسول الله ﷺ فى جميع أموره: فى الدعوة، وفى الغزوات، وفى العمل على الانتصار والفوز، إنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحكم أمر ذلك إحكامًا تامًّا، لا يدع صغيرة ولا كبيرة للمصادفة أو للحظ ثم هو صلوات الله وسلامه عليه يدع أمر النتيجة لله سبحانه وتعالى ويرضى بها، ثم ينطلق منها مباشرة: - فوزًا كانت أو غيره - إلى ما تستلزمه من عمل يترتب عليها. يبدأ صلوات الله وسلامه عليه فى إحكامه وفى تصيف أوضاعه بحسب الحكمة الدقيقة ثم يترك النتائج إلى الله سبحانه وتعالى وهكذا، وأئمة الصوفية جميعًا، ومنهم أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وابن عطاء الله السكندرى - رضى الله عنهم جميعًا وجزاهم عن الخير أحسن الجزاء - يسيرون على هذا النسق لأنهم يتخذون رسول الله ﷺ أسوة حسنة استجابةً لقوله تعالى:

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾.

ووفاءُ اللسان أن لا يغتاب ولا يكذب ولا يتحدث فيما لا يعنيه.

ووفاء الجوارح أن لا يسارع بها إلى معصية ولا يؤذى أحدًا من المسلمين.

فمن وقع من قلبه فهو منافق.

ومن وقع من لسانه فهو كافر.

ومن وقع من جوارحه فهو عاص.

وقال رضى الله عنه: صلاح العبد فى ثلاثة أشياء: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا، فمن عرف الله خاف منه، ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله، ومن عرف الدنيا زهد فيها.

وقال رضى الله عنه: قالى لى شيخى: لا تصحب إلّا من تكون فيه أربع خصال: الجود من القلّة، والصفح عن المظلمة، والصبر على البلية، والرضا بالقضية.

وقال رضى الله عنه: من اشترى زيتًا من بياع فلما فرغ قال له زدنى فزاده خيطًا فدينه أرق من ذلك الخيط، ومن اشترى فحمًا فلما فرغ قال له زدنى فزاده فخمةً فقلبه أسود من تلك الفحمة.

وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام قوم غلبت حسناتهم سيِّئاتهم فهمُ فى الجنة قطعًا، وقوم تساوت حسناتهم، وسيِّئاتهم فلا يدخلون النار قطعًا، وقوم غلبت سيِّئاتهم حسناتهم فلا يخلدون فى النار قطعًا.

وقال رضى الله عنه: الدخول فى الجنة بالإيمان، والخلود فيها بالنيّة، والدرجات فيها بالأعمال، والدخول فى النار بالشرك والخلود فيها بالنية والدركات فيها بالأعمال.

وقال رضى الله عنه: لا يدخل على الله إلّا من بابين؛ إما من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعى، وإما من باب الفناء الذى تعنيه هذه الطائفة.

وقال رضى الله عنه: الكائنات على أربعة أقسام: جسم كثيف، وجسم لطيف، وروح شفاف، وسرّ غريب.

فالجسم الكثيف بمجرده جماد.

والجسم اللطيف بمجرده جان.

والروح الشفاف بمجرده ملك.

والسر الغريب هو المعنى المسجود له.

فالآدمى بظاهر صورته جماد، وبوجود نفسه وتخيّلها وتشكّلها جان، وبوجود روحه ملَك، وأعطى زائدًا على ذلك السر الغريب؛ فلذلك استحق أن يكون خليفة.

وقال رضى الله عنه: ليس العجب ممن تاه فى نصف ميل أربعين سنة، إنما العجب ممن تاه فى مقدار شبر الستين والسبعين سنة، وهى البطن.

وقال رضى الله عنه: الأدنى يشرف على الأعلى ولا يحيط به والأعلى يحيط بالأدنى.

فالأولياء لهم الإشراف على مقامات الأنبياء وما لهم الإحاطة بمقاماتهم، والأنبياء يحيطون بمقامات الأولياء.

وقال رضى الله عنه فى قول بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا: أى لو كشف الغطاء للنفس لم أزدد يقينًا فيما طالعه القلب.

وقال رضى الله عنه:

جميع أسماء الله إذا أسقطت منها حرفًا ذهبت دلالته على الله كالعليم والقادر والرحيم وغيرذلك من أسمائه الحسنى إلّا اسمه «الله» فإنك إذا أسقطت الألف بقى لله، فإذا سقطت اللام الأولى بقى له، فإذا أسقطت اللام الثانية بقى هو وهو النهاية فى الإشارة، وأنشد ابن منصور الحلّاج:

أحرف أربع بها هام قلبى ... وتلاشت بها همومى وفكرى
ألِفٌ آلّف الخلائق بالصنـ ... ـع ثم مُ على الملامة تجرى
ثم لاُم زيادة فى المعالى ... ثم هاءٌ أهيم أتدرى

وقال رضى الله عنه: كشف لى عن أرواح الصدّيقين صاعدة نحو الملأ الأعلى فإذا قائل يقول لى: يا على:

وما جبنت خيلى ولكن تذكرت ... مرابطها من بر يعص وميصرا

أى أنها ما فرّت جبنًا من الخلق ولكنها تذكرت أوطان التعرف.

وقال رضى الله عنه: الوحى إلقاءُ معنىً فى خفاءٍ.

وقال رضى الله عنه: جميع أسماء الله للخلق إلّا اسمه الله فإنه للتعلق.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أنك إذا ناديته يا حليم خاطبك من اسمه الحليم أنا الحليم فكن عبدًا حليمًا، وإذا ناديته باسمه الكريم خاطبك من اسمه الكريم أنا الكريم فكن عبدًا كريمًا، وكذلك سائر أسمائه إلّا اسمه «الله» فأنه للتعلق فحسب؛ مضمونه الأولوهية، والألوهية لا يُتخلّق بها أصلًا.

وقال رضى الله عنه: السماءُ عندنا كالسقف، والأرض كالبيت، وليس الرجل عندنا من يحصره هذا البيت.

وقال رضى الله عنه: نحن فى الدنيا بأبداننا مع وجود أرواحنا، وسنكون فى الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا.

وسمعته يقول: الفرق بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر من ثلاثة أوجه: المؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها، ولا يفرح بها وقت الفعل، ولا يصرّ عليها بعد فعلها، والفاجر ليس كذلك.

وقال رضى الله عنه لبعض أصحابه:

ليكن ذكرك الله، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، فبساطه العلم وثمرته النور.

ثم النور ليس مقصودًا لنفسه وإنما ليقع به الكشف والعيان.

وجاءه رجل فقال له: يا سيدى، هذا فتى.

فقال له الشيخ: أنت فتى؟ قال: نعم.

فقال له الشيخ: تدرى ما الفتوة؟ ليست الفتوّة الماء والملح، وإنما الفتوة الإيمان والهداية: قال الله سبحانه: ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾[٢٤].

والفتى كما قال الله سبحانه عن إبراهيم: ﴿قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم﴾[٢٥]. فسمّى فتىً لأنه كسر الأصنام، فمن كسر الأصنام فهو الفتى.

الخليل عليه السلام وجد أصنامًا حسّية فكسرها، وأنت لك أصنام معنوية فإن كسرتها كنت فتى ولك أصنام خمسة: النفس، والهوى، والشيطان، والشهوة، والدنيا. فإن كسرتها فأنت الفتى.

وافهم ههنا لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا على.

وسئل رضى الله عنه فقيل له: يا سيدى لم بدأ صاحب الرسالة بإبراهيم بن أدهم دون غيره وربما كان غيره متقدمًا عليه فى التاريخ؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: لأن إبراهيم بن أدهم كان من ملوك الدنيا فأصبح وهو كذلك، فجاء وقت الظهر وهو من كبار الأولياء، فبدأ به صاحب الرسالة ليعلم أن فضل الله ليس بعمل.

وقال رضى الله عنه:

عبدٌ هو فى الحال بالحال.

وعبدٌ هو فى الحال بالمحوّل.

فالذى هو فى الحال بالحال هو عبد الحال.

والذى هو فى الحال بالمحول عبد المحّول.

وأمارة من هو فى الحال بالحال أن يتأسف عليها إذا فقدها ويفرح بها إذا وجدها.

والذى هو فى المحال بالمحول لا يفرح بها إذا وجدها ولا يحزن عليها إذا فقدها.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من تحقق بالله ملك الأشياء ولم تملكه فيصير الحال تحت قهر تصريفه، وإنما يكون ذلك للرجل لرسوخه فى العلم بالله، والعلم حاكم على الحال وبه يوزن، والحال إنما هو فرع من فروع العلم، والعلم قارٌّ ثابت، والحال لا بقاء لها؛ لذلك قالوا:

لو لم تحل ما سميت حالا ... وكلّ ما حال فقد زالا
انظر إلى الظلّ إذا ما انتهى ... يأخذ فى النقص إذا طالا

والأكابر ملّكهم الله أحوالهم، وجعلهم حاكمين عليها، ومن هنا لما قيل للجنيد: ما لنا نرى المشايخ يتحركون فى السماع وأنت لا تتحرك؟ فقال رضى الله عنه:

﴿وترى الجبالَ تحسبُها جامدة وهى تمرُّ مرّ السحاب﴾[٢٦].

وقيل لبعضهم: مالك لا تتحرك فى السماع؟ فقال: إنه إذا كان فى الجمع كبير احتشمت منه فأمسكت على وجدى، فإذا خلوت وحدى أرسلت على وجدى فتواجدت.

فانظر كيف كان زمام حاله معه يمسكها إذا شاء، ويطلقها إذا شاء اتسع القلب بمعرفة لله غرقت

---

(٢٤) الكهف: ١٣.

(٢٥) الأنبياء: ٦٠.

(٢٦) النمل: ٨٨.

فيه الواردات، وإنما يبدو أثر الحال على من ضاق عن وسعها، والعارف له وسع المعرفة، فإن ورد الوارد عليه غرق فى وسع معرفته، وهل رأيت بحرًا فاض بمطر سحاب؛ ولهذا جُهلت أحوال الأكابر أرباب المقامات، واشتهر أهل الأحوال لظهور آثار المواهب عليهم لضعفهم عن كتمها ولضيقهم عن وسعها، فربما كان صاحب الحال أحظى بإقبال الخلق من صاحب المقام، وبينه وبينه مثل ما بين السماء والأرض.

وكلما تمكّن الرجل فى العلوم الإلهية والمعارف الربانية استغرب فى هذا العالم، فيقل من يعرفه ويفقد من يحيط به فيصفه.

وقال رضى الله عنه؛ كل سوءِ أدبٍ يثمر لك أدبًا فهو أدب.

وقال رضى الله عنه: المؤمن لا يرضى عن نفسه بالخير إذا كان فيه، لأن فوق الخير خيرات أتراه يرضى بالشر؟

وقال رضى الله عنه: كان الجنيد قطبًا فى العلم وكان سهل بن عبد الله التسترى قطبًا فى المقام وكان أبو يزيد البسطامى قطبًا فى الحال.

وقال رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن اللطف إذا ورد على العبد فإن كان فى الدائرة النفسانية تلقته النفس بالبشاشة والفرح، وإن كان فى الدائرة المعنوية تلقته الروح بالمحبة والمقة[٢٧]، فيقع الميل ويكون عن الميل السكون، ويقع مع السكون الأنس بالمسكون إليه، والله لا يحبّ لك أن تسكن لغيره ولا أن تأنس بشىء دونه؛ فلذلك قال الشيخ رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف أى السكون إليه والإقامة عنده.

وهذا كما تقدم عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه دخل على بعض الرجال فقال له: كيف حالك؟ فقال له الشيخ: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار.

فقال له الرجل: أما شكواى من حرّ التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك أنت من برد الرضا والتسليم فكيف؟ فقال: أخاف أن تشغلنى حلاوتهما عن الله.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى نعم العبد برخ لولا أنه يسكن إلى نسيم الأسحار ومن عرفنى لا يسكن لغيرى.

وكان عندنا بالإسكندرية امرأة عارفة بالله أخبرتنى أنها سمعت قائلاً يقول لها: أعوذ بك من النور وفتنته، ومن الغيب وتلفته.

وأخبرتنى أيضًا قالت: كنت أمشى بالإسكندرية وإذا بناس فى لهوهم وطربهم فقلت فى نفسى: هؤلاء فى فرح ومسرة وحلم الله من ورائهم ونحن فى ملاقاة النوازل وقهر الأحكام.

قالت: فإذا قائل يقول لى: ليس أهل الحضرة والأدب كأهل اللهو والطرب.

---

(٢٧) المقة: المحبة.

وأخبرتنى أيضًا قالت: إذا كنت فى حضرة أو موقف وأرادنى زوجى ليقضى إربه منى لا أمنعه ولا يستطيع ذلك كلما أراد منى أمرًا عجز عنه. قالت: حتى يضيق خلقه ويقول: ما هذه إلّا حسرة هذه الشابة فى حسنها بين يدى ولا تمتنع منى ولا أصل إليها. فأقول له فى ذلك الوقت: من هو الرجل فينا ومن هو المرأة!

قالت: وإذا كان وقت ستر أمكنه منى ما يريد.

وقال الواسطى: استحلاءُ الطاعات سموم قاتلة وصدق رضى الله عنه.

وأقل ما فى ذلك أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائمًا فيها متطلبًا لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص فى نهوضك لها وتحب دوامها لا قيامًا بالوفاء ولكن لما وجدت فيها من الحلاوة والمتعة، فتكون فى الظاهر قائمًا لله وفى الباطن إنما قمت لحظّ نفسك، ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاءً تعجلته فى الدنيا فتأتى يوم القيامة ولا جزاءَ لك.

وقال رضى الله عنه: لما قرأت عليه كتاب الحقائق للسلمى فقال فيه انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة، فقال الشيخ رضى الله عنه عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه: ولا حيرة عند المحققين فيما فيه الحيرة عند المؤمنين.

وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام: عبد هو بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو بشهود ما من الله إليه، وعبد هو بشهود ما من الله إلى الله.

ومعنى كلام الشيخ هذا: إن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره. وإساءته فيقوم مقام المتعذرين بين يدى الله تعالى وتلازمه الأحزان وتحالفه الأشجان فيستولى عليه الكمد كلّما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء.

وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والامتنان فهذا تلازمه المسرّة بالله والفرح بنعمة الله، قالَ الله سبحانه:

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون﴾(٢٨).

فالأوّل: حال العبّاد والزهاد.

والثانى: حل أهل العناية والوداد.

الأوّل: شأن أهل التكليف.

والثانى: شأن أهل التعريف.

الأوّل: حال أهل اليقظة.

والثانى: حال أهل المعرفة.

فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: العارف من عرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من الله عليه، وعرف إساءة نفسه فى إحسان الله إليه، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

(٢٨) يونس: ٥٨.

قال أيضًا: قليل العمل مع شهود المنّة من الله خير من كثير العمل مع رؤية التقصير من النفس.

قال بعض أهل المعرة: لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قرأت ليلة من الليالى: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله: ﴿من شرّ الوسواس الخنّاس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

فقيل لى: شرّ الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك، ينسيك ألطافه الحسنة، ويذكرك أفعالك السيئة، ويقلل عنك ذات اليمين، ويكثر عليك ذات الشمال، ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله.

فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهاد والعباد وأهل الجد والاجتهاد.

ولذلك قلّ أن تجد الزاهد والعابد إلّا مكمودًا حزينًا لأنه علم أن الله طالبه بالعبودية وحمّله أعباءها وألزمه ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله.

قال الله سبحانه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبيْن أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا﴾(٢٩).

فعاين الزهّاد ثقل ما حملوا ولم ينفذوا إلى شهود لطف الله الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه؛ فلذلك لزمهم الكمد، واستولى عليهم الحزن.

وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكاليف أمرًا عظيمًا وعلموا ضعفهم عن حمله وعن القيام به متى وكلوا إلى نفوسهم، قال الله سبحانه: ﴿وخُلق الإنسان ضعيفًا﴾(٣٠) وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله حمل عنهم ما حملهم قال الله سبحانه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾(٣١) فرجعوا إليه بصدق الرجعى فحمل عنهم الأثقال فساروا إلى الله محمولين فى محفّات المنن تروح عليهم نفحات اللطف.

والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف، تلازمهم المشقّات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركهم بلطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لهم فطابت لهم الأوقات وأشرقت فيهم العنايات.

وأما القسم الثالث: وهم الذين مع الله بشهود ما من الله إلى الله: هؤلاء هم أهل التوحيد والداخلون فى ميادين التفريد.

فأما أهل القسم الأوّل وهم الذين عليهم شهود ما منهم إلى الله فلم يخرجوا عن باطن الشرك وإن خرجوا عن ظاهره؛ لأنهم أقبلوا على نفوسهم موبّخين لها شاهدين لتقصيرهم وإساءتهم فلو لم يشهدوا الفعل لها أو منها ما توجهوا إليها بالتوبيخ إذا قصرت؛ فلذلك قال العارف الذى سبق قوله: لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير.

(٢٩) الأحزاب: ٧٢.
(٣٠) النساء: ٢٨.
(٣١) الطلاق: ٣.

فإن قلت: إذ كان توبيخ النفس وذمّها يستلزم دقيقة الشرك فكيف نصنع والله قد ذمّ النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت ووبخها هو إذا كانت كذلك؟

فالجواب: أن ذمَّها لازمٌ لأن الله أمرك بذمِّها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف لها فعلًا تراها هى الفاعلة له.

وأما القسم الثانى هو الذى يشهد ما من الله إليه فهو وإن كان خيرًا من القسم الأوّل لكنه ما سلم من إثبات لنفسه إذ رأى نفسه مهداة إليها هدايا الحق، فلولا إثباته لنفسه ما شهد ذلك؛ فلأجل هذين المعنيين آثر أهل الله القسم الثالث وهو أن يكونوا بشهود ما من الله إلى الله فاقهم.

وقال رضى الله عنه: العارف إذا خوّف خاف، قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ففررتُ منكم لما خِفتكم﴾(٣٢).

يريد الشيخ رضى الله عنه: أن العارف لا يقطعه فضل الله عن شهود عدله، ولا يحجبه شهود لطفه عن خوف ما بطن فى مشيئته.

ويجب أن تعلم أن أهل المعرفة فى نهاياتهم ربما التبس حالهم بأهل البدايات فى بداياتهم.

فإن المريد فى مبدأ إرادته تؤثّر فيه المخاوف لعدم استيلاء سلطان الحقيقة عليه، فإذا تحقق فناؤه لم تؤثّر فيه الواردات ولم يدخل تحت حكم العادات، فإذا ردّ إلى حالة البقاء أثرت الأشياء فيه كحالة فى بدايته.

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾(٣٣).

فتجد المريد يخوّف فيخاف والعارف يخوّف فيخاف وليسا وإن استويا فى الظاهر بسواء.

فخوف المريد لأجل ججبته، وخوف العارف لكمال معرفته.

ومن هنا لا نفضّل عبدًا واثقًا بلطفه ومنّته على خائف من غيب مشيئته.

وكذلك لا نفضل عبدًا وقف مع ظاهر الوعد على عبدٍ ردّ إلى وجود الأزلية فاقتطع عن الوقوف مع الوعد الجميل والنعيم وردّ إلى ما سبق فى القدم.

وقد جاء أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر – وقد رفع يديه إلى السماء:

اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد، ومازال يناشد ربه حتى سقط الرداء عن منكبيه فقال أبو بكر رضى الله عنه: يكفيك بعض مناشدته لربّك يا رسول الله فإنه منجز لك ما وعدك(٣٤).

فالرسول ﷺ لكمال علمه بالله كان بشهود المشيئة، وأبو بكر رضى الله عنه كان بشهود الوعد الجميل.

ورسول الله ﷺ علم ما علمه أبو بكر من الوعد الجميل.

كيف، والوعد إنما وصل أبى بكر على يد رسول الله ﷺ.

---

(٣٢) الشعراء: ٢١.

(٣٣) طه: ٥٥.

(٣٤) سيرة ابن هشام، والسيرة النبوية لابن كثير.

غير أنه سلك الله به المسلك الأتمّ من الرجوع إلى مشيئته التى لا تتوقف على شىء ويتوقف عليها كل شىء.

وقال رضى الله عنه: ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه، فإذا هو عند ربه.

وقال رضى الله عنه عن شيخه: خرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبهم مقفلة عن الله.

وقال رضى الله عنه عن شيخه: من لم يتغلغل فى هذه العلوم مات مصرا على الكبائر وهو لا يعلم.

وسمعته يقول عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنه: كل شىء نهاك الله عنه فهو شجرة آدم إلاّ أنه لما أكل من الشجرة نزل إلى الأرض للخلافة، وأنت إذا أكلت من شجرة النهى تنزل لماذا، إنما تنزل إلى أرض القطيعة.

وقال رضى الله عنه: كان ببلاد المغرب ولىّ من الأولياء يتكلم على الناس وكان بادنًا، فجلس يومًا يتكلم على الناس فقال رجل مكشوف الرأس كبيرة: هذا رجل يزهدنا فى الدنيا وهو كالدب. فكوشف به الشيخ فقال من فوق المنبر: يا أبا رويس ما سمننى إلاّ حبّه. ثم أنشد:

وقائل لست بالمحبّ ولو كنت محبا لذبت مذ زمن
أجبته والفؤاد فى حرق لم تذق الحب كيف تعرفنى
أحب قلبى وما درى بدنى ولو درى ما أقام فى السمن

وقال رضى الله عنه: عزم إنسان على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فأتى إليه وأصحابه معه فلما أكلنا وعزمنا على الخروج ولم نشرب، فقال الشيخ: يا بخلاء من بخل الصوفى أن يأكل ولا يشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: من سقى مؤمنا شربة ماء مع وجود الماء كان كمن أعتق سبعين من ولد إسماعيل.

ثم قال الشيخ: إذا أكلتم طعام إنسان فاشربوا عنده حتى ينال هذا الأجر العظيم.

وقال رضى الله عنه: دخلت يومًا على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فقال لى: إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تسأل أحدًا شيئًا، وإن أتاك شىء من غير مسألة فلا تقبله. فقلت فى نفسى: كان النبى ﷺ يقبل الهدية، وقال: ما أتاك من غير مسألة فخذه.

فقال الشيخ: كأنك تقول كان النبى ﷺ يقبل الهدية[٣٥]، وقال ما أتاك من غير مسألة[٣٦]. فخذه، النبى ﷺ قال الله فى حقه:

﴿قل إنما أنذركم بالوحْى﴾[٣٧].

متى أوحى الله إليك؟ إن كنت مقتديًا به فى الأخذ فكن مقتديًا به كيف يأخذ، كان ﷺ لا يأخذ شيئًا إلاّ ليثيب من يعطيه ويعوّضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدّست هكذا فاقبل وإلاّ فلا.

(٣٥) رواه أحمد والبخارى وأبو داود والترمذى.
(٣٦) رواه البخارى.
(٣٧) الأنبياء: ٤٥.

وقال لبعض أصحابه: لم تنقطع عنى؟ قال: يا سيدى استغنيت بك.

فقال الشيخ رضى الله عنه: ما استغنى أحد بأحد، ما استغنى أبو بكر برسول الله ﷺ ولم ينقطع عنه يومًا واحدًا.

وقال رضى الله عنه: إن الله لما خلق الأرض اضطربت فأرساها بالجبال فقال عزّ وجل: ﴿والجبال أرساها﴾(٣٨) كذلك لمّا خلق الله النفس اضطربت فأرساها بجبال العقل، فأىّ عبد توفر عقله واتسع نوره نزلت عليه السكينة من ربه فسكنت نفسه عن الاضطراب، ووثقت بولىّ الأسباب فكانت مطمئنةً أى ساكنةً لأقداره، ممدودة بتأييده وأنواره، حائدةً عن التدبير والمنازعة للمقادير، اطمأنت لمولاها لعلمها أنه يراها.

أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد.

فاستحقت أن يقال لها:

﴿يأيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضيةً مرضية، فادخلى فى عبادى، وادخلى جنّتى﴾(٣٩).

وقال رضى الله عنه عن شيخه: الوقت ليل، والشأن فى الليل الخمود والسكون حتى تطلع شمس المعرفة أو قمر التوحيد أو نجوم العلم فيستضاء بها.

وقال رضى الله عنه: يقول الله عزّ وجل:

ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلى، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له.

وقال رضى الله عنه: الأكوان كلها عبيد مسخرة، وأنت عبد الحضرة.

وسمعته يقول: حقيقة النيّة عدم غير المنوى.

وسمعته يقول: قال عيسى عليه السلام: يا بنى إسرائيل لا تقولوا العلم فى السماء فمن ينزل به، ولا فى الأرض فمن يصعد به، تأدّبوا بآداب الروحانيين، وتخلّقوا بأخلاق النبيّين أنبع لكم العلم من قلوبكم ما يغمركم ويغطيكم.

وقال رضى الله عنه: نحن إذا أتانا مريد له شىء من الدنيا لا نقول له أخرج عن دنياك وتعال ولكن ندعه حتى ترسخ فيه أنوار المعرفة فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه، ومثل ذلك قوم ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها: غدًا تهبّ ريح شديدة لا ينجيكم منها إلاّ أن ترموا بعض أمتعتكم فارموا بها الآن. فلا يسمع أحد قوله، فإذا هبّت العواصف كان الكيِّس من يرمى متاعه بنفسه، كذلك إذا هبّت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه.

وكان يحكى عن الشيخ عبد الرزاق – الولىّ الكبير رضى الله عنه – أن رجلًا من أهل المهدية أتاه فقال له الشيخ: أرى عليك أثر نعمة فمن أين أنت وما قصتك؟ قال: يا سيدى كنت من أكابر المهدية وأعيانها وأكثر أهلها مالاً وعزًّا، فورد علينا رجل يدّعى أنه من الدّالين على الله فجئت إليه

(٣٨) النازعات: ٣٢.

(٣٩) الفجر: ٢٧ – ٣٠.

وأنا متطلع محترق على الوصول إلى الله فقال لى: إنك لا تصل إلى هذا الأمر حتى تخرج عن مالك كله، وحتى تطلّق نساءك بتاتًا، وحتى تغيرّ زيّك. ففعلت ذلك فما ازداد قلبى إلّا قسوة، فضاق صدرى وحرت فى أمرى ولم أطق أن أقيم بالمهدية وقد ذهب ما كنت فيه من المال والجاه ولم أتعوض عن ذلك بشىء فى باطنى فجئت إلى هنا قاصدًا للحج.

فقال الشيخ عبد الرزاق دعوى على غير بصيرة قاتلهم الله، امكث عندنا. فلما جاء أوان الحج أرسله الشيخ مع بعض أهل الإسكندرية فحجّ ثم رجع إلى الشيخ بالإسكندرية فلما جاء أوان السفر إلى المغرب، قال له الشيخ: اذهب إلى بلدتك فإذا وصلت إليها فإن الناس يسمعون بك ويخرجون إليك مسرعين ويعرضون عليك الملابس والمراكب فخذ أفضلها ملبسًا وأحسنها مركبًا وادخل إلى المهدية فما حمل إليك من الدنيا فاقبله، وسيعيد الله ما كان لك وأكثر منه، وتجد زوجاتك قد طلقهن أزواجهن فتراجعهن، وتنال من العزّ والرفعة والغنى أكثر مما كنت فيه، فإذا تكمل لك ذلك كله فتح الله عينى قلبك.

قال: فسافر من عند الشيخ وأتى ساحل المهدية فسمع الناس أن فلانًا أتى من المشرق وليس فى البلدة إلّا من له عليه يد ومعروف، فخرجوا يهرعون إليه بالملابس السنيّة والمراكب البهيّة، فلبس أحسنها ملبسًا وركب أفضلها مركبًا، ودخل المهدية فأهديت له الهدايا وحملت إليه التحف والأموال، ووجد زوجاته قد طلقن وانقضت عدتهن فراجعهن، فتكمل له جميع ما وعده به الشيخ فى ذلك اليوم ثم فتح الله عينى قلبه.

وتكلم يومًا فى فضائل أبى بكر رضى الله عنه فقال:

قال رسول الله ﷺ: ما فضلكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشىء وقر فى صدره. ثم قال:

ما هو هذا الشىء الذى وقر فى صدره؟

فقال بعض الحاضرين: المراقبة.

فقال الشيخ: هذا كلام هو قشور.

من هو دون الصدّيق فى الرتبة إذا وجد المراقبة يستغفر الله منها كما يستغفر العاصى من المعصية، وذلك أنه إذا أضاف المراقبة لنفسه كأنه يقول أنت الرقيب وأنا الرقيب: ﴿أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾.

وقال رضى الله عنه يوصى بعض أصحابه لما عزم على الحج:

إذا وصلت إلى البيت فلا يكوننّ همّك البيت وليكن همك رب البيت، ولا تكن ممن يعبد الأصنام والأوثان.

وقال: من عرف الله لم يسكن إلى الله، لأن فى السكون إلى الله ضرب من الأمن ولا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون.

ومثل هذا ما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قيل لى لا تأمنن مكرى فى شىء وإن أمنتك؛ فإن علمى لا يحيط به محيط. وهكذا كانوا.

وكان يقول: إن الوليّ فى فنائه لابّد أن تبقى معه لطيفة علمية عليها يترتب التكليف، وذلك كما يكون الإنسان فى البيت المظلم فهو عالم بوجوده وإن كان غير مشاهد له.

وكان يقول: «والله ما جلست حتى جعلت الطيران فى الهواء والمشى على الماء وطىّ الأرض تحت سجادتى.

وقال رضى الله عنه وقد قرأتُ عليه «الرعاية» للمحاسبى: كل ما فى هذا الكتاب يغنى عنه كلمتان: اعبد الله بشرط العلم ولا ترض عن نفسك بشىء.

ثم لم يأذن فى قراءته بعد.

وسئل عن بعض المشايخ الكائنين فى وقته فقال: ضيّق الله عليه بالورع، ونحن وسّع الله علينا بالمعرفة.

وكان يقول فى قول بعض أهل الطريق:

العارف وسَّعته المعرفة، والورِع ضيّق عليه الورَع.

لاتظننّ أن قولهم: العارف وسعته المعرفة. أنه يأكل حرامًا أو مافيه شبهة، ولكن العارف ذو بصيرة منيرة يكشف له ما غُطّى عن الورِع فيمدّ يده إلى ذلك الطعام لعلمه بحلّه وسلامته من الشبهة على ما أشهدته بصيرته، والورع مستور ذلك عنه؛ فلذلك ربما مدّ العارف يده إلى ما قبض المتورِّع يده عنه.

وكان رضى الله عنه يقول: من اشتاق إلى لقاء ظالم فهو ظالم.

وكان رضى الله عنه يفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر، وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبى عبد الله محمد الترمذى الحكيم، ويقول:

الشكر صفة أهل الجنة والصبر ليس كذلك.

وسمعته يقول: القبض على قسمين: قبض له سبب، وقبض لا سبب له. القبض الذى له سبب يكون للعموم والخصوص، والقبض الذى لا سبب له لا يكون إلّا لأهل التخصيص.

وكان رضى الله عنه يقول:

الشكر انفتاح القلب لشهود منّة الرب.

يقال: شكر، ومقلوبه كشر، يقال: كشرت الدابة إذا كشفت عن أنيابها.

وقال بعض العارفين: لو علم الشيطان أن طريقًا يوصّل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيها، ألا تراه كيف قال:

﴿ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلْفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثرهم شاكرين﴾(٤٠).

ولم يقل ولا تجد أكثرهم صابرين ولا خائفين ولا راجين.

---

(٤٠) الأعراف: ١٧.

ولما اجتمعت بالسلطان الملك المنصور بالإسكندرية لاجين رحمه الله قلت له.

يجب عليكم الشكر لله، فإن الله تعالى قد قرن دولتكم بالرخاء فانشرحت قلوب الرعية بكم، والرخاء أمر لا تستطيع الملوك تكسبه ولا استجلابه كما يتكسبون العدل والجود والعطاء.

فقال: وما هو الشكر؟

قلت: الشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان، فشكر اللسان التحدث بنعم الله، قال الله سبحانه:

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[٤١].

وشكر الأركان بالعمل بطاعة الله قال الله سبحانه:

﴿اعملوا آل داود شكرًا﴾.

وشكر الجنان الاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله قال الله سبحانه:

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[٤٢].

ومن القسم الأول قال رسول الله ﷺ.

«التحدث بنعم الله شكر».

ومن الثاني، أنه قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتتكلّف ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال:

«أفلا أكون عبدًا شكورًا»[٤٣].

ومن الثالث، كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك» وهذه الأحاديث لم أستحضرها وقت مخاطبتي له.

فقال: وما الذي يصير به الشاكر شاكرًا؟

قلت له: إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد، وإذا كان ذا غنًى فبالبذل والإيثار للعباد، وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد عنهم.

وقال رضي الله عنه: إن لله ملَكًا يملأ ثلث الكون، وإن لله ملكًا يملأ ثلثي الكون، وإن لله ملكًا يملأ الكون كله، وإن لله ملَكا لو وضع قدمه في الأرض لم يجد أين يضع الثانية.

ثم قال: يقول القائل: إذا كان ملك يملأ الكون كلّه فأين يكون الذي يملأ ثلث الكون، والذي يملأ ثلثي الكون فقال رضي الله عنه جوابًا عن ذلك: اللطائف لا تتزاحم، كمثل سراج أدخلته بيتًا فملأ البيت نوره ولو أتيت بعد ذلك بألف سراج لوسع ذلك البيت أنوارها.

وسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: يا أبا بكر أتريد أن أدعوك لأمر؟ قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: هو ذاك.

(٤١) الضحى: ١١.
(٤٢) النحل: ٥٣.
(٤٣) متفق عليه.

وسمعته يقول:

قال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر أتعلم يوم يوم؟

قال: نعم يا رسول الله سألتنى عن يوم المقادير، ولقد سمعتك حينئذ وأنت تقول: أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمدًا رسول الله.

وقال رضى الله عنه:

أبو بكر وعمر خلفاء الرسول وعثمان وعلىّ خلفاء النبوة.

وقال رضى الله عنه: العامّة إذا رأوا إنسانًا ينسب إلى طريق الله جاء من البرارى والقفار أقبلوا عليه بالتعظيم والتكريم وكم من ولىٍّ لله وبدل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالًا وهو الذى يحمل أثقالهم ويدافع الأغيار عنهم فمثلهم فى ذلك كمثل حمار الوحش يدخل به البلدة فتطوف الناس به متعجبين لتخاطيط جلده وحسن صورته والحمر التى بين أظهرهم وهى التى تحمل أثقالهم لا يلتفتون إليها.

وقال: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

يا أبا العباس، إذا قال أحد فيك ما ليس فيك فقل:

الله يعلم منى ما يعلم وإلى الله عاقبة الأمور.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

علم الله ما يقال فى أوليائه والصدّيقين فبدأ بنفسه، فقضى على قوم أعرض عنهم فنسبوا إليه الزوجة والولد.

فإن قيل فى صدِّيق إنه زنديق، أو قيل فى ولىٍّ إنه غافل عن الله غوى، فإن ضاق الولى أو الصديق بذلك ذرعًا قيل له: الذى قيل فيك هو وصفك لولا فضلى عليك، وقد قيل فى ما لا يستحقه جلالى.

وقال رضى الله عنه: الهالك بهذه الطائفة أكثر من الناجى.

واعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق ليرفع بالصبر على أذاهم مقدارهم، ولتكمل بذلك أنوارهم، وليتحقق الميراث فيهم، ليؤذوا كما أوذى من قبلهم فيصبروا كما صبروا، ولو كان من أتى بهدى إطباق الخلق على تصديقه هو الكمال فى حقّه، لكان الأوْلى بذلك رسول الله ﷺ، وقد صدّقه قومٌ هداهم الله بفضله، وحرم من ذلك آخرون حجبهم الحق عن ذلك، فانقسم العباد فى هذه الطائفة إلى معتقد ومنتقد، ومصدِّق ومكذِّب، وإنما يصدِّق بعلومهم وأسرارهم من أراد الحق سبحانه أن يلحقه بهم، والمعترف بتخصيص الله وعنايته فيهم قليل، لغلبة الجهل، واستيلاء الغفلة على العباد، وكراهية الخلق أن يكون لأحد عليهم شفوف فى منزلة، أو اختصاص بمنّة، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾(٤٤)؟ ومن أين للعباد أن يعلموا أسرار الحق فى أوليائه،

(٤٤) الروم: ٦.

وشروق نوره فى قلوب أحبائه؟ وسبب هلاك الهالك بهم أن من أظهره الله منهم لابد وأن يظهره ببواهر المنن، وخوارق العادات، فتستغرب عقول العموم أن يعطى ذلك غير الأنبياء، وأن تظهر الخوارق إلاّ فى أهل العصمة، وهؤلاء لم يعلموا أن كلّ كرامة لولى هى معجزة لذلك النبى الذى هذا الولى تابعٌ له، فظّن هؤلاء أن جريان الكرامة على الولىّ مساهمة لمقام النبوة، وحاشا لله أن يشترك النبى والولى فى مقام، كيف وقد قال أبو يزيد: جميع ما أخذ الأولياء مما هو للأنبياء كزقٍّ ملىء عسلاً فرشحت منه رشاحة، فما انطوى عليه الزقّ فهو مثل علوم الأنبياء، وتلك الرشاحة هى حظّ الأولياء منهم.

واعلم رحمك الله أن من اعتزّ بعزيز لم يشاركه فى العز، فأولياء الله اعتزّوا بالأنبياء الذين اهتدوا بهداهم واقتفوا سبيلهم فلا يشاركونهم فى عزِّهم؛ لأن بهم اعتزازهم، ألم تسمع قول المولى تعالى: ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾(٤٥)؟ فلم يكن إثبات العزّة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من عباده يوجب شركة الله فى عزِّه.

وحكمة الله اقتضت عدم اتفاق العباد على الولى بل انقسم الأمر فيه كما بينّاه لما بيناه.

ولأمر آخر وهو أنه لو كان الخلق كلهم مصدّقين للولى فاته الصبر على تكذيب المكذّبين له، ولو كان الخلق كلهم مكذّبين له فاته الشكر على تصديق المصدّقين له، فأراد الله سبحانه بحسن اختياره لأوليائه أن يجعل العباد فيهم على قسمين مصدّق ومكذّب؛ ليعبدوا الله فيمن صدقهم بالشكر وفيمن كذبهم بالصبر، والإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر.

واعلم أنه لعزازة قدر الولىّ عند الله لم يجعله إلاّ محجوبًا عن خلقه وإن ظهر بينهم؛ لأنه ظهر لهم من حيث ظاهر علمه، ووجود دلالته، وبطن بسرّ ولايته.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

لكل ولى حجابٌ وحجابى الأسباب.

فمنهم من حجابه ظهوره بالسطوة والعزة، والنفوس لا تحتمل صحبة من هذا وصفه، وسبب ظهور ذلك الولى بذلك تجلى الحق عليه بصفة ظهر بها، فإذا غلبت عليه شهودًا غلبت عليه ظهورًا، فلا يصحبه ولا يثبت معه إلاّ من محق الله نفسه وهواه.

ومن هذا الصنف كان شيخنا أبو العباس رضى الله عنه لا تجلس بين يديه إلاّ والرعب قد ملك قلبك.

ومن خلّصه الله من نفسه وهواه فلا يستغرب ظهوره بالعز، وأى ملك أعظم من هذا الملك؟ هذا ملك أعوز الملوك وجوده.

أفلا ترى أنه لم يزل فى كل قطر وعصر أولياء تذلّ لهم ملوك الزمان ويعاملونهم بالطاعة والإذعان؟ ومنهم من يكون حجابه كثرة الترداد إلى الملوك والأمراء فى حوائج عباد الله فيقول القصير الإدراك: لو كان هذا وليًّا ما تردّد إلى أبناء الدنيا.

---

(٤٥) المنافقون: ٨.

وهذا جورٌ من قائله، بل انظر تردده إليهم: إن كان لأجل عباد الله وكشف الضرّ عنهم، وتوصيل ما لا يستطيعون توصيله إليهم، مع الزهد واليأس مما فى أيديهم، والتعزّز بعزّ الإيمان وقت مجالستهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فلا حرج على من هذا شأنه لأنه من المحسنين، وقد قال الله سبحانه: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾(٤٦).

وهكذا كان سبيل شيخ شيخنا القطب الكبير أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتى الأنام تقى الدين محمد بن على القشيرى رضى الله عنه يقول: جهل الناس وولاة الأمور بقدر الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عن حسن كثرة ترداده إليهم فى الشفاعات.

ويجب أن تعلم أن هذا الأمر لا يقدر عليه إلّا عبدٌ متخلّق بخلق الله، قد بذل نفسه وأذلّها فى مرضاة الله، وعلم وسع رحمة الله، فعامل بالرحمة عباد الله ممتثلًا لقول رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»(٤٧).

ولقد بلغنى عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه أنه استدعى يهوديًّا كحالًا ليداوى بعض من عنده، فقال له اليهودى: لا استطيع أن أعالجه إلّا بإذن، فإنه جاء مرسوم من القاهرة أن لا يداوى أحد من الأطباء إلّا بإذن من رئيس الطب بالقاهرة، فلما خرج اليهودى من عنده قال الشيخ لخدامه: هيئوا آلة السفر. وسافر لوقته إلى القاهرة وأخذ لهذا الطبيب إذنًا وعاد ولم يبت بها ليلة واحدة ثم جاء إلى الإسكندرية، فأرسل إلى ذلك اليهودى فاعتذر له بما اعتذر به أوّلًا فأخرج له الشيخ مكتوبًا بالإذن فأكثر اليهودى التعجّب من هذا الخلق الكريم.

وقد يكون حجاب الولى كثرة الغنى وانبساط الدنيا عليه.

وقال بعض المشايخ: كان رجل بالمغرب من الزاهدين فى الدنيا ومن أهل الجدّ والاجتهاد، وكان عيشه مما يصيده من البحر، وكان الذى يصيده يتصدّق ببعضه ويتقوّت ببعضه، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب فقال له هذا الشيخ:

إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخى فلان فأَقْرِه منى السلام وتطلب الدعاء منه لى فإنه ولى من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل، فدللت على دار لا تصلح إلّا للملوك فتعجبت من ذلك وطلبته فقيل لى: هو عند السلطان. فازداد تعجبى، فبعد ساعة، وإذا هو أتى فى أفخر ملبس ومركب، وكأنما هو ملك فى موكبه، قال: فازداد تعجبى أكثر من الأول قال: فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكننى مخالفة الشيخ، فاستأذنت فأذن لى، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم والشارة الحسنة.

فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك.

قال: جئت من عنده؟

(٤٦) التوبة: ٩١.

(٤٧) أخرجه أحمد والترمذى والحاكم وأبو داود.

قلت: نعم.

قال: إذا رجعت إليه قل له: إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟

فقلت: هذا والله أعجب من الأوّل.

فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخى فلان؟ قلت: نعم. قال: فما الذى قال لك؟ قلت: لا شىء قال: لابدّ أن تقول لى. فأعدت عليه ما قال، فبكى طويلًا، وقال: صدق أخىّ فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدى وعندى إليها بقايا التطلع.

ومن حجب أولياء الله قبولهم من الخلق، فإذا قبل الرجل ما يعطى صغر عند الخلق، وهم لا يكبر عندهم إلّا من لا يقبل دنياهم، ومن إذا أعطوه ردّ عليهم وأبى من القبول منهم.

ولعل فاعل ذلك إنما فعله زواقًا وزندقة، واستيلافا لقلوب العباد عليه، وليتوجّه بالتعظيم إليه، ولتنطلق الألسنة بالثناء عليه.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: من طلب الحمد من الناس بترك الأخذ منهم فإنما يعبد نفسه وهواه وليس من الله فى شىء.

ومما قد يصدّ عقول العموم عن أولياء الله وقوع زلّة ممن تزيّا بزيّهم أو انتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع هذا حرمان ممن وقف معه، وقد قال الله سبحانه: ﴿ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى﴾(٤٨).

فمن أين يلزم لّما أساءَ واحدٌ من الجنس، أو ظهر عدم صدقه فى طريقه، أن يكون بقية أهل الطريق كذلك.

وقد أنشدنا الشيخ علم الدين الصوفى لنفسه رحمه الله تعالى:

استتـار الرجـال فى كل أرض | تحت سوء الظنون قدرٌ جليـل
ما يضير الهلال فى حندس الليـ | ـل سواد السحاب وهـو جميل

وأشدّ حجاب يحجبه عن معرفة أولياء الله شهود المماثلة، وهو حجاب قد حجب الله به الأولين، قال الله سبحانه حاكيًا عنهم:

﴿ما هذا إلّا بشرٌ مثلكم يأكل ممّا تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾(٤٩).

وقال سبحانه حاكيًا عنهم:

﴿أبشرا منّا واحدًا نتّبعه﴾(٥٠).

وقال سبحانه: ﴿وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴾(٥١).

(٤٨) الأنعام: ١٦٤.
(٤٩) المؤمنون: ٣٣.
(٥٠) القمر: ٢٤.
(٥١) الفرقان: ٧.

وإذا أراد الله أن يعرّفك بولى من أوليائه طوى عنك شهود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته.

وصية وإرشاد:

إياك أيها الأخ أن تصغى إلى الواقعين فى هذه الطائفة والمستهزئين بهم، لئلاّ تسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله؛ فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق، وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله، قد سلّموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم سلمًا بين يديه، تركوا الانتصار لنفوسهم حياء من ربوبيته، واكتفاءً بقيّوميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصًا أهل العلم الظاهر، فقلّ أن تجد منهم من شرح الله صدره للتصديق بولى معين، بل يقول لك: نعم نعلم أن الأولياء موجودون ولكن أين هم؟ فلا يذكر له أحد إلاّ وأخذ يدفع خصوصية الله فيه، طلق اللسان بالاحتجاج، عاريًا عن وجود التصديق. فاحذر من هذا وصفه، وفرّ منه فرارك من الأسد، جعلنا الله وإياك من المصدّقين لأوليائه بمنّه.

الباب التاسع

فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته، أو قيل فيه مما يتضمن ذكر خصوصيته

قال رضى الله عنه: أطلعنى الله على الملائكة وهى ساجدة لآدم عليه السلام فأخذت بقسطى من ذلك، فإذا أنا أقول:

ذاب رسمى وصحّ صدقُ فنائى ... وتجلّت للسرّ شمسُ ضيائى
وتنزلت فى العوالم أبدى ... ما انطوى فى الصفات بعد صفائى
فصفائى كالشمس يبدو سناها ... ووجودى كالليل يخفى سوائى
أنا معنى الوجود أصلًا وفصلًا ... من رآنى فساجد لبهائى
أى نور لأهله مستبين ... أشهدونى فقد كشفت غطائى

وسئل رضى الله عنه عن الروح والنفس فقال:

إن كنت سائلنا عن خالص المنن ... وعن تعلّق ذات النفس بالبدن
وعن تشبّثها بالخط مذ ألفت ... أدرانها فغدت تشكو من العطن
وعن تنزّلها فى حكمها ولها ... علم يفرقها بالقبح والحسن
وعن بواعثها بالطبع مائلة ... تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجن
وعن حقيقتها فى أصل معدنها ... لا ينتنى وصفها منها إلى وثن
فاسمع هديت علومًا عزّ سالكها ... عن العيان ولا يغررك ذو لسن
قصدًا إلى الحق لا تخفى شواهدها ... قامت حقائقها بالأصل والفنن
يا سائلى عن علوم ليس يدركها ... ذو فكرة بفهوم لا ولا فطن
لكن بنور على جامع خمدت ... له العقول وكل الخلق فى وسن
خذها إليك بحقٍّ لست جاهله ... والأمر مطلع والحق قيّدنى
عن الحقيقة خذ علم الأمور ولا ... تحجبك صورتها فى عالم الوطن
تطوّر النفس سرٌّ لا يحيط به ... عقل تقيّد بالأوهام والدرن
لكنها برزت بالحكم قائمة ... حتى تألفها السكان بالسكن
وكى يقال عبيد قائمون بما ... ألقى من الأمر قبل الخلق والمحن
والنفس بين نزولٍ فى عوالمها ... كآدم وله حواءُ فى قرن
والروح بين ترقٍ فى معارجها ... وهى الموافق للتعريف والمنن
مثالها فى العلا مرآة معدنها ... ألطافها خفيت كالسرّ فى العلن
زيتونة زيتها نور لشاربها ... مدّت هدايتها فى الكون والكين

والكل أنت بمعنى لا خفاء به — والنور يحجبه كالماء فى اللبن
والعبد محتجب فى عزِّ مالكه — دقّت معارفه فى الدهر والزمن

وكان ينشد رضى الله عنه:

لو عاينت عيناك يوم تزلزلت — أرض النفوس ودكت الأجبال
لرأيت شمس الحق يسطع نورها — حين التزلزل والرجال رجال

وقال: الأرض أرض النفس، والجبال جبال العقل، والشمس شمس المعرفة.

وكان ينشد رضى الله عنه:

وقفت على التوباذ حين رأيته — فكبر للرحمن حين رآنى
فقلت له أين الذين عهدتهم — حواليك فى أمن وحفظ زمان
فقال مضوا واستودعونى ديارهم — ومن ذا الذى يبقى على الحدثان

وكان ينشد رضى الله عنه:

لست من جملة المحبين إن لم — أجعل القلب بيته والمقاما
وطوافى إجالة السرّ فيه — وهو ركنى إذا أردت استلاما

وكان ينشد رضى الله عنه:

وقد بقينا مذبذبين حيارى — نطلب الوصل ما إليه سبيل
فدواعى الهوى تخفّ علينا — وخلاف الهوى علينا ثقيل

وكان ينشد رضى الله عنه للسهر وردى رضى الله عنه:

أبدًا تحن إليكم الأرواح — ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم — وإلى كمال جمالكم ترتاح
يا رحمة للعاشقين تحملوا — ثقل المحبة والهوى فضّاح
بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم — وكذا دماءُ البائحين تباح

وكان ينشد رضى الله عنه:

مرت لنا بمنى والخيف أوقات — وطيب عيش قطعناه ولذات
لأسلكن ولو أن الأسود بها — قوافل ورماح الخط غابات

وكان ينشد قول امرئ القيس:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه — وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عيناك إنما — نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا

وكان يقول: نحاول ملكا بالبقاء، أو نموت فنعذر بوجود الفناء.

وكان ينشد من قصيدة ابن العطار:

رفعت مقامات الوصال حجابى — حتى احتجبت بكم عن الحجاب

ولـزمت محرابى لـزوم مجمـع — فرأيت وجه الحق فى المحراب
وخـرقت لوح سفينتى لأعيبهـا — فنجـوت من ملك لها غصّـاب
وقتلت من نفسى غـلامًا قتله — سبب النجـاة وأعظم الأسبـاب
وكشفت عن قلبى جدار حجابه — عن كنـزه الباقى بغـير ذهاب
ورقيت فى السبع السموات العلا — حتى دنوت فكنت مثل القـاب

وأنشد بين يديه وأنا حاضر أسمع:

خـذ من كلامى مـا يلذّ جنـاه — وينم كـالمسـك العبيق شـذاه
ذكر الإلٰه الـزم هديت لـذكره — فيـه القلوب تـطيب والأفـواه
واجعل خلاك تقاه إنّ أخا الحجا — يا صاح من كانت حلاه تقاه
ولتعمـل الأفكـار فى ملكـوتـه — مستغرقًا فى الكشف عن معناه
ولـتخـلع النـعلين خـلع محقـق — خـلا عن الكونـين فى مسـراه
ولتفْنَ حتى عن فنـائـك إنـه — عـين البقـاء فعنـد ذاك تـراه
وإذا بدا لك فاعلم أنك لست هو — كـلّا ولا أيضًـا تكـون سـواه
شيئـان ما اتحـدا ولكن ههنـا — سـرّ يضيق نـطاقنـا عـما هـو
يا سامعًا ما قد أشرت له ألا — قلب يفكـر مـا وعت أذنـاه
أزل الحجاب حجاب حسك ينكشف — لك سرّ ما قد غاب عنك سناه
إن الإلٰـه أجـلّ مـا متعرف — من لم يراه قد استبـان عماه
فيـه يراه ذوو البصـائر والنهى — مـا غـاب عنهم لحـظة مـرآه
أنى يغيب وليس يـوجد غيـره — لكن شـديـد ظهـوره أخفـاه

ولما انتهى فى الإنشاد إلى قوله:

وإذا بدا لك فاعلم أنك لست هو — كـلّا ولا أيضًـا تكـون سـواه
شيئـان ما اتحـدا ولكن ههنـا — سـرّ يضيق نـطاقنـا عـما هـو

قال الشيخ رضى الله عنه: ولا نستطيع أن نبينه أبدًا.

وقرأت عليه القصيدة المنسوبة لابن الفرس:

الله ربى لا أريـد سـواه — هـل فى وجـود الحق إلّا الله
ذات الإلٰـه بهـا قـوام ذواتنـا — هـل كان يـوجد غيـره لولاه
لا غــرو فى أنّـا رأينـاه بـه — فـالنـور يـظهـر ذاتـه فتـراه
فـالسالكـون مشـاهـدون لصنعـه — مستغـرقـون بفكـرهم إيّـاه
والعـارفـون مشـاهـدون لـذاتـه — حـتى كـأن قـلوبهـم مثـواه
يـا غائبًا والحق فيه حـاضـر — أتغيب عنه وما شهـدت سواه
من لم يشـاهد بـالبصيرة ذاتـه — فلقد أحاط بـه حجاب عمـاه
من لا يرى فى كل حال غيره — فمن المحـال عليـه أن ينسـاه

من كان فى الملكوت يسرى فكره — فالفوز بالحسنى ثواب سراه
سبحان من خرق الحجاب لعبده — وهداه منهج قصده فرآه
سبحان من ملأ الوجود أدلّةً — ليلوح ما أخفى بما أبداه
سبحان من لو لم تلح أنواره — لم تعرف الأضداد والأشباه
مولاى أنت الواحد الصمد الذى — فى حضرة الملكوت شاهدناه
مولاى أنسك لم يدع لى وحشةً — إلّا محا ظلماتها بسناه
مولاى عبدك لا يخاف تعطشًا — أيخافه والحق قد روّاه
مولاى لا آوى لغيرك إنه — حرم الهدى من لم تكن مأواه
أنت الذى خصصتنا بوجودنا — أنت الذى عرفتنا معناه
لم أفش ما أودعتنيه فإنه — ما ذاق سرّ الحق من أفشاه
من كان يعلم أنك الفرد الذى — بهر العقول فحسبه وكفاه

فقال الشيخ: كل هذا تحويم وليس هو عين القصد.

ووجدت بخط ابن ناشى قال: كتب إلى سيدى وشيخى أبى العباس المرسى وكان قد ورد سلامه علىّ فقلت:

ورد السلام من الإمام فسرّنى — أنى مررت بخاطر لم ينسنى
إن كنت تعلم يا رسول بأنه — باق على العهد القديم فهنى
شيخى أبو العباس واحد وقته — خضر الزمان ورب عين الأعين
أسفى على وقت لديك قطعته — بالباطن الربى قد ربيتنى
ما كنت إلّا حائدًا فرددتنى — وإلى الطريق المستقيم هديتنى
وسقيتنى ماء الحياة وكنت لى — كالخضر لما أن رويت سقيتنى
ولو استطعت قطعت عمرى عنده — لأعيش بعد الموت فى عيش هنى
يا أيها المرسى ببحر معارف — سافر إلى المرسى بريح لين
فهو الطريق إلى النبى محمد — إن كنت يومًا بالإرادة تعتنى
صلى عليه الله ما ذكر اسمه — فى عالم من عالم متفنن

ومدحه الأديب الفاضل شرف الدين البوصيرى بقصيدة منها:

أما المحبة فهى بذل نفوس — فتنعمى يا مهجتى بالبوس
بذل المحب لمن أحب دموعه — وطوى حشاه على أحرّ رسيس

ثم مر فيها إلى أن قال:

صدق وقل من لم يقم كقيامه — لم ينتفع منه امرؤ بجلوس
قبل الإله تقرّبى بمديحه — وتوجّهى لجنابه المحروس
رمت المسير له فأعجزنى السرّى — وأباحنى مرآه غير بئوس
أكرم بيوم الأربعاء زيارة — فكأنه عندى كألف خميس

كل اتصالات السعيد سعيدة   بمثابة التثليث والتسديس

ثم مرّ فيها إلى أن قال:

شرفًا لشاذلة ومرسيّة سرت   لهما الرئاسة من أجلّ رئيس
ما إن نسبت إليهما شيخيهما   إلاّ جلوتهما جلاء عروس

وكنت فى مبدأ الشبيبة عملت فيه قصيدة، وأنشدت بين يديه، فلما فرغ من إنشادها قال: أيدك الله بروح القدس وهى هذه:

برزت سلمى بأثناء الخيم   فأرتنا البدر من تحت اللمم
وحدا الحادون لما أبصروا   وجهها فى الليل صبحًا قد ألم
وعذرناهم وماذا عجب   أن يرى وجه لسلمى فى الظلم
كضياء الصبح أو بدر الدجى   وجهها أكمل نورًا وأتم
لو رآها البدر أثنى راجعًا   خجلا من وجهها ومحتشم
أو رأتها الشمس لم تطلع ضحى   ثم صارت خدن همٍّ وندم
عذبت قلبى بهجران به   عذّب العشاقُ قبلى فى القدم
وكستنى ثوب همٍّ وضنًى   صرت بين الناس فيه كالعلم
وأبت إلاّ صدودًا دائمًا   فأبى دمعى إلاّ أن يُنم
فسهرت الليل أرعى نجمه   أذكر الوصل الذى قد انصرم
كلما رُمْتُ لعينى هجعة   قال لى القلب رويدًا لاتنم
تدعى العشق وتأبى ضدَّه   إنما العشق سهاد وسقم
لازم الباب بذلٍ وأسًى   فهما فى العشق شرط يلتزم
ودع التقصير فى خدمته   شمِّر الذيل ولا تخش الألم
واجتهد علّك أن تنجو غدًا   من عذاب الله خلاّق الأمم
لا تقل لى إن هذا زمن   عسر فيه وجود من سلم
أولياء الله لم ينقرضوا   إن حزب الله غير منهزم
قد رأينا كلهم فى واحد   ذى بهاءٍ ووفاءٍ وهمم
فى أبى العباس مجموع الذى   مُنحوه من علم وحكم
بأبى العباس زاحت كربة   عن قلوب الخلق وانجابت ظلم
وبه شمس الهدى قد ظهرت   وبه درّ العلوم قد نظم
أىّ نور بدا لأهله   أى علم قد بدا لمن فهم
ولقد فضّله رب العلا   وكساه حللا من النعم
قل لأقوام أرادوا شأوه   أقصروا إن الإله قد قسم
ليس هذا الأمر أمرًا هيّنًا   فتنالوه بجدٍّ وهمم
إنما هى قسمة قد قسمت   أعطيت أحمد فى حال العدم

نـازعـوا الله تعـالى حكمـه — إذ أرادوا ستر ذا النور الأتم
إن يكونوا أنكروا شمس الضحى — إذ تبدى النور منها واستتم
فهم إخـوان جهـل وهـوى — وهـم إخـوان هـمّ ونـدم
وقـديمـا قـال فيـه شيخـه — وهو قطب الأرض ذو العلم الأعم
إنمـا أنت أنـا فـاعلم بـذا — إن هـذا ليس أمـرًا مكتتم
وحديث الشيخ عنه شائـع — ذائع ما بـين عرب وعجم
لـو بسطنـاه لـطال بسـطه — ولـزاد الشـرح فيـه وعـظم
إنهم لن يستـطيعـوا جحـده — فتـراهم مـازجى شهـدٍ بسم
فـليـدم غيـظهـم وحقـدهـم — وليمـوتـوا كلهم مـوتـة غم
دمت فى عزٍّ على رغم العدا — ما رقى القمرى فى غصن سلم

وحين انتهى فى الإنشاد إلى قولنا:

قـد رأينـا كلهـم فى واحـد — ذى بهـاءٍ ووفـاءٍ وهمـم
فى أبى العبـاس مجموع الـذى — منحـوه من عـلوم وحكـم

قال الشيخ رضى الله عنه: والله لقد قال لى الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس فيك ما فى الأولياء وليس فى الأولياء ما فيك.

ولما انتهى فى إنشادها إلى قوله:

وقـديمـا قـال فيـه شيخـه — وهو قطب الأرض ذو العلم الأعم
إنمـا أنت أنـا فـاعلم بـذا — إن هـذا ليس أمـرًا مكتتم

قال الشيخ رضى الله عنه: والله لقد قال لى الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس ما صحبتك إلّا لتكون أنت أنا وأنا أنت.

ومكثت بعد ذلك مدة سنين ثم أتى الشيخ رضى الله عنه من الصعيد فلما اجتمعت به أرانى قصيدة عملها فيه إنسان من أهل أخميم وقال: أجبه. فذهبت فتوقّف علىّ القول، فقلت: عجبا يأمرنى الشيخ ويتوقّف على القول، هذا والله من عدم صدقى، فلما قلت ذلك فتح الله باب الكلام حتى كأنما كانت سيلًا تدفّق إلى أن تكلمت قصيدة، فلما قرئت عليه وقعت منه موقع الرضا حتى كان يمكث المدة من الزمان ويستعيدها، وقال لما قرئت عليه: هذا الفقيه صحبنى وبه مرضان وقد عافاه الله منهما: يعنى وجعًا فى الرأس والوسوسة فى الطهارة، ولابدّ أن يجلس ويتحدث فى العلْمين، وهى هذه:

قف بالديـار فقد بـدا مغناهـا — فلمن تسير وما المـراد سواهـا
وأرح قلوصك قد بلغت المنحنى — فلطال ما جهدَت ودام سـراها
ولطال ما قطعت مهامه واغتدت — أرسـاغهـا مخضـوبـة بـدمـاهـا
تمسى وتصبح لاتملّ من السرَى — حـتى تشـكّـت أنّهـا ووجـاهـا
رفقًا بها يـا أيها الحـادى ولا — تغرى بها فالشوق قد أغراهـا

يكفى الذى لاقته من ألم السرى ... وكفى بها وصدّ بها وكفاها
أو ما تراها كيف تذرى دمعها ... حتى تبلّ من الدموع ثراها
يحدو بها نحو الديار غرامها ... ويقودها نحو الحبيب هواها
فازت بأن وصلت إلى أحبابها ... فتمايلت والشوق حشو حشاها
حنّت وأنّت إذ رأت وادى النقا ... واستبشرت فيه بنيل مناها
فسرورها كسرور أيام غدا ... فيها أبو العباس شمس ضحاها
تاهت بأحمد إذ أتاها رحمة ... وغدت به بين الورى تتباها
وتشرّفت أوقاتها بمجيئه ... وتحلّت الأيام منه حلاها
وغدا يسدّد أمر دين محمد ... فأزاح عنها كربها وجلاها
إن تلقه تلق إمامًا راسخًا ... حبرًا منيبًا صادقًا أوّاها
قد كملت فيه الفضائل كلها ... وتجمعت فيه على أخراها
كم سنّة ماتت فأحيى رسمها ... كم بدعة عقدت فحلّ عراها
كم من أتاه والمعاصى دأبه ... قد قيدته نفسه بهواها
فأزال عنه ما به فتقشّعت ... عنه سحائب ظلمة بدجاها
كم من قلوب قد أميتت بالهوى ... أحيا بها من بعد ما أحياها
أحييت علم القوم فى زمن به ... قلّ المساعد فانجلت ظلماها
وأتيت غوثًا للأنام وقبل ذا ... ركبت محارم واستبيح حماها
وغدوت ترفل فى ثياب معارفٍ ... ولبستَ من حُلل التقى أسناها
مازلت حتى طاوعتك نفوسنا ... فأزلتَ عنها جهلها وعماها
من بعد ما ظفرت بنا وتحكّمت ... فينا وزلّت عن سبيل هداها
ذلّلتها حتى أتت منقادةً ... من بعد ما جمحت وعزّ شفاها
فلذاك أضحى ودُّها لك خالصًا ... بشرى لها فى ودِّها بشراها
فغدوتَ أعلى همّها فى جهرها ... وكذاك أيضًا أنت فى نجواها

ما زلتم تهدون أمة أحمد ... فبكم تكمل برُّها وتقاها
قد كان قدما بالبرية حيرة ... حتى أتى قطب الورى فهداها
بالشاذلى تقشّعت ظلماؤها ... وتنوّرت بمجيئه أفقاها
كنز التقى علم الهدى بحرى الندى ... قطب البرية غوثها ملجاها
من كان إن خطبٌ ألم حماها ... وزوى بها عن صرفه ووقاها
كهفٌ تلوذ به البرية كلها ... ترجوه فى لأوائها ورخاها
حتى توفّاه الإله فيالها ... من بغية قد حازها وحواها
وخلفته فى حاله ومقامه ... بالإرث منه فارتقيتَ علاها
الله أبقى للبرية أحمدا ... وأقامه فيها لكى يرعاها
إن الذين تعرضوا لفخاره ... طبقت جفونهم على أقذاها

إن تنكروا الآيات وهى ظواهر　　فلقد تبدّت واستبان سناها
هم يعلمون بأنه قطب الورى　　لكنه غلب النفوس هواها
أو ما ترى قوم النبى محمد　　جحدوا ولجوا فى الجحود سفاها
مع علمهم أن النبى محمدًا　　كان الرسول أتى لها بهداها
فأدام غيظهم المليك ولم تزل　　فى حالة يرضى بها مولاها
تهدى إليك المكرمات بأسرها　　وتنال من رتب العلا أقصاها

وكان يعجبه منها:

كم من قلوب قد أميتت بالهوى　　أحيا بها من بعد ما أحياها

فكان يستعيد القصيدة إلى هذا البيت، فإذا انتهى فى الإنشاد إليه استعاده، جعل الله مدحنا هذا موضوعًا فى الميزان، وموجبًا للرضوان، بمنّه وكرمه.

الباب العاشر

فى ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذى رتبه للآخذين من علومه وأفهامه، وشىء من دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه وحزبيه، وبهما يكون لهذا الباب وجود ختامه

كان من ذكره رضى الله عنه:

لا إله إلا الله الأول الآخر الظاهر الباطن، محمد رسول الله السيد الكامل الفاتح الخاتم.

ومن ذكره أيضا:

يا ألله يا نور يا حق يا مبين: أحى قلبى بنورك، وأقمنى بشهودك، وعرفنى الطريق إليك.

ومن ذكره أيضا:

ربِّ اغفر لى، واجعلنى لك عبدا ذائب النفس بأنوارك، مطموس الحس بجلالك، واغفر لى وللمؤمنين والمؤمنات.

ومن دعائه:

اللهم اغفر لى، واسترنى، ولا تفضحنى فى الدنيا والآخرة، وعلمنى وذكرنى وفهمنى، وأرحنى وفرحنى وبرنى، وفرغنى من كل شىء إلا من ذكرك وطاعتك وطاعة رسولك، ومحابك ومحاب رسولك ﷺ.

ومن دعائه عقب كلامه:

اللهم كن بنا رءوفا، وعلينا عطوفا، وخذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك، اللهم قومنا إذا اعوججنا، وأعنا إذا استقمنا، وخذ بأيدينا إذا عثرنا، وكن لنا حيثما كنا.

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه:

اللهم إن الدنيا حقيرة حقير ما فيها، وإن الآخرة كريمة كريم ما فيها، وأنت الذى حقرت الحقير وكرمت الكريم، فأنى يكون كريما من طلب غيرك؟ أم كيف يكون زاهدا من اختار لدنياه معك؟ فحققنى بحقائق الزهد حتى أستغنى عن طلب غيرك، وبمعرفتك حتى لا أحتاج إلى طلبك.

إلهى، كيف يصل إليك من طلبك؟ أم كيف يفوتك من هرب منك؟ فاطلبنى برحمتك، ولا تطلبنى بنقمتك، ياعزيز يا منتقم، إنك على كل شىء قدير.

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه:

اللهم اسلبنى عقلا يحجبنى عنك، وعن فهم آياتك، وعن فهم كلام رسولك، وهب لى من العقل

الذى خصصت به أنبياءك ورسلك والصديقين من عبادك، واهدنى بنورك هداية المخصصين بمشيئتك، ووسع لى فى النور توسعة كاملة تخصنى بها برحمتك، فإن الهدى هداك، وإن الفضل بيدك تؤتيه من تشاءُ وأنت ذو الفضل العظيم.

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه:

يا واسع يا عليم، يا غنى يا كريم، ياذا الفضل العظيم.

اللهم أجلسنا على بساط القرب منك بالفناء عن غيرك وبالبقاء بنورك، أو بالتقرب بالأخذ عما هو لنا إلى ما هو لك من جهة العلم أو العقل، ومن جهة العمل والحال، وهيمنا فى برزخ الصنع ناظرين بك إليك، ومنك إلى غيرك، إنك على كل شىء قدير.

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه:

يا عزيز يا رحيم، يا حكيم يا غنى يا كريم، يا واسع يا عليم، ياذا الفضل العظيم، اجعلنى عندك دائما، وبك قائما، ومن غيرك سالما، وفى حبك هائما، وبعظمتك عالما، وأسقط البين بينى وبينك حتى لا يكون شىء أقرب إلى منك، ولا تحجبنى بك عنك إنك على كل شىء قدير.

ومن دعائه أيضا رضى الله عنه:

اللهم هب لى من النور الذى رأى به رسولك ﷺ ما كان ويكون؛ ليكون العبد بوصف سيده لا بوصف نفسه، غنيا بك عن تجديد النظر لشىء من المعلومات، ولا يلحقه عجز عما أراد من المقدورات، ومحيطا، بذات السر بجميع أنواع الذوات، ومرتبا للبدن مع النفس، وللقلب مع العقل، وللروح مع السر، وللأمر مع البصيرة، والعقل الأول الممدّ من الروح الأكبر المنفصل عن السر الأعلى.

اللهم ارزقنى من كنز لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، واضربنى بها ضربا تمحق بها من قلبى كل قوة؛ واغننى بذلك الرزق عن ملاحظة النفس والخلق، وأخرجنى به عن ذل الفقر والتدبير والاختيار وعن الغفلة والشهوة ومشيئة النفس والقهر والاضطرار، إنك على كل شىء قدير.

ومن دعائه رضى الله عنه:

باسم المهيمن العزيز القادر، أجل كل شىء وهو ناصرى ق ج ن ص انصرنى فإنك خير الناصرين، وافتح لى فإنك خير الفاتحين، وارزقنى فإنك خير الرازقين، واهدنى ونجنى من القوم الظالمين.

ومن دعائه رضى الله عنه:

يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بينى وبين طاعتك على بساط مشاهدتك، وفرق بينى وبين هم الدنيا وهم الآخرة، ونب عنى فى أمرهما، واجعل همى أنت، واملأ قلبى بمحبتك، وبهجة بأنوارك، وخشع قلبى بسلطان عظمتك، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وها نحن نثبت حزب سيدنا ومولانا الشيخ الإمام قطب العارفين وعلم المهتدين شهاب الدين

أبى العباس أحمد بن عمر المرسى رضى الله عنه، وإن كان بعضه من كلام شيخه الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما، وبعده نذكر حزب الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه المسمى حزب النور، وبعدها حزب آخر له أيضا.

وإنما ذكرنا حزب الشيخ أبى العباس الذى رواه عن شيخه، وحزبى الشيخ أبى الحسن هذين حزب النور والذى بعده، لأن هذه الأحزاب الثلاثة لم تشتهر شهرة حزبى الشيخ أبى الحسن حزب البحر وحزب «وإذا جاءك» فلذلك أفردنا هذه الثلاثة بالذكر وتركنا ذكر ذينك الحزبين فإنهما سارا مسير الشمس والقمر، وأشيد ذكرهما فى البدو والحضر.

فأما حزب الشيخ أبى العباس رضى الله عنه فهو هذا، وهو ورد شيخه بعد العشاء، الآخرة، وحزب «وإذا جاءك» بعد الصبح، وحزب البحر بعد العصر هكذا رتّبها الشيخ أبو العباس رضى الله عنه.

وهذا مبدأ الحزب:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين.

﴿الله لا إله إلّا هو الحىّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلّا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاءَ وسع كرسيّه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلىّ العظيم﴾[١].

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرِّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[٢].

﴿الـم، الله لا إله إلّا هو الحىُّ القيوم، نزَّل عليك الكتاب بالحق مصدِّقًا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبلُ هدًى للناس وأنزل الفرقان﴾[٣].

﴿يأيها المدّثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾[٤].

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾[٥].

﴿الرحمن، علَّم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان، الشمسُ والقمر بحسبان، والنجم والشجر

---

(١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) البقرة: ٢٨٥ – ٢٨٦.
(٣) آل عمران: ١ – ٤.
(٤) المدثر: ١ – ٧.
(٥) العلق: ١ – ٥.

يسجدان، والسماءَ رفعها ووضع الميزان، ألَّا تطغوْا فى الميزان﴾[٦].

﴿تبارك اسم ربِّك ذى الجلال والإكرام﴾[٧].

سبحان ربى العظيم، سبحان ربى العظيم، سبحان ربى العظيم.

﴿سبَّح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملْك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىءٍ عليم، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستّة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير، له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور﴾[٨].

﴿هو الله الذى لاإله إلاهو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لاإله إلاهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماءُ الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[٩].

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد﴾.

﴿قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات فى العقد، ومن شر حاسد إذا حسد﴾.

﴿قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شرِّ الوسواس الخنّاس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

اللهم يا من هو كذلك، وعلى ما وصفه به عباد الله المخلصون من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين والعلماء الموقنين والأولياء المقربين من أهل سماواته وأرضه وسائر الخلق أجمعين، أسألك بها، وبالآيات والأسماء كلها، وبالعظيم منها، وبالأم[١٠] والسيدة[١١] وبخواتم سورة البقرة، وبالمبادئ والخواتيم وبآمين على الموافقة، وبحاء الرحمة وميم الملك ودال الدوام.

﴿محمدٌ رسول الله والذين معه أشدّاءُ على الكفّار رحماءُ بينهم، تراهم ركّعا سجّدا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطْئَه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار وعَد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا﴾[١٢].

احون، قاف، أدم، حم، هاء، أمين.

كهيعص

اغفر لى وارحمنى برحمتك التى رحمت بها أنبياءك ورسلك ولا تجعلنى بدعائك رب شقيًا.

---

(٦) الرحمن: ١ - ٨.
(٧) الرحمن: ٧٨.
(٨) الحديد: ١ - ٦.
(٩) الحشر: ٢٢ - ٢٤.
(١٠) الأم هنا هى الفاتحة.
(١١) سيدة آى القرآن: آية الكرسى.
(١٢) الفتح: ٢٩.

وإنى خفت وأخاف أن أخاف ثم لا أهتدى إليك سبيلاً فاهدنى إليك وأمّنى بك من كل خوف ومخوف فى الدين والدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير.

اللهم يا بديع السموات والأرض، يا قيّوم الدارين، ويا قيوم بكل شىء، يا حى يا قيوم ياإلهنا لا إله لنا إلاّ أنت، كن لنا وليًّا ونصيرًا؛ وأمينًا، وأمنا بك من كل شىء حتى لا نخاف إلاّ أنت؛ واجعلنافى جوارك، واحجبنا بالذى حجبت به أولياءك؛ فترى ولا يراك أحد من خلقك، واصبب علينا من الخير أكمله وأجمله؛ واصرف عنّا من الشرّ أصغره وأكبره.

﴿طس؛ حم عسق، مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان﴾.

اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك والمحبة لك، والشوق إليك، والأنس بك، والرضا عنك، والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك، ناظرين منك إليك، وناطقين بك عنك، لا إله إلاّ أنت سبحانك، ربنا ظلمنا أنفسنا وقد تبنا إليك قولاً وعقدًا فتب علينا جودًا وعطفًا واستعملنا بعمل ترضاه، وأصلح لنا فى ذرياتنا إنّا تبنا إليك وإنّا من المسلمين.

يا غفور يا ودود، يا برّ يا رحيم اغفر لنا ذنوبنا وقربنا بودّك، وصلنا بتوحيدك، وارحمنا بطاعتك، ولا تعاقبنا بالفترة، ولا بالوقفة مع كل شىء دونك، واحلمنا على سبيل القصد، واعصمنا من جائرها، إنك على كل شىء قدير.

اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بيننا وبين الصدق والنيّة والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والمراقبة والنور واليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوّة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم فى القرآن، وخصّنا منك بالمحبة والاصطفائية والتخصيص والتولية، وكن لنا سمعًا وبصرًا ولسانًا وقلبًا ويدًا ومؤيّدًا، وآتنا العلم اللدنّى، والعمل الصالح، والرزق الهنى الذى لا حجاب به فى الدنيا ولا حساب ولا سؤال، ولا عقاب عليه فى الآخرة، على بساط علم التوحيد والشرع، سالمين من الهواء والشهوة والطبع، وأدخلنا مدخل صدق، وأخرجنا مخرج صدق، واجعل لنا من لدنك سلطانًا نصيرًا.

يا ألله، يا علىّ يا حليم يا عليم يا سميع يا بصير يا مريد يا قدير يا حىّ يا قيوم يا رحمن يا رحيم يا من هو هو هو يا هو، أسألك بعظمتك التى ملأت أركان عرشك، وبقدرتك التى قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التى وسعت كل شىء، وبعلمك المحيط بكل شىء، وبإرادتك التى لا ينازعها شىء، وبسمعك وبصرك القريبين من كل شىء، يا من هو أقرب إلىّ من كل شىء، قد قلّ حيائى، وعظم افترائى، وبعد منائى، واقترب شقائى، وأنت البصير بمحنتى وحيرتى وشهوتى وسوءتى، تعلم ضلالتى وعمايتى وفاقتى وما قبح من صفاتى، آمنت بك وبأسمائك وصفاتك وبمحمد رسولك، فمن ذا الذى يرحمنى غيرك، ومن ذا الذى يسعدنى سواك، فارحمنى وأرنى سبيل الرشد واهدنى إليه سبيلاً، وأرنى سبيل الغىّ وجنبنى إيّاه سبيلا، واصحبنى منك الحق والنور والحكم والفصل والبيان واحرسنى بنورك.

يا ألله يا نور يا حق يا مبين، افتح قلبى بنورك، وعلّمنى من علمك، وفهّمنى عنك، وأسمعنى منك، وبصرنى بك، إنك على كل شىء قدير.

اللهم إنى أصبحت وأنا أريد الخير وأكره الشر، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم، فاهدنى بنورك لنورك فيما يرد علىّ منك، وفيما يصدر منّى إليك، وفيما يجرى بينى وبين خلقك، وضيّق على بقربك، واحجبنى بحجب عزّتك عن حجبك، وكن أنت حجابى حتى لا يقع شيء منى إلاّ عليك، وسخّر لى أمر هذا الرزق، واعصمنى من الحرص والتعب فى طلبه، ومن شغل القلب وتعلّق الهمّ به، ومن الذلّ للخلق، بسببه، ومن التفكّر والتدبر فى تحصيله، ومن الشحّ والبخل بعد حصوله، وما يعرض فى النفس من ذلك، وتخلقه بقدرتك على وفق إرادتك وعلمك، ومن ضرورات الحاجات إلى خلقك، فاجعله اللهم سببًا لإقامة العبودية، ومشاهدة لأحكام الربوبية، وهب لى خفيّةً من خفياتك، ونورًا من أنوارك، وذكرًا من أذكارك، وسرا من أسرارك، وطاعةً من طاعات أنبيائك، وصحبة لملائكتك وتولّ أمرى بذاتك، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك، واجعلنى حسنةً من حسناتك، ورحمةً بين عبادك تهدى بها من تشاء إلى صراط مستقيم، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور.

اللهم اهدنى لنورك وأعطنى من فضلك وامنعنى من كلّ عدوٍّ هو لك، ومن كل شيء يشغلنى عنك، وهب لى لسانًا لا يفتر عن ذكرك، وقلبًا يسمع بالحق منك، وروحًا يكرم بالنظر إليك، وسرًّا ممتعًا بحقائق قرة، وعقلاً جائلاً بجلال عظمتك؛ وزيّن ما ظهر وما بطن منّى بأنواع طاعتك؛ يا سميع يا عليم يا عزيز يا حكيم.

اللهم كما خلقتنى فاهدنى، وكما أمتنى فأحينى، وكما أطعمتهم فأطعمنى واسقنى، ومرضى لا يخفى عليك فاشفنى، وقد أحاطت بى خطيئاتى فاغفر لى وهب لى علمًا يوافق علمك، وحكمًا يصادف حكمك، واجعل لى لسان صدق بين عبادك، واجعلنى من ورثة جنّتك، ونجنى من النار بعفوك، وأدخلنى الجنّة حالاً ومآلاً برحمتك، وأرنى وجه محمد نبيك، وارفع الحجاب فيما بينى وبينك، واجعل مقامى عندك دائمًا بين يديك وناظرًا منك إليك، وأسقط البيْن عنى حتى لا يكون شيء بينى وبينك، واكشف لى عن حقيقة الأمر كشفًا لا طلب بعده لعبدك، مع المزيد المضمون بكريم وعدك، إنك على كل شيء قدير.

يا ألله يا عزيز يا حكيم إنك قد أيّدت من شئت بما شئت كيف شئت على ما شئت، فأيّدنا بنصرك بحرمة أوليائك، ووسع صدورنا لمعرفتك عند ملاقاة أعدائك، واجلب لنا من رضيت عنه حتى نخضع له ونذل كما جلبته لمحمد رسولك، واصرف عنّا كيد من سخطت عليه كما صرفته عن إبراهيم خليلك؛ وآتنا أجرنا فى الدنيا بالعافية من أسباب النار، ومن ظلم كلّ جائر جبار، وبسلامة قلوبنا من جميع الأغيار، وبغض لنا الدنيا وحبِّب لنا الآخرة واجعلنا فيهما من الصالحين إنك على كل شيء قدير.

يا ألله يا عظيم يا عليم يا برّ يا رحيم، عبدك قد أحاط به خطيئاته، وأنت العظيم، وندائى كأنه لم يسمع وأنت السميع، وقد عجزت عن سياسة نفسى وأنت العليم، وأنّى لى برحمتها وأنت البرّ الرحيم، كيف يكون ذنبى عظيمًا مع عظمتك؟ أم كيف تجيب من لم يسألك وتترك من سألك؟ أم كيف أسوس نفسى بالبرّ وضعفى لا يعزب عنك؟ أم كيف أرحمها بشيء وخزائن الرحمة بيديك؟

إلهى، عظمتك ملأت قلوب أوليائك، فصغر لديهم كل شيء فاملأ قلبى بعظمتك حتى لا يصغر

ولا يعظم لديه شيء، واسمع ندائى بخصائص اللطف فإنك السميع من كل شيء.

إلهى، سُتِر عنّى مكانى منك حتى عصيتُك وأنا فى قبضتك، واجترحت ما اجترحت فكيف لى الاعتذار إليك.

إلهى جذبك لى أطمعنى فيك وحجابى عنك آيسنى من غيرك فاقطع حجابى حتى أصل إليك واجذبنى جذبَة لا أرجع بعدها لغيرك.

إلهى، كم من حسنة ممن لا تحب لا أجر لها، وكم من سيئة ممن تحب لا وزر لها، فاجعل سيِّئاتى سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتى حسنات من أبغضت فإن كرم الكريم مع السيئات أتمّ منه مع الحسنات، فأشهدنى كرمك على بساط رحمتك، ورضنى بقضائك، وصبّرنى على طاعتك فيما أجريت علىّ من أمرك ونهيك، وأوزعنى شكر نعمتك، وغطّنى برداء عافيتك حتى لا أشرك بك غيرك، وامنن علىّ بالفهم عنك إنك على كل شىء قدير.

إلهى، معصيتك نادتنى بالطاعة، وطاعتك نادتنى بالمعصية، ففى أيها أخافك، وفى أيها أرجوك؟ إن قلت بالمعصية قابلتنى بفضلك، فلم تدع لى خوفاً، وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لى رجاء، فليت شعرى كيف أرى إحسانى مع إحسانك؟ أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك.

قاف جيم سرّان مع سرِّك، وكلاهما دالان على غيرك، فبالسرّ الجامع الدالّ عليك لا تدعنى لغيرك، إنك على كل شىء قدير.

يا أللّه يا فتّاح يا غفّار يا منعم يا هادى يا ناصر يا عزيز، هب لى من نور أسمائك ما أتحقق به حقائق ذاتك وافتح لى واغفر لى وأنعم علىّ واهدنى وانصرنى وأعزّنى، يا معزّ لا تذلّنى بتدبير مالك، ولا تشغلنى عنك بما لك، فالكل كلُّك، والأمر أمرك، والسر سرّك، عدمى وجودى، وجودى عدمى، فالحق حقّك، والجعل جعلك، ولا إله غيرك، وأنت الله الحق المبين.

يا عالم السرّ وأخفى، يا ذا الكرم والوفاء، علمك قد أحاط بعبدك؛ وقد شقى فى طلبك؛ فكيف لا يشقى من طلب غيرك؛ تلطفت بى حتى علمت أن طلبى لك جهل؛ وطلبى لغيرك كفر؛ فأجرنى من الجهل؛ واعصمنى من الكفر؛ يا قريب أنت القريب وأنا البعيد؛ قربك أيأسنى من غيرك؛ وبعدى عنك ردَّنى للطلب لك؛ فكن لى بفضلك حتى تمحو طلبى بطلبك، يا قوى يا عزيز، إنك على كل شىء قدير.

اللهم لا تعذّبنا بإرادتنا، وحبِّ شهواتنا، فنشغل أو نحجب أو نفرح بوجود مرادنا، أو نحزن أو نسخط أو نسلِّم تسليم النفاق عند الفقد، وأنت أعلم بقلوبنا، فارحمنا بالنعيم الأكبر، والمزيد الأفضل، والفوز الأكمل، وغيّبنا وغيِّب عنّا كل شىء، وأشهدنا إياك بالإشهاد، وانصرنا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

يا أللّه يا قدير يا مريد يا عزيز يا حكيم يا حميد، إنّا نسألك بالقدرة العظمى، وبالمشيئة العليا، وبالآيات والأسماء كلها، وبهذا العظيم منها أن تسخّر لنا هذا البحر وكلّ بحر هو لك فى الأرض والسماء، والملك والملكوت، كما سخّرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخّرت الجبال والحديد لداود، وسخّرت الريح والشياطين والجنّ لسليمان، وسخر لنا كلّ شىء يا من بيده ملكوت كلِّ شىءٍ وهو يُجير ولا يُجار عليه، يا علىّ يا عظيم، يا حليم يا عليم، احون قاف أدم حم هاء آمين ا هـ.

وهذا حزب النور للشيخ الولىّ الصالح
سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

يا ألله، يانور ياحق يامبين، افتح قلبى بنورك، وعلِّمنى من علمك، وفهِّمنى عنك، وأسمعنى منك، وبصرنى بك، وأقمنى بشهودك، وعرِّفنى الطريق إليك، وهوِّنها علىّ بفضلك، وألبسنى التقوى منك، إنك على كل شىء قدير.

اللهم اذكرنى، وذكّرنى، وتب على واغفر لى مغفرةً أنسى بها كل شىء سواك، وهب لى تقواك، واجعلنى ممن يحبّك ويخشاك، واجعل لى من كل همٍّ وغمٍّ وضيق، وهوى، وشهوة، وخطرة، وفكرة، وإرادة، ومن كل قضاءٍ، وأمر، فرجًا ومخرجًا.

أحاط علمك بجميع المعلومات، وعلت قدرتك على جميع المقدورات، وجلَّت إرادتك أن يوافقها أو يخالفها شىء من الكائنات.

حسبى الله، وأنا برىء مما سوى الله.

الله لا إله إلّا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.

لا إله إلا الله: نور عرش الله.

لا إله إلّا الله: نور لوح الله.

لا إله إلّا الله: نور قلم الله.

لا إله إلّا الله: نور رسول الله.

لا إله إلّا الله: نور سرِّ ذات رسول الله.

لا إله إلّا الله: آدم خليفة الله.

لا إله إلّا الله: نوح نجىّ الله.

لا إله إلّا الله: إبراهيم خليل الله.

لا إله إلا الله: موسى كليم الله.

لا إله إلّا الله: عيسى روح الله.

لا إله إلّا الله: محمد حبيب الله.

لا إله إلّا الله: الأنبياء خاصّة الله.

لا إله إلّا الله: الأولياء أنصار الله.

لا إله إلّا الله: الرب الإله. الملك الحق المبين، خالق كل شىء، وهو الواحد القهار، رب السموات والأرض ومابينهما العزيز الغفار.

لا إله إلّا الله العلى العظيم.

لا إله إلّا الله الحليم الكريم.

سبحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين.

باسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

حسبى الله، آمنت بالله، رضيت بالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، أتوب إليك بك منك إليك، ولولا ماشئت مانبت إليك، فامْحُ من قلبى محبّة غيرك واحفظ جوارحى من مخالفة أمرك.

وتالله لئن لم ترعنى بعينك، وتحفظنى بقدرتك: لأهلكنّ نفسى، ولأهلكنّ أمّةً من خلقك ثم لا يعود ضرر ذلك إلّا على عبدك.

أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وبك منك، لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، بل أنت أجلّ من أن أثنى عليك، وإنما هى أعراض تدلّ على كرمك قد منحتها لنا على لسان رسولك، لنعبدك بها على أقدارنا لا على قدرك، فهل جزاء الإحسان الأول الكامل إلّا الإحسان منك؟

يا من به ومنه وإليه يعود كل شىء أسألك بحرمة الأستاذ، بل بحرمة النبى الهادى، بل بحرمة السبعين والثمانية بل بحرمة أسرار مامنك إلى محمد النبىّ الأمّى، بل بحرمة سيدة آى القرآن من كلامك، بل بحرمة السبع المثانى والقرآن العظيم، بل بحرمة كتبك المنزلة، بل بحرمة الاسم الأعظم الذى لا يضرّ معه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم بل بحرمة قل هو الله أحد الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، اكفنى كلّ غفلة، وشهوة ومعصية، فيما تقدّم وفيما تأخر واكفنى كل طالب يطلبنى بالحق وغير الحق فى الدنيا والآخرة، فإنه لك الحجّة البالغة، وأنت على كل شىء قدير واكفنى همّ الرزق، وخوف الخلق، واسلك بى سبيل الصدق، وانصرنى بالحق، واكفنى كل همٍّ وغمٍّ دون الجنة، واكفنا كل عذاب من فوقنا، أو من تحت أرجلنا، أو يلبسنا شيعًا، أو يذيق بعضنا بأس بعض، واكفنا شرَّ ما تعلق به علمك مما كان ويكون، إنك على كل شىء قدير.

سبحان الملك الخلاق سبحان الخلاق الرزاق سبحان الله عما يصفون، عالم الغيب والشهادة، فتعالى عمّا يشركون، سبحان ذى العزّة والجبروت، سبحان ذى القدرة والملكوت، سبحان من يحيى ويميت، سبحان الحىّ الذى لا يموت، سبحان القائم القادر، سبحان القاهر، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، سبحان القائم الدائم.

قل: حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون.

أعوذ بالله من جهد البلاء، ومن سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شماتة الأعداء، وأعوذ بالله: ربى وربكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب.

يامن بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه: أنصرف بالخوف منك والتوكل عليك، حتى لا أخاف غيرك، ولا أرجو غيرك ولا أعبد شيئًا سواك.

أشهد أنك على كل شىء قدير، وأنك قد أحطت بكل شىء علمًا.

نسألك بهذا الأمر الذى هو أصل الموجودات، وإليه المبدأ والمنتهى، وإليه غاية الغايات: أن

تسخر لنا هذا البحر: بحر الدنيا وما فيه ومن فيه، كما سخَّرتَ البحر لموسى، وسخَّرت النار لإبراهيم، وسخرتَ الجبال والحديد لداود وسخرتَ الريح والشياطين والجنَّ لسليمان.

وسخر لى كلَّ بحر، وسخّر لى كلَّ جبل، وسخّر لى كلّ حديد، وسخّر لى كلّ ريح، وسخّر لى كلّ شيطان من الجنِّ والإنس، وسخّر لى نفسى، وسخر لى كل شىء، يامن بيده ملكوت كل شىء، وانصرنى باليقين وأيدنى بالروح الأمين.

صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلّا تذكرةً لمن يخشى، تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلا، الرحمن على العرش استوى، له مافى السموات ومافى الأرض ومابينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلمُ السرَّ واخفَى.

الله لا إله إلّا هو له الأسماءُ الحسنى، نسألك بهذا الاسم العظيم الذى حفظت به أولياءَك الكرام، إنك أنت الملك العلّام، أن تجعلنى بالأسوة الحسنة التى كانت فى إبراهيم عليهَ السلام والذين معه إذ قالوا لقومهم: إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا، حتى تؤمنوا بالله وحده.

جلَّ ربى أن يوجد بشىء أو يفقَد بشىء، إنه لن يضر معه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهو السميع العليم.

حزب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين.

الله لا إله إلّا هو الحيُّ القيوم لا تأخذه سنةٌ ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلّا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلّا بما شاء وسع كرسيّه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلىّ العظيم.

آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفسا إلّا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبْلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنّا واغفِر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

ألم، الله لا إله إلّا هو الحى القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبلُ هدًى للناس وأنزل الفرقان، إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام، إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاءُ لا إله إلّا هو العزيز الحكيم.

قل اللّهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاءُ وتنزع الملك ممن تشاءُ وتعزُّ من تشاءُ وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىءٍ قدير، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىَّ من الميِّت وتخرج الميّت من الحىِّ وترزق من تشاءُ بغير حساب.

الذى خلقنى فهو يهدين، والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين، والذى يميتنى ثم يحيين، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين، رب هب لى حكمًا وألحقنى بالصالحين، واجعل لى لسان صدق فى الآخرين، واجعلنى من ورثة جنة النعيم، واغفر لأبى إنه كان من الضالين، ولا تُخزنى يوم يبعثون، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم، وأزلفت الجنة للمتّقين، وبرِّزت الجحيم للغاوين.

سبَّح لله ما فى السموات، والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض يُحيى ويميت وهو على كل شىءٍ قدير، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىءٍ عليم، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستّة أيامٍ ثم استوى على العرش يعلم ما يلجُ فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير، له ملك

السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور.

هو الله الذى لا إله إلّا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذى لا إله إلّا هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمّا يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

والضحى والليل إذا سجى، ما ودّعك ربك وما قلى، وللآخرة خيرٌ لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضالًّا فهدى، ووجدك عائلًا فأغنى، فأمّا اليتيم فلا تقهر، وأمّا السائل فلا تنهر، وأمّا بنعمة ربك فحدث.

ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذى أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك، فإن مع العسر يسرًا، إنّ مع العسر يسرا، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب.

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوْفَى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين.

قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.

إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا.

إن الإنسان خلق هلوعًا، إذا مسّه الشرُّ جزوعًا، وإذا مسّه الخير منوعًا، إلّا المصلّين، الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين فى أموالهم حقٌّ معلوم، للسائل والمحروم، والذين يصدّقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشَهَادَاتِهِمْ قائمون، والذين هم على صلاتهم يحافظون، أولئك فى جنّات مكرمون.

اللّهم إنّا نسألك صحبة الخوف، وغلبة الشوق، وثبات العلم، ودوام الفكر ونسألك سرَّ الأسرار المانع من الإصرار حتى لا يكون لنا مع الذنب أو العيب قرار، واجتبنا واهدنا إلى العمل بهذه الكلمات التى بسطتها لنا على لسان رسولك، وابتليت بهن إبراهيم خليلك فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين.

فاجعلنا من المحسنين من ذريته ومن ذرية آدم ونوح، واسلك بنا سبيل أئمة المتّقين.

باسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

حسبى الله، آمنت بالله، رضيت بالله، توكلت على الله، لا قوّة إلاَّ بالله. أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

رب اغفر لى وللمؤمنين والمؤمنات، والحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

رب إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا فاغفر لى وتب علىّ، لا إله إلاَّ أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين.

يا الله يا على يا عظيم، يا حليم يا عليم، يا سميع يا بصير، يا مريد، يا قدير، يا حىّ، يا قيوم، يا رحمن يا رحيم، يا من هو هو، يا هو، يا أوّل يا آخر، يا ظاهر يا باطن، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام.

اللهم صلنى باسمك العظيم الذى لا يضرّ معه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء، وهب لى منه سرًّا لا تضرّ معه الذنوب شيئًا، واجعل لى منه وجهًا تقضى به الحوائج للقلب والعقل والروح، والسرّ والنفس والبدن، ووجهًا ترفع به الحوائج من القلب والعقل، والسرّ والروح، والبدن والنفس، وأدرج أسمائى تحت أسمائك، وصفاتى تحت صفاتك، وأفعالى تحت أفعالك، درج السلامة: وإسقاط الملامة، وتنزل الكرامة، وظهور الإمامة، وكمل لى ما ابتليت به أئمة الهدى من كلماتك وأغننى حتى تُغنى بى، وأحينى حتى تحيى بى ما شئت ومن شئت من عبادك، واجعلنى خزانة الأربعين، ومن خلاصة المتقين، واغفر لى فإنه لا ينال عهدك الظالمين.

طس؛ حم عسق؛ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان.

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

تم الحزب بحمد الله

خاتمــة

وأما الخاتمة:

فكنت منذ عشر سنين وأنا بالقاهرة بجامع الحاكم آتى إلى الولىّ أبى عبد الله الحكيم المرسى، وكان الحكيم هذا يجلّه الشيخ ويحبّه، فقال لى: كنت فى سفينة فذكرتك فنسبك بعض من كان فيها إلى بعض المشايخ، فقلت أنا: إنما هو من أصحاب شيخنا أبى العباس المرسى رضى الله عنه، فإن كان الأمر كما قلت لهم فاكتب لى ذلك بخطّك، فكتبت له فى ذلك الوقت ما أنا أذكره إن شاء الله تعالى، وهذا الكتاب لمّا كان موضوعًا لمناقب الشيخ أبى العباس المرسى رضى الله عنه، وهذه اللامعة سوارًا لزند هذا الكتاب، وياقوتة نختم بها عقد هذه الأبواب، ويتبع ذلك وصيّة كتبت بها إلى إخواننا بالإسكندرية وأنا إذ ذاك بالقاهرة مستهل ربيع الأوّل الذى هو من سنة أربع وتسعين وستمائة، ثم بعد ذلك قصيدة تضمنت وصايا ومطالبات من الحق تعالى لعبده مختتمة بمدح رسول الله ﷺ، وبها نختم الكتاب إن شاء الله تعالى جعل الله ذلك كلّه لوجهه الكريم بفضله.

وهذه اللامعة المنيرة والدرّة الخطيرة هى القسم الأوّل من الخاتمة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد: حمدًا لله الواجب حمده، الثابتة علياؤه ومجده، الباهرة آياته، الظاهرة دلالاته، الذى أشرق نوره فى قلوب أوليائه فاستنارت به سموات أرواحهم، وأرض نفوسهم وأشباحهم، الله نور السموات والأرض، نور سموات الأرواح بمشاهدته، ونور أرض النفوس بطاعته وخدمته، وجعل قلوبهم مجلاة لذاته، ولظهور صفاته، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصًا، وهو الظاهر فى كل شىء عمومًا، ظهر فيهم بأسراره وأنواره، كما ظهر فيهم وفيما عداهم بقوته واقتداره، ألسنتهم بذكره لهجة، وقلوبهم بنوره بهجة، إن نطقوا فعنه وإن استمعوا فمنه، فكم من لواء ولاية يخفق عليهم، وكم من منشور خلافة قد خرج إليهم، أدخلهم إليه مدخل صدق بالفناء عمن سواه، وأخرجهم للخليقة مخرج صدق، باقين بنوره وسناه، فهم برازخ الأنوار، ومعادن الأسرار، وصلهم لما قطعهم وفرقهم لما جمعهم، وغيبهم عنهم وعلى أسراره أطلعهم، فلو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لوسعهم.

ولا عجب من اتساع أنوارهم، ولا من إحاطة أسرارهم، فإن نور قلوبهم من نور الله، قال ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[1].

وأما إحاطة أسرارهم فلقوله تعالى: ﴿إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم﴾[2].

فلهم على قدر إرثهم من نبيهم صلوات الله وسلامه عليه التحقق بمقام الفردانية، والدخول إلى حضرة الوحدانية.

---

(١) رواه البخارى فى التاريخ والترمذى وابن جرير.

(٢) الفتح: ١٠.

وسمعت رحمكم الله أن ودّكم على اختلاف مراتبه عندنا مسباره، ولدينا اعتباره، فيميل القلب إليك على حسب ميلك إليه، وإن تزدد من المدد على يد عبد بحسب ما تزيد من الودّ فيه، كذلك رتبة الإله الحكيم والقادر العليم.

وبالجملة، فأعيان المطلوبات من الأدب الباطن وامتثال الأمر الظاهر لا تحصرها الوصايا إلّا إجمالًا، ويشمل جميع ذلك التقوى، قال الله سبحانه: ﴿يأيها الناس اتقوا ربّكم﴾[٣].

والوفاء بالعهد: قال الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود﴾[٤].

والتوبة قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله﴾[٥].

والإنابة والاستسلام قال الله تعالى: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾[٦].

والاستجابة قال الله سبحانه: ﴿استجيبوا لربكم﴾[٧].

والاتباع لرسول الله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتّبعونى يحببكم الله﴾[٨].

وشهود كل نعمة من الله قال الله سبحانه: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[٩].

وشهود الهدى من الله قال الله سبحانه: ﴿وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنّا لنهتدى لوْلا أن هدانا الله﴾[١٠].

لا جعل الله ما نقوله وما نسمعه حجّةً علينا، وجعلنا وإيّاكم من العباد المهتدين بحبّه، الباقين على ودِّه، المنعمين بقربه وأفرغ علينا وعليكم من نور عنايته، وجعلنا من أهل ولايته بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وأزواجه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه ينشد:

وغـنِّى لى مـنِّى قـلبـى　　وغـنَّـيـتُ كـما غـنِّى
وكـنّـا حـيـثـما كـانـوا　　وكـانـوا حـيـثـما كـنَّـا

والمظهر الأعلى، والبرزخ الأسنى، ومشرق الأنوار، ومعدن الأسرار، من له الفتح والختام، الحائز للمقامات العليّة بالتمام، رسول رب العالمين وسيد الأوّلين والآخرين محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، فهو نور الأنوار، وسرّ الأسرار، إليه تنزل الأسرار الربانية، وعنه تؤخذ المعارف الإلٰهية، أخذ أهل الظاهر عنه ظاهرهم، وأخذ أهل الباطن منه باطنهم، وقال ﷺ: العلماء ورثة الأنبياء[١١]، فكل على قدر إرثه، وإرثه على قدر نوره، ونوره على قدر فتحه، وفتحه على قدر صفاء قلبه، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربِّه، ومعرفته بربّه على حسب ما سبق له من وجود حُبِّه، غير أن علماء الباطن أحقّ بالإرث وأوْلى، وأقرب نسبة وأعلى، لأن علمهم تلزمه الخشية، وتكتنفه العظمة، وحقيقة

---

(٣) النساء: ١.
(٤) المائدة: ١.
(٥) النور: ٣١.
(٦) الزمر: ٥٤.
(٧) الشورى: ٤٧.
(٨) آل عمران: ٣١.
(٩) النحل: ٥٣.
(١٠) الأعراف: ٤٣.
(١١) رواه أحمد وأبو داود الترمذى وآخرون عن أبى الدرداء مرفوعًا وصححه ابن حبان والحاكم وغيرها.

الإرث أن ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث على الصفة التى كان بها عند الموروث عنه.

فكل صاحب علم لا تصحبه خشية فليس بأهل لأن يكون وارثًا، وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» أى العلم بالله لأن العلم بالله يورث الخشية له، قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾(١٢).

ولم تزل سلسلة الصلاح والشهادة والولاية والصدّيقية والقطبانية تمتدّ من ذلك البرزخ الأعلى المحيط صلوات الله وسلامه عليه إلى وقتنا هذا، ولن تزال كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾(١٣) أى ما نذهب بولى إلا ونأتى بخير منه أو مثله.

وكل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو فى هذا الباب لقيط لا أب له، دعىّ لا نسب له، فإن يكن له نور فالغالب غلبة الحال عليه، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه، لم ترضْه سياسة التأديب والتهذيب، ولم يُقده زمام التربية والتدريب.

وشيخنا وإمامنا وقدوتنا فى هذا الشأن أوحد وقته، وعلامة زمنه، علم العارفين، قطب المهدين، مظهر سناء الحقيقة، ومبين معالم الطريقة، العالم بالأسماء والحروف والدوائر، الجامع لعلم الظواهر والسرائر، سيدنا ومولانا شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى الشاذلى قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه، هو الذى اقتبسنا من أنواره، وسلكنا على نهج آثاره، وهو الذى أسرع بأسرارنا حتى لحقت، وفتق ألسنتنا حتى نطقت غرس غراس المعرفة فى قلوبنا فأينعت ثمراتها، وفاحت زهراتها.

وهو الذى بفضل الله وعدنا، وبالكلام فى العلمين أشار لنا، لا ننتسب إلّا إليه ولا نعتمد فى هذا الشأن إلا عليه، فمن نسبنا إلى غيره فهو بأمرنا جاهل، أو عارف متجاهل، ومن نسب تلميذًا إلى غير أستاذه فهو كمن نسب ولدًا إلى غير أبيه، وهذه الأبوّة أحقّ أن يرعى نسبها، وأجدر أن يحفظ سببها، إذ تلك الأبوة تفتقر إلى هذه، وهذه لا تفتقر إلى تلك.

وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه.

وليس شيخك من واجهتك عبارته، إنما شيخك الذى سرت فيك إشارته.

وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك الذى رفع بينك وبينه الحجاب.

وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذى نهضك حاله.

شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى.

شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك، حتى تجلت فيها أنوار ربك، نهضك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ومازال محاذيًا لك حتى ألقاك بين يديه، فزجّ بك فى نور الحضرة وقال: ها أنت وربك، هنالك محل الولاية من الله، ومواطن الإمداد من الله، وبساط التلقّى من الله، ثم إن

---

(١٢) فاطر: ٢٨. (١٣) البقرة: ١٠٦.

شاء أبقاه فى بحر الفناء غريقا، وإن شاء أرجعه إلى ساحل البقاء تحقُّقًا وتحقيقا.

فصاحب الفناء له التلقّى من الله، وصاحب البقاء له الإلقاء عنه.

وصاحب البقاء ينوب عن الله، وصاحب الفناء ينوب الله عنه.

وصاحب الفناء قد طمست دائرة حسِّه، وانفتحت حضرة قدسه، وصاحب البقاء باق بربه فى حضرة قدسه.

وصاحب الفناء مدعوٌّ إلى الله، وصاحب البقاء داع إلى الله، وهو محل الخلافة والنيابة مع الإذن والتمكين، والرسوخ فى اليقين داع إلى الله على بصيرة من الله، قال الله سبحانه: ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾(١٤). أى على معاينة ومطالعة ومشاهدة، لا أدعو إليك وأنا غائب عنك، بل أدعو إليك وأنا ناظر إليك.

وهذا الطريق طريق الأنبياء والمرسلين، وأكابر الصدّيقين، وهى المقام الأكمل، والمنهج الأفضل، فمن نسبنا إلى غير هذا الإمام مع العلم بنسبتنا فهو مكابر ومعاند، ومن نسبنا إلى غيره مع الجهل بنسبتنا أيضًا فهو عن سبيل الرشد حائد، مخالف لأمر ربه، غير مراقب لقلبه.

ألم تسمع إلى ما قال المولى سبحانه: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾(١٥).

فالله سبحانه(١٦) يحقق نسبتنا من هذه الطائفة، وأن يتوفّانا على محبّتهم، وأن يجعلنا دارجين على مدرجتهم، وأن يزيدنا فيهم ودًّا، ولا يجعلنا ممن نقض لهم عهدًا، بمنه ولطفه.

والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام المتقين، محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم.

---

(١٤) يوسف: ١٠٨.

(١٥) الإسراء: ٣٦.

(١٦) لعل النص هنا «فالله سبحانه وتعالى نسأل أن يحقق» بدليل ما بعده.

وأما الوصيّة المكتوب بها إلى بعض إخواننا بالإسكندرية فهى هذه

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سلام الله ورحمته وبركاته على الإخوان المحبين، والأوداء المحبوبين، حفظهم الله وتولّاهم، وحرسهم ورعاهم، وأوسع عليهم من فضله، وأفرغ عليهم من عطائه وبذله، وأحلّ قلوبهم محل المؤانسة والتفهيم، والمفاتحة والتكريم، ورزقهم الطاعة والقبول، والسير إلى الله والوصول، والإذن من الله والدخول، وقدس أرواحهم، وفسح فى غيبه مراحهم، وبثّ لهم من نوره ما يكون لهم هاديًا، وأعطاهم من حفظه ما يكون لهم من أغيار الدنيا والآخرة واقيًا.

اعلموا رحمكم الله أن العناية الإلهية وإن كانت غيبًا فلها شهادة تدل عليها ، ودلالة تهدى إليها، فتلمحوا عناية الله فيكم بوقوفكم على حدوده، ورعايتكم لعهوده، ألا وإن من علامة محبة الله للعبد محبة العبد إياه، ومن علامة محبة العبد لله، أن لا يؤثر عليه شيئًا سواه، ومن علامة عدم الإيثار على الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، وإلى الأكوان ببصر الاعتبار.

والسعيد من أعطاه الله قلبًا مفكرًا، وبصرًا معتبرا، وأذنًا تسمع من الله، ونفسا ناشطة إلى خدمة الله، وأحق ما يفتقد العباد من حقوق الله سبحانه الشكر له، والشكر له ظاهر وباطن، فظاهره الموافقة وباطنه شهود النعمة، فما شكره من لم يمتثل أوامره وحدوده، وما حفظه من ضيّع عهوده، فعليكم رحمكم الله بالشكر لنعمه فيكم.

ألا إن أرباب الغفلة والعمى يطلبون من الله مجدّدات النعم وهم لما أعطاهم غير شاكرين، وكيف يجدّد عليك نعمة أنت طالبها وقد ضيّعت شكر نعمة طلبتك حتى وصلت إليك، فالطالب لنعم الله أولى ما طلب به الشكر لله، والشكر يطلب لك من المشكور، وإن كنت صامتًا، ويستجدى لك ممن شكرته وإن كنت عن الطلب ساكتا، وقد ضمن الله المزيد للشاكرين وما استثنى، فقال عزّ من قائل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾[1].

فإذا كان قد ضمن لهم الزيادة على ما أعطاهم، فكيف لا يديم لهم ما كان منحهم أوّلًا، ألا إن من أحب بقاء شيء عنده قيّده بعقاله، خيفة زواله، فقيِّدوا نعم الله فيكم بوجود الشكر.

ويستعان على الشكر بالنظر فى أيادى المحسن، وكثرة صنائعه، وسوابق مننه ولواحقها، وبداية نعمه وخواتمها، فإنك لم ترْم بصر الإيمان إلّا وقع على نعمة سابقة، ومنّةٍ منه لاحقة.

ويؤكد ذلك عندك نظرك لمعاملتك معه، وشهودك لمعاملته معك، فإنك إن نظرت ما منه إليك لم تجد إلّا فضلًا وإحسانًا، وإن نظرت ما منك إليه لم تجد إلّا غفلةً وعصيانا.

وأصل الخيرات، ومعدن البركات، العمل بطاعة الله، والتجنب لمعصية الله، وعليكم بتصحيح التوبة فإنه ينبنى عليها ما بعدها، وتعود بركاتها على ما قبلها، وما من مقام إلّا وهو مفتقر إليها،

(١) إبراهيم: ٧.

وما زكت الأحوال، ولا قبلت الأعمال، ولا ثبتت مراتب الإنزال، إلّا بتصحيح التوبة، وعمومها يدل على خصوصها.

ألم تسمع إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾، فعمّ جميع المؤمنين بالخطاب بالتوبة فدل ذلك على عظيم قدرها، ويستعان على التوبة بالفكرة، ويستعان على الفكرة بالخلوة، ويستعان على الخلوة بمعرفة آفات الخلطة.

ومن علامات الوصول إلى الغايات ، وجود تصحيح البدايات، ولأن يصحح الله لك مقام التوبة خير لك من أن يطلعك على سبعين ألف غيب ويفقدك إيّاها.

اذكر الله تعالى بلسانك،وراقبه بقلبك، فما ورد عليك من الله من خير قبلته، وماورد عليك من ضدّه دفعته، رجّاعًا إلى الله فى الدفع والجلب، فإن خامر سرَّك شىء، من ذنب أو عيب أو نظر إلى عمل صالح أو حال جميل فبادر إلى التوبة والاستغفار من الجميع، أما من الذنب والعيب فواجب شرعًا، وأما من العمل الصالح أو الحال الجميل فألقه.

واعتبر باستغفار الرسول ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا فى معصوم لم يقترف ذنبًا قط وتقدّس عن ذلك ﷺ، فما ظنّك بمن لا يخلو من ذنب فى وقت من الأوقات!

واعلموا أن الله قد أودع أنوار الملكوت فى أصناف الطاعات، فأى من فاته من الطاعة صنف أو أعوزه من الموافقة جنس فقد فقد من النور بمقدار ذلك فلا تهملوا شيئًا من الطاعات، ولا تستغنوا عن الأوراد بالواردات، ولا ترضوا لأنفسكم بما يرضى به المدّعون من جرى الحقائق على ألسنتهم، وخلوّ أنوارها من قلوبهم، وإن الحق بحكمته جعل الطاعة الجارية على العباد مستقرعة لباب الغيب، فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الأدب لم يحتجب الغيب عنه.

وإنما حجاب الغيوب، وجود العيوب، فالتطهر من العيب، يفتح لك باب الغيب، فلا تكن ممن يطالب الله لنفسه ولا يطالب نفسه لله، فذلك حال الجاهلين الذين لم يفقهوا عن الله، ولا واجههم المدد من الله.

والمؤمن ليس كذلك، بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولا يطالب ربه لنفسه، فإن توقف الوقت عليه استنبط أدبه، ولا يستبطئ مطلبه.

وإن ملكوت الله لا يؤذن بالدخول فيه إلّا لمن طهر من آفات البشرية، وقام بوفاء العبودية، والتطهر من آفات البشرية، بالتخلّق بأخلاق الله، ووجود الفناء عما سوى الله، والتحقق بالعبودية بالامتثال لأوامر الله، والاستسلام لأحكام الله، فإن تصل إلى ذلك، فلك منفسح فى الغيب، ومستوطن فى الملكوت وواصلك الإمداد وقابلك من الله الازدياد.

وتتوصل إلى ذلك بإقلال النظر إلى الظواهر؛ ورعايتك للسرائر، وأنه لا يشفى السرائر برهان الظواهر، إلّا أن يكون معها خالص حبٍّ يباشر القلوب وإشراق نور يذهب بظلمة الذنوب، وإنما طال عليهم الطريق لأنهم لم يسلكوها على منهج حق، ولم يدخلوا فيها مدخل صدق، ولو أنهم فعلوا لم تحتجب عنهم المطالب، وكان مايطلبونه لهم طالب.

بيان واعتبار وإشراق أنوار

لا تتفقد الوقت بظهور الواردات، ولا بكثرة الطاعات، ولكن انظر إلى ثقتك بالله، وإجلالك لأوامر الله، وترك الاختيار مع الله، فإن وجدت ذلك عندك ولا يوجد واحد منها إلّا وجد بقيتها فاعلم أن لله بك عناية أبداها، وودائع أخفاها، واشكره على ما أسدى، واحمده على ما أهدى، واعلموا رحمكم الله أن ودّكم على اختلاف مراتبه عندنا مسباره، ولدينا اعتباره، فميل القلب إليك على حسب ميلك إليه، ولن يزاد من المدد لعبد على يد عبد إلّا بحسب ما يزيد من الودّ فيه، كذلك رتّبه الإله الحكيم، والقادر العليم.

وبالجملة فأعيان المطلوبات من الأدب الباطن وامتثال الأمر الظاهر لا تحصرها الوصايا إلّا إجمالًا، ويشمل جميع ذلك التقوى، قال الله سبحانه: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم﴾ والوفاء بالعهد قال الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ والتوبة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعًا﴾ والإنابة والاستسلام قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ والاستجابة لله قال الله عزّ وجل: ﴿استجيبوا لربكم﴾ والاتباع لرسوله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ وشهود كل نعمة من الله قال الله جلّ ذكره ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ وشهود الهدى من الله قال الله عز وجلّ: ﴿الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾ لا جعل الله مانقوله وما نسمعه حجّةً علينا، وجعلنا وإياكم من العباد المهتدين الدائمين على حبّه، الباقين على ودّه، المنعَّمين بقربه، وأفرغ علينا وعليكم من نور عنايته[1]، وجعلنا من أهل ولايته، بمنّه وكرمه آمين.

والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا ومولانا محمد نبيّه وحبيبه وعبده كثيرًا.

وهذه القصيدة الموعود بها:

فلا والله ما طابت حياة ... سوى بالقرب من كنف الحبيب
فلا تختر سوى دارًا لسعدى ... وعد عن الأجارع والكثيب
وما لاقى الأحبة مثل بعد ... تفتت من حبّات القلوب
ومن يعشق معززةً شرودًا ... فلا يسأم مقاساة الكروب
ودونك فاستبق نحو المعالى ... ولا ترضى بدون من نصيب
ولا تقنع بغير العزّ مرقى ... وسدِّد نحوه سهم المصيب
وأنهض همةً إن لم تثرها ... أقمت بموطن النكس الكثيب
ولا تيئس وإن طالت ليال ... فكم شمس بدت بعد الغروب
ولا تسأم من التدآب يومًا ... فإن العزّ فى ذاك الدءوب

(١) تكرر من أول قوله: وبالجملة فأعيان المطلوبات فى اللامعة المنيرة والدرة الخطيرة، وفى وصيته للإخوان بالإسكندرية، ولا مانع من تكراره فى كليهما.

ولا تحزن إذا ما فات فان ... فذاك الفتح فى نظر الأريب
ولا ترضى بغير الله ذخرًا ... فنعم الرب من مولى مجيب
ولا تشكو لغير الله ضرًّا ... فليس لغيره كشف الكروب
ولا تركن لغير الله يومًا ... فتقطع عنك نفحات الغيوب
فكم من كربة عظمت وجلّت ... تجلّت فيك عن فرجٍ قريب
ولا يمنعك ذنبٌ من رجاءٍ ... فإن الله غفّار الذنوب
ولا تحزن إذا ما ضاق عيش ... فتحرم رتبة الرجل اللبيب
وكم لطف خفىّ فى كفاف ... وكم لله من سرٍّ غريب
وكم من محنة فى اليسر تردى ... وتمنع عنك موفور النصيب
ولابس حلّةٍ للوفر يزهو ... ويلهو عن مراقبة الرقيب
يجهله الغِنى وصفَ افتقارٍ ... أحاط به فعجبك من عجيب

ألم تعلم بأن الله فرد ... فتخشى قهر علّام الغيوب
ألم يخلقه من ماءٍ مهين ... مهين إن يدع نهج الأريب
ألم يودعه فى الأرحام دهرًا ... ألم يخرجه من غمٍّ الكروب
ألم يجرى له الثديين رزقًا ... وعرّفه التناول للنصيب
ألم ينعم عليه بمهد لطف ... وأعطاه مودّات القلوب
وهذا المهد ليس له براحٍ ... يسائره إلى وقت المشيب
وأسقط عنه تكليفًا وأمرًا ... إلى أن يرتدى ثوب الأريب
فحين أتى البلوغ أتى بلاغ ... من الرحمن ينذر من قريب
رضيع اللطفِ لا تنسى ودادى ... ودادًا كان فى غيب الغيوب
ربيئة فضْلِنا والجود أسرع ... ولا تجنحْ إلى مرأى قشيب
لطيفة كوننا لا تنْسَ عهدى ... ويوم «ألسْتُ» فاذكر يا حبيب
وقد أعطيتنى عهدًا وثيقًا ... وحفظ العهد من شيم اللبيب

ألم أجعلك سرًّا فى وجودى ... ونقطة دارة الأمر الغريب
ألم أظهر صفاتى فيك جهرًا ... وأستر ذاك بالأمر العجيب
ألم يأتك إرسالى وأمرى ... فليتك لو أجبت لمستجيب
أتاك كلامنا لتجدَّ سيرًا ... لحضرتنا وتعمل فى الدءُوب
كلامٍ ليس يشبهه كلام ... وهيبته تقلقل للقلوب
لطائفه على الأسرار أحلى ... من العذب الجنى المستطيب
إذا تُليَت مثانيه أديرت ... كئوس اللطف من كنف الحبيب
وأيّة آيةٍ تُليت تراها ... عروس الحسن تُجلَى للبيب
وأنوار وأسرار تراها ... إذا ألقيْت سمعك من قريب
إذا ناديتُ كلًّا يا عبادى ... ترى الأسرار تسرع للقريب

وليس إجابتى قولاً ولكن ... ببذل الجهد فى طوع الحبيب
وقد أرسلتُ خير الخلق طرًّا ... ليمحو نورُه رينَ القلوب
أتى بالمنهج المختار يدعو ... إلى الرحمن بالسرِّ الغريب
أتى والأرض قد ملئت ظلامًا ... وكلُّ الخلق فى أمر مريب
فكشف ظلمة كانت وظلمًا ... بشمس هدى تنزّه عن غروب
وخصّصه الإله بكل فضل ... وأعطاه مودّات القلوب
وقال: ومن يُطِعِ خيرَ البرايا ... يطعنى هكذا فعل الحبيب
وفيما قال لمّا بايعوه ... فخارٌ بانَ للفطن الأريب
أزال الكاف كاف ذاك كاف ... وحسبك منه من سر عجيب
هو السباق غايات المعالى ... هو الكشاف أزمات الكروب
وإن القول يقصر عن علاه ... كفاه ثناءً علّام الغيوب
فصلِّ ربنا أبدًا عليه ... وسلّم فى الصباح وفى الغروب
على آل النبىّ وكلِّ صحب ... صلاةً لا تمل من الدءوب
فهم خير القرون ومن هدانا ... بهم ربُّ العباد من الذنوب
وأحمد ليس يرجو فى معاد ... سوى جاء النبى لذى الكروب
ووالده محمد فاعف عنه ... ودارکه بلطف من قريب
وعبدك يا كريم فجُدْ عليه ... وبلِّغه إلى أوفَى نصيب
عطاءُ الله والده أَبِحْهُ ... منالاً منك ستّار العيوب
على الإسلام فاقبضنى سليمًا ... من الآفات بمحو الذنوب
كذاك جميع من واليت فيكم ... ووالانى بإجزال النصيب

وهذا آخر الكتاب، والحمد لله رب العالمين،
وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيّين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، اهـ.

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٩/١٥١٢	
الترقيم الدولى	977-02-5725-7	ISBN

١/٩٨/١٢٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)